درة اليقين
في
أسباب النصر
والتمكين

جمع وإعداد

جميلة المصري

حقوق الطبع محفوظة

دار البيان للنشر والتوزيع
٨٤ ش محرم بك – محطة ترام بوالينو – الإسكندرية

إهداء

إلى أرواح الشهداء في القبة الخضراء على بارق نهر بباب الجنة [١]

إلى المرابطين والمجاهدين في بيت المقدس وفي أكناف بيت المقدس

إلى أهل غزة الصامدين بإيمانِهم إذا وقعت الفتن [٢]

إلى أطفال غزة الكبار الذين زُلزلوا زلزالا شديدًا

فليشهدِ الدهـرُ والتاريـخُ أنَّ لكم
في سُلَّمِ المجدِ إسراءٌ و مُعْتَـرَجُ
يا غـزةَ العـزِّ.. يا آمـالَ أمتِنـا
لعلنا بفتـــوحِ اللهِ نبتَهِـــجُ
عليك مني ســلامٌ طاهـرٌ عَبِقٌ
ما سبَّحَ الخلقُ مولاهم وما لهجوا
يا غزتي! لاعليكِ اليومَ من حَرَجٍ
لكنْ علينا وربِّ الكعبةِ الحَـــرَجُ [٣]

---

[١] عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الشهداءُ على بارقِ نهرٍ بابِ الجنةِ في قبةٍ خضراءَ يخرجُ عليهم رزقُهم من الجنةِ بكرةً وعشيًّا". [رواه أحمد وابن حبان والحاكم، وحسنه الألباني]

[٢] عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إني رأيتُ كأنَّ عمودَ الكتاب انتُزع من تحتِ وسادتي فأتبعتُه بصري فإذا هو نورٌ ساطعٌ عُمدَ به إلى الشامِ، ألا وإنَّ الإيمانَ إذا وقعتِ الفتنُ بالشامِ". [رواه الطبراني والحاكم، وصححه الألباني]

[٣] بتصرف من قصيدة "فلوجة العز" للشاعر المبدع/ صالح بن علي العمري – موقع "صيد الفوائد"

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يهده الله فلا مُضِل له، ومَن يُضلِل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.. **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُون)**.. **(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا)**.. **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا . يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)**..

أما بعد..

لقد نسي المسلمون وعد الله لهم في الذكر الحكيم باستخلافهم في الأرض: **(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا)** [النور:٥٥] فتلاحقت هزائمهم النفسية أمام الضربات الموجعة المفجعة التي توالت عليهم منذ سقوط الخلافة عام ١٩٢٤م وإلى يومنا هذا..

وبدت مظاهر الهزائم النفسية التي يحياها المسلمون واضحة جلية؛ مما طمأن أعداء الإسلام أن مؤامراتهم الخبيثة قد آتت أكلها؛ فقد غدا المسلمون كالقطعان السائبة يغير عليهم الذئاب من المشرق والمغرب يفترسون منهم ما يشاءون دون أن يحرك أحد ساكنًا!!

وليس بخافٍ على أحد دور وكلاء أعداء الأمة المتحكمين في بلادنا؛ الذين عاونوا الأعداء في إخماد كل صيحة إسلامية تحاول إيقاظ الإيمان المخدر في نفوس العباد..

ولقد غاظهم أيما غيظ ثبات ثلة المجاهدين في أرض الرباط؛ على الرغم من تكالب الأعداء وتآمر الدنيا عليهم.. وأيم الله؛ إن هذا الثبات في ذاته لهو النصر المبين..!

هذا النصر الذي بدت تباشيره في أرض الرباط له أسباب وشروط.. وحري بالأمة في هذه الآونة أن تتوجه بكل فئاتها إلى دراسة وتحقيق أسباب النصر؛ فإن سنن الله الكونية نافذة، وعلى أهل الإيمان ألا يتأخروا في الأخذ بالأسباب..

إني أتوقُ إلى انتصارِ عقيدةٍ ... فيها لأنهارِ النجاةِ منابعُ
قالوا: تروم المستحيلَ؟ فقلتُ: ... بل وعدٌ مِنَ الرحمنِ حقٌّ واقعُ
واللهِ لو جرفَ العدوُّ بيوتَنا ... ورمَتْ بنا خلفَ المحيطِ زوابعُ
لظللتُ أؤمنُ أنَّ أمتَنا لها ... يومٌ مِنَ الأمجادِ أبيضُ ناصعُ
هذي حقائقُنا وليست صورةً ... وهميةً فيها العقولُ تُنازعُ
أنا لن أملَّ مِنَ النداءِ فربما ... أجدَى نداءٌ مِن فؤادي نابعُ [1]

هذا كتاب "درة اليقين في أسباب النصر والتمكين".. جمعت فيه –بتوفيق من العلي الكبير– ما تيسر من أسباب النصر والتمكين؛ ورتبته على النحو التالي:

تمهيد: تناولت فيه السنن الربانية التي لا تتبدل إلى قيام الساعة.

وباب بعنوان: الثقة واليقين في وعد الله بنصر المؤمنين.

ثم شرعت في تفصيل أسباب النصر والتمكين على النحو التالي:

[1] من قصيدة "الأمل القادم" للشاعر/ عبد الرحمن العشماوي

أولا: تحقيق الإيمان بالله الواحد.

ثانيا: الاعتصام بالله عز وجل.

ثالثا: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

رابعا: تحقيق الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين، والبراء من أعداء الله والدين.

خامسا: إحياء ثقافة الجهاد.

سادسا: توحيد الكلمة، وتجنب التنازع والشقاق.

سابعا: تحقيق الزهد وقصر الأمل، والتخفف من الدنيا.

ثامنا: تأصيل الهوية الإسلامية.

تاسعا: تحقيق الاستعانة بالله عز وجل.

ولا أزعم أنني استقصيت كل أسباب النصر والتمكين، ولكن هذا ما وفقني إليه المولى الكريم، والفضل كل الفضل للملك الوهاب، ثم للسادة العلماء الذين نقلتُ عنهم، فالله أسأل أن يجزل المثوبة لكل من نقلت عنه حرفًا من السادة العلماء والشعراء.. وأن يجعل هذا الكتاب آيةً للمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وأن يعظم النفع به إلى يوم الدين، وأن يكتب لي به ثواب المجاهدين المخلصين.. إنه سبحانه ولي ذلك والقادر عليه، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم..

فيا عباد الله..

ننامُ على الجراحِ.. نجوعُ.. نَعرى ... ولا يغتالُ صبري مُستبِدُّ

فما التنديدُ يُرجِعُ لي ترابًا ... ولكن.. يُرجِعُ الأوطانَ أُسْدُ

إذا قاموا فـ"بسمِ اللهِ" صفًّا ... و"بسمِ اللهِ" صولتُها أشدُّ

أليسَ غدًا لناظرِهِ قريبٌ؟ ... غدًا سيمرُّ نحوَ القدسِ جُندُ

جميلة المصري

الإسكندرية في ١١/ ٥ / ١٤٣٠هـ – ٧ / ٥ / ٢٠٠٩

ثامنا:
تأصيل الهوية الإسلامية

من مقاصد الشريعة الإسلامية المطهرة أن يكون المسلم متميزا عن جميع الكفرة والفجار في عقيدته وأخلاقه وسلوكه وتفكيره، بل في مظهره ولغته أيضًا

اشهدوا بأنا مسلمون:

لكل أمة من الأمم (ثوابت) تمثل القاعدة الأساسية لبناء الأمة. وفي طليعة هذه الثوابت تأتي (الهُوية) [١]باعتبارها المحور الذي تتمركز حوله بقية الثوابت، والذي يستقطب حوله أفراد الأمة. ولا تستحق أمة من الأمم وصف (الأمة) حتى تكون لها هُويتها المستقلة والمتميزة عن غيرها من الأمم. إذن فالأمة بنيان يتجمع فيه الأفراد حول (هُوية) ثابتة، تكون هي الصبغة التي تصبغ الأمة، وتحدد سلوك أفرادها، وتكيف ردود أفعالهم تجاه الأحداث. ولا شك أنه كلما شعر أفراد الأمة بهُويتهم كلما تعمق انتماؤهم إلى أمتهم، وتأكد الولاء بينهم، وتيسر تعاونهم في سبيل حمل رسالة الأمة والدفاع عنها أمام هجمات الأمم الأخرى.

فحين يندمج المجتمع المسلم مع مبادئ وأسس العقيدة الإسلامية ويمتثلها واقعًا ومنهج حياة، يكون هذا المجتمع بهذه الصورة المفاهيمية معبِّرًا عن مصطلح الهُوية الإسلامية.

وتتميز الهُوية الإسلامية بمفردات أساسية ومناخ يندر أن تتوافر لهُوية أخرى وبالكثافة نفسها والتماسك الذي تتمتع به وهي:

* وحدة المقدَّس الديني (العقيدة).
* وحدة اللسان (اللغة العربية) مع تعددية لغوية لا تتعارض مع لغة القرآن.
* وحدة التاريخ.
* تواصل سكاني إنساني في مدى جغرافي متصل تقريبًا.

---

[١] أصلها من كلمة (هو)، وهو ضمير منفصل يعود على شخص ما، فالهوية إذًا هي المرجعية أو الخلفية التي تتشكل منها الشخصية الإنسانية. [مقال "هل الهوية الإسلامية في خطر" لفضيلة الشيخ/ خباب بن مروان الحمد. (موقع صيد الفوائد)]

كما أنه من البدهي أيضا أن الأمة إذا فقدت (هُويتها) فقدت معها استقلالها وتميزها، وفقدت بالتالي كل شيء؛ لأنها تصبح بلا محتوى فكري أو رصيد حضاري، فتتفكك أواصر الولاء بين الأفراد، وتنهار شبكة العلاقات الاجتماعية في الأمة، وتموت الأمة.. بل تنبعث منها روائح الموت التي تجذب برابرة الأمم كما تجذب جثة الثور الميت صغار الوحوش لتنهش لحمه وتقطع أوصاله، مع أنها كانت في حياته تمتلئ رعبًا من منظره!!

وهذا ما يحدث للأمة في ظل فقدان الهُوية؛ حيث السقوط الحضاري وتداعي الأمم. فإذا أراد أحد إحياء هذه الأمة (الميتة)؛ فإنه لا سبيل أمامه إلا أن يكشف عن هُوية هذه الأمة، ويجلي أبعاد خصوصيتها بين الأمم؛ ليساعد ذلك في الدفع النفسي والشعوري إلى إحياء مجد الأمة التليد، والمساهمة الفعالة في السبق الحضاري من جديد.[1]

قال تعالى: **(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)** [فصلت:٣٣]

ذكر الألوسي في تفسير قوله تعالى: **(وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)**:

أي تلفظ بذلك ابتهاجًا بأنه منهم، وتفاخرًا به مع قصد الثواب؛ إذ هو لا ينافيه. أو اتخذ الإسلام دينًا له. من قولهم: هذا قول فلان أي مذهبه ومعتقده.

وقال الطبري في تفسيره:

وقال: إنني ممن خضع لله بالطاعة، وذل له بالعبودية، وخشع له بالإيمان بوحدانيته.

وقال البقاعي في "نظم الدرر":

---

[1] الكتاب القيم "الأمة الإسلامية من التبعية إلى الريادة" / د.محمد محمد بدري – مقال "هل الهوية الإسلامية في خطر" لفضيلة الشيخ/ خباب بن مروان الحمد (موقع صيد الفوائد) – أسئلة الهُوية: مقال بقلم: عبد الرحمن فرحانة/مجلة البيان (٢٠٢/ ٣٠)

أي الراسخين في صفة الإسلام متظاهرًا بذلك لا يخاف في الله لومة لائم وإن سماه أبناء زمانه جافيًا وغليظًا لتصلبه في مخالفته إياهم فيما هم عليه؛ بتسهله في انقياده لكل ما أمره به ربه سبحانه.

وقال تعالى: (**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**) [آل عمران: ٦٤]

قال القرطبي في تفسيره:

(فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ): أي متصفون بدين الإسلام، منقادون لأحكامه، معترفون بما لله علينا في ذلك من المنن والإنعام، غير متخذين أحدًا ربًّا؛ لا عيسى ولا عُزيرًا ولا الملائكة؛ لأنهم بشر مثلنا. ولا نقبل من الرهبان شيئًا بتحريمهم علينا ما لم يحرمه الله علينا؛ فنكون قد اتخذناهم أربابا.

وجاء في تفسير المراغي:

قولوا لهم: إنا منقادون لله، مخلصون له، لا نعبد أحدًا سواه، ولا نتوجه إلى غيره نطلب منه النفع أو دفع الضر، ولا نُحلُّ إلا ما أحله الله، ولا نُحرّم إلا ما حرمه الله.

وقال أبو زهرة:

اشهدوا بأنا مسلمون، مذعنون لطلب الحق فلا تحاولوا أن تغيرونا عما اعتقدنا وقد أنصفناكم بالدعوة إلى كلمة الحق والإنصاف، فلم تجيبوا، والآن ننصفكم مرة أخرى بأن نشهدكم بأننا مخلصون في طلب الحق مذعنون له. ومن جانبنا؛ فإن أذعنتم مثلنا فنعمّا هي، وإن لم تذعنوا فلنا ديننا، ولكم دينكم، والله يحكم بيننا وهو خير الحاكمين.

لقد بلور الإسلام (هوية الأمة الإسلامية)، ومنح أفرادها (الجنسية) الإيمانية، فاجتمعوا حول الإسلام وربط بينهم حبل الله كارتباط الجسد الواحد. ولم يستطع الغزو العسكري أو الفكري أن يحكم الأمة الإسلامية بغير الإسلام إلا في ظل سياسة العصا الغليظة، والاستبداد السياسي، والظلم الاجتماعي، والأنظمة الجبرية؛ حيث تُلغى إنسانية الإنسان، وتُطارد حريته، وتُصادر هويته !!

ولكن.. سيبقي الإسلام (وحده) هو المنهج الذي يمثل خصائص الأمة ومنطلقاتها الاعتقادية وأهدافها الحضارية.. ذلك أنه هو (هوية الأمة الإسلامية).[١]

وخلاصة القول:

الهُوية لأى أمة تحمل فى طياتها أبعادًا تاريخية وثقافية ودينية واجتماعية وبشرية واقتصادية، وتلتقى هذه جميعًا فى بصمات الهُوية الحضارية. وبالنسبة للأمة الإسلامية يمثل عامل الدين الإسلامى العمود الفقرى لبقائها، بينما تمثل اللغة العربية وهى لغة القرآن الكريم لسانها ووسيلة تعبيرها.[٢]

يا سـائـلاً عنَّـا تَعـالَ إليَّ أنبئْكَ الخبَـرْ
إنْ أقفرتْ أرضُ القلوبِ فنحنُ حبَّاتُ المطرْ
أو أظلمتْ سُبلُ الحياةِ فنحنُ في الدنيا القمرْ
منَّا أبـو بكرٍ وصاحبُـهُ أبـو حَفصٍ عُمَـرْ
و إذا أرادَ اللهُ نحنُ قضـاءُ ربِّي و القَـدَرْ

[١] الكتاب القيم "الأمة الإسلامية من التبعية إلى الريادة" / د. محمد محمد بدري (بتصرف يسير).

[٢] محو الهوية الإسلامية: مقال لـ د. فتحي رجب العكاري.

تبَّتْ يَـدَا مَن لم يَكنْ منَّـا وتبَّ وألفُ تـبٍّ
لا مالُهُ يُغنِيهِ عن هَـدْيِ الإلـهِ ولا الذَّهـبْ
كُنْ مُسلمًا و كفاكَ عندَ اللهِ هذا مِن نَسَبْ
واطلبْ رضـا مولاكَ مجتهدًا وأجمِلْ بالطَّلبْ
إنْ لم تكنْ عُمَرًا؛ فلا تكُ في الحياةِ أبالهبْ

كُنْ مسلمًا تُدرِكْ بعَـوْنِ اللهِ غاياتِ الكمـالْ
كُنْ في ضميرِ الكونِ قُـرآنًا وصوتًا مِن بلالْ
أوْصِلْ حبالَكَ بالإلهِ تَعِـزُّ هـاتيـكَ الحبـالْ
لا تَنسِفُ الريحُ الجبالَ فكنْ بعزمِكَ كالجبالْ
واكتُبْ بحبرِ الحبِّ والإيمانِ ديـوانَ الرِّجـالْ[1]

صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة

عرَّف بعض الباحثين (الهُوِيَّة) بأنها مجموعة العقائد والمبادئ والخصائص التي تجعل أمةً ما تشعر بمغايرتها للأمم الأخرى. ولهذا كانت الأمة الإسلامية خير أمَّة أخرجت للناس كما قال تعالى: **(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ)** [آل عمران: ١١٠]. وخيريَّة هذه الأمة نابعة من استقلاليتها التشريعية والعقائدية والسلوكية عن غيرها من الأمم الأخرى.[2]

قال تعالى: (صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ) [البقرة: ١٣٨]

---

[1] من قصيدة "كن مسلما" للشاعر المبدع/ أنس إبراهيم الدغيم.

[2] تجديد الوعي: د. عبد الكريم بكَّار (نقلا عن مقال "هل الهوية الإسلامية في خطر" لفضيلة الشيخ/ خباب بن مروان الحمد موقع صيد الفوائد).

الصبغة هي الملة التي اختارها الله تعالى، وهي ملة إبراهيم، وهي دين الله الحق الذي اصطفاه واختاره وصح أن يكون دينه.

والصبغة في الأصل ما يصبغ منه، ويتشربه الثوب حتى يصير لونا غير قابل للتغيير، بيد أن هذه الصبغة في القلب يتشربها فتكون لونًا ثابتًا مستقرًّا دائمًا بالإيمان والإذعان، يخالط مداركه، ويتشربها قلب المؤمن كما يتشرب الثوب صبغته؛ لأنه مفطور على الإيمان، والإيمان في فطرته، إلى أن يتدرن بالأهواء والشهوات فتُطمس الفطرة.

و(**صِبْغَةَ**) هنا منصوبة على الإغراء لفعل محذوف تقديره "الزم" صبغة الله؛ فإنها إيمان القلوب، وزينة النفوس للمؤمنين، كما يتزين الجسم بزينة الثياب الملونة بأبهى الصباغ.

وإن التعبير عن (الدين) بأنه (صبغة الله) إشارة لما يفعله اليهود والنصارى من صبغ أولادهم باليهودية أو النصرانية بما يغمسونهم فيه بماء يسمى المعمودية.

فإذا كان هؤلاء يعملون تلك الأعمال حاسبين أنها تصبغهم بدينهم غير الحق الذي ارتضوا، فالله سبحانه وتعالى هو الذي يجعل القلوب تتشرب حب الدين الحق، فلا تتحول ولا تتغير ولا تتبدل.

وقد صبغنا الله وفطرنا على الاستعداد للحق، والإيمان بما جاء به الأنبياء والمرسلون، فلا نتبع آراء الرؤساء وأهواء الزعماء وتقاليدهم الوضعية، وهو زينتنا التي بها نتحلى كما يتحلى الثوب بالصبغ.

وبين سبحانه وتعالى أن صبغة الإيمان الجامع الذي اختاره الله تعالى دينًا للعالمين هي أحسن صبغة وأبهاها حِسًّا ومعنى وطهارة؛ ولذا قال تعالى: (**وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً**) أي لَا صبغة أفضل من صبغة الله تعالى؛ لأنها الحق، والحق وحده زينة القلوب. وغيرها الباطل، وهو طمس للفطرة. وفرق بين زينة القلب وحسن الإيمان والإشراق بنوره، وطمس النور منه وامتلائه بالظلمات.

(وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ) فالقلوب قسمان: قلوب على الفطرة يدخلها نور الإيمان فيشرق فيها، وقلوب طمست عليها الأهواء، وسيطرت عليها، وأخفت منابع الهداية؛ فهي عمياء عن الهدى، غُلِّقت فلا تدخلها هداية.

وإنما يدرك جمال صبغة الله تعالى وتزيينها للقلب والنفوس الذين يوقنون بالحق، ومَن شاء الإيمان به؛ إذا قامت دلائله وبدرت محاسنه؛ ولذا قال تعالى: **(وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ)** خاضعون له لا لسواه؛ ولذا قدم "له" على "عابدون"، إذ التقديم للاختصاص، فلا نعبد سواه ولا نؤمن بغيره. ولا نتخذ الأحبار والرهبان أربابًا يزيدون في ديننا وينقصون، ويحلون ويحرمون، ويمحون من نفوسنا صبغة التوحيد ويثبتون مكانها صبغة البشر التي تُفضي إلى الإشراك بالله واتخاذ الأنداد له.

ووصفهم باسم الفاعل الدال على الثبوت والاستقرار (عابدون)، ليدل على اتصافهم بذلك وكونه صار صبغة لهم ملازمًا.

وفي الآية إيماء إلى أن الإسلام لم يشرع أعمالا خاصة يتميز بها المسلم من سواه، كما شرع النصارى المعمودية، بل المعوَّل عليه ما صبغ الله به الفطرة السليمة من الإخلاص وحب الخير والاعتدال، كما قال تعالى: **(فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ، وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ)**.[1]

فيا عباد الله..

إن من مقاصد الشريعة الإسلامية المطهرة أن يكون المسلم متميزًا عن جميع الكفرة والفجار في عقيدته وأخلاقه وسلوكه وتفكيره، بل في مظهره ولغته أيضًا.

فليس على المؤمن إلا أن يستقيم على سنة الله، وأن يعتز بالحق المستمد مباشرة من ربه، وبالعلامة التي يضعها الله على أوليائه، فيُعرفون بها في الأرض:

[1] زهرة التفاسير– تيسير الكريم الرحمن– تفسير المراغي (بتصرف يسير).

(صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عابِدُونَ).

صبغة الله التي شاء لها أن تكون آخر رسالاته إلى البشر. لتقوم عليها وحدة إنسانية واسعة الآفاق، لا تعصب فيها ولا حقد، ولا أجناس فيها ولا ألوان.[١]

يـا مسـلمَ الخيـرِ عـينُ الكـونِ حـائرةٌ وقد تمكَّنَ مِن وِجدانِه التَّعَبُ
فـــاقرأْ عليـــهِ كتـــابَ اللهِ، داوِ بـــهِ جرحَ المريضِ الذي مازالَ يَنتحبُ
وأَجْرِ نَهرَ حديثِ المصطفى، فعلى ضفافِه الخُضْرِ ينمو العلمُ والأدبُ
يا مسلمَ الخيرِ أنتَ النَّبْعُ في زمنٍ جَفَّتْ ينابيعُهُ وازدادتِ الكُرَبُ

[٢]

حسدًا من عند أنفسهم:

قال تعالى: (وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) [البقرة: ١٠٩]

(وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا): (ودَّ) هنا معناها تمنى، فإنها تستعمل بمعنى أحب، وبمعنى تمنى، وحيث كانت (لو) وما بعدها موضع الطلب كانت بمعنى تَمَنَّى.

فإن أمنية أهل الكتاب (وكذلك المشركون) أن يختفي هذا الدين، ولا يكون إلا الوثنية وخصوصًا الوثنيين الذين بقوا على وثنيتهم من الأوس والخزرج لكيلا يكون محمد صلى الله عليه وسلم وصحبه مسيطرين على المدينة.

ويقول سبحانه في موضع التمني وباعثه: **(لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم)** تمنوا أن تعودوا إلى الكفر، بعد أن ذقتم بشاشة الإيمان،

---

[١] فتاوى اللجنة الدائمة – في ظلال القرآن: سيد قطب (باختصار).

[٢] من قصيدة "يا مسلم الخير" للشاعر د. عبدالرحمن العشماوي.

وعبر بقوله تعالى: (**يرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا**) **للإشارة إلى أن ذلك رجعة بعد تقدم، وانتكاسة بعد استقامة.**

ولما كان الباعث على ذلك (الحسد)، والحسد قلق النفس من رؤية النعمة على الغير، وعبر عن بلوغ الحسد إلى غاية لا حيلة معها في تركه بقوله: (**مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم**) أي إنه راسخ في طبائعهم فلا تطمعوا في صرفه بشيء، فإن أنفسهم غالبة على عقولهم.

وحسد اليهود كان باديًا في كل معاملاتهم للنبي صلى الله عليه وسلم، وفي أقوالهم وأفعالهم، وحسد بعض الذين بقوا على وثنيتهم كان باديًا في نفاقهم وفي أفعالهم، وكانوا يجاهرون بالحسد، ولا يخفون كفرهم.

وهكذا.. يوقظ السياق القرآني وعي الجماعة المسلمة، ويركزه على مصدر الخطر ومكمن الدسيسة، ويعبئ مشاعر المسلمين تجاه النوايا السيئة والكيد اللئيم والحسد الذميم.. ثم يأخذهم بهذه الطاقة المعبأة المشحونة كلها إلى جناب الله ينتظرون أمره، ويعلقون تصرفهم بإذنه.. وإلى أن يحين هذا الأمر يدعوهم إلى العفو والسماحة، لينقذ قلوبهم من نتن الحقد والضغينة، ويدعها طيبة في انتظار الأمر من صاحب الأمر والمشيئة ..

(**فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ**): أي عاملوهم معاملة العافي بأن لا تذكروا لهم شيئًا مما تظهره تلك الودادة الناشئة عن هذا الحسد من الأقوال والأفعال ولا تأخذوا في مؤاخذتهم به؛ فإنهم لا يضرونكم ولا يرجعون إليكم، (**وَاصْفَحُوا**) أي أظهروا لهم أنكم لم تطلعوا على شيء من ذلك، وأصل معناه من الإعراض بصفحة العنق عن الشيء كأنه لم يره.

وحثهم على أن يكون فعلهم ذلك اعتمادًا على تفريجه سبحانه بقوله: (**حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ**) الذي لا أمر لأحد معه (**بِأَمْرِهِ**) فبشرهم بذلك بظهورهم على من أُمروا بالصفح

والعفو عنهم.

ولما كان النصر وهم في القلة والضعف بحال عظيم، وقوة عدوهم وكثرتهم أعظم مستبعَدًا قال: **(إِنَّ اللَّهَ)** وأظهر موضع الإضمار تحقيقًا للبشرى بالإيماء إلى استحضار ما يدل عليه هذا الاسم الأعظم من صفات الجلال والإكرام **(عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)** ففي هذا الختم بُشرى للمؤمنين بتقديرهم، كما أن في الختم بالعلم بُشرى بتعليمهم. وفي إفهامه نذارة للكافرين بمقابل ذلك.

قال الشيخ الشنقيطي رحمه الله: قوله تعالى: **(فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّه بِأَمْرِهِ)**. هذه الآية في أهل الكتاب كما هو واضح من السياق، و(الأمر) في قوله: **(بِأَمْرِهِ)**، قال بعض العلماء: هو واحد (الأوامر). وقال بعضهم: هو واحد (الأمور). فعلى القول الأول، بأنه الأمر الذي هو ضد النهي، فإن الأمر المذكور هو المصرَّح به في قوله: **(قَاتِلُواْ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالله وَلاَ باليوم الآخر وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ الله وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الحق مِنَ الذين أُوتُواْ الكتاب حتى يُعْطُواْ الجزية عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ)** [التوبة:٢٩] .

وعلى القول بأنه واحد الأمور، فهو ما صرح الله به في الآيات الدالة على ما أوقع باليهود من القتل والتشريد كقوله: **(فَأَتَاهُمُ الله مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرعب يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي المؤمنين فاعتبروا ياأولي الأبصار وَلَوْلاَ أَن كَتَبَ الله عَلَيْهِمُ الجلاء لَعَذَّبَهُمْ)** [الحشر:٢-٣] إلى غير ذلك من الآيات، والآية غير منسوخة على التحقيق.

وإن الحظوظ النفسانية، والشهوات الدنية، والتسويلات الشيطانية حجبت مَن حجبت عن الإيمان، وقيَّدت مَن قيَّدت في الخذلان.

ومَن لَحِقَه خسران الفهم من أصحاب الغفلة ودَّ ألا يَطْلُعَ لأحدٍ بالسلامة نجمٌ، ومَن اعتراه الحسد أراد ألا تنبسط على محسوده شمسٌ.

وكذلك كانت صفات الكفار، فأرغم اللهُ أنوفَهُم، وكبَّهم على وجوههم.[١]

ذلك الانفعال الأسود الخسيس الذي فاضت به نفوس اليهود تجاه الإسلام والمسلمين، ومازالت تفيض، وهو الذي انبعثت منه دسائسهم وتدبيراتهم كلها وما تزال. وهو الذي يكشفه القرآن للمسلمين ليعرفوه، ويعرفوا أنه السبب الكامن وراء كل جهود اليهود لزعزعة العقيدة في نفوسهم وردهم بعد ذلك إلى الكفر الذي كانوا فيه، والذي أنقذهم الله منه بالإيمان، وخصهم بهذا بأعظم الفضل وأجل النعمة التي تحسدهم عليها يهود!

قال تعالى:

(وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ) [البقرة: ١٢٠]

(قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ) [آل عمران: ١١٨]

(وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً) [النساء: ٨٩]

(إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ) [الممتحنة: ٢]

(وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) [البقرة: ٢١٧]

هذا التقرير الصادق من العليم الخبير يكشف عن الإصرار الخبيث على الشر وعلى فتنة المسلمين عن دينهم بوصفها الهدف الثابت المستقر لأعدائهم. وهو الهدف الذي لا يتغير لأعداء الجماعة المسلمة في كل أرض وفي كل جيل.. إن وجود الإسلام في الأرض هو بذاته غيظ ورعب لأعداء هذا الدين ولأعداء

[١] زهرة التفاسير – نظم الدرر – روح المعاني – لطائف الإشارات – أضواء البيان – في ظلال القرآن.

الجماعة المسلمة في كل حين؛ إن الإسلام بذاته يؤذيهم ويغيظهم ويخيفهم. فهو من القوة ومن المتانة بحيث يخشاه كل مبطل، ويرهبه كل باغٍ، ويكرهه كل مفسد.
إنه حرب بذاته وبما فيه من حق أبلج، ومن منهج قويم، ومن نظام سليم.
إنه بهذا كله حرب على الباطل والبغي والفساد، ومن ثَمَّ لا يطيقه المبطلون البغاة المفسدون. ومن ثَمَّ يرصدون لأهله ليفتنوهم عنه، ويردوهم كفارًا في صورة من صور الكفر الكثيرة.

فالمؤامرة التي بدأت منذ نزول القرآن وظهور الإسلام لاتزال مستمرة، وهي في كل عصر تأخذ طابعًا مختلفًا، وقد نبأنا الله تبارك وتعالى من أخبارها، وجاءت الأحداث متوالية متتابعة لتكشف لنا أبعاد المؤامرة التي تدبر للإسلام على مر الزمان.[١]

الهدف الذي لا يتغير لأعداء الجماعة المسلمة في كل أرض وفي كل جيل:

يلخص الدكتور/ علي جريشة الأحداث الكبرى التي حولت مسار الأمة، ومكنت أعداءها من تحقيق مبتغاهم بقوله: [وجود الغرب المسيحي هنا في شرقنا الإسلامي لم يكن صدفة؛ بدأ بالوجود المادي العسكري، وتبعه الاستشراق والتبشير ـ الوجود المعنوي ـ أعقبه مرةً أخرى الوجود العسكري ـ الاستعمار ـ وتقطيع أوصال دولة الخلافة الإسلامية، ثم أعقبه بَثٌّ فكريٌّ فصَلَ الدينَ عن الدولة، وفكرة القومية، ثم الإجهاز على الخلافة الإسلامية، وأخيرًا.. حين رحلت جنوده، أبقى له جنودًا

[١] في ظلال القرآن – الهُوية الإسلامية ومؤامرة القضاء عليها: أنور الجندي.

آخرين من جِلدتنا، ويتحدثون بلساننا؛ وبهم أجرى التغيير السياسي المطلوب، وأجرى التغيير الاجتماعي المقصود.][١]

ولا يزال أصحاب المطامع من عباد العجل الذهبي وإمبراطورية الربا يخططون من أجل السيطرة على الأمة الإسلامية وثرواتها ومقدراتها؛ التي استُنزِفت منذ أكثر من قرنين من الزمان لحساب القوى العالمية. بينما يواجه المسلمون الحروب والمجاعات والنهب وتمييع الهُوية؛ في محاولة لإخضاع المسلمين والعرب، وضرب بعضهم ببعض.[٢]

وتبدأ الأحداث في مرحلة ما قبل إسقاط الخلافة بحملاتٍ غزت الشرق الإسلامي باسم الصليب وتحت رايته، وكان رجال الكنيسة في أوروبا يدفعون الملوك والشعوب إلى هذه الحروب، فاتخذت بذلك طابعًا دينيًّا شكلًا وموضوعًا، وكان تفرق المسلمين إلى دويلاتٍ وضعف دولتهم مشجعًا لهم على ذلك الغزو. وليس صحيحًا ما يحاول بعض الكتاب العرب تصويره؛ من أنها كانت مجرد حملات استعمارية باحثة عن المصالح الاقتصادية. نعم.. قد يكون الاستعمار والاستغلال الاقتصادي من أهدافها، لكنه بالتأكيد ليس الهدف الأول الرئيسي، إنما كان هذا هدفًا دينيًّا، ولم تكن حماسة رجال الدين المسيحي، ولا مشاركتهم في هذه الحملات عفوًا ولا لغوًا، ولكنه كان قصدًا إلى الانتقام من غزو الإسلام لقلب أوربا، حتى صار البحر الأبيض المتوسط بحيرة إسلامية خالصة، وحتى بلغ المسلمون جنوب فرنسا.[٣]

فقد كانت خطة مدبري الحروب الصليبية القيام بحرب مادية مسلحة بالأسلحة العسكرية، لغزو بلاد المسلمين، واستلاب أموالهم، وهدم حضارتهم،

---

[١] مقدمة الكتاب الجامع "أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي": د. علي جريشة.

[٢] الهُوية الإسلامية ومحاولة القضاء عليها: أنور الجندي (بتصرف)

[٣] أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي: د. علي جريشة.

وتحويلهم عن دينهم الذي هو مصدر قوتهم ووحدتهم، ومنبع حضارتهم وتقدمهم في شتى المجالات الإنسانية.

وشهد شاهد منهم؛ إذ يقول "غاردنر": **إن الحروب الصليبية لم تكن لإنقاذ القدس، إنما كانت لتدمير الإسلام.**

وبعد معارك طاحنة استمرت قرنين كاملين؛ ارتدت حملات الصليب على أعقابها خاسرة؛ فقد كتب الله عليهم الجلاء، على أيدي الأبطال المسلمين الذين رفعوا راية الإسلام، وقاتلوا في سبيل الله، وباعوا لله أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، فأظفرهم الله بعدوهم، وأيدهم بنصره.

وكانت عظة هذه الحروب في نفوس الصليبيين وجوب تحويل المعركة مع المسلمين من حرب سافرة مسلحة توقظهم من سُباتهم، وتعيدهم إلى أسس دينهم، وتحيي فيهم روح الجهاد في سبيل الله، إلى حرب مقنَّعةٍ يدخل في حسابها الغزو الفكري والنفسي والخلقي، والغزو الحضاري والمدني والاقتصادي، وأخذ مفكروهم يضعون الخطط لتنفيذ هذه الحروب المقنَّعة.

وبدأ التخطيط لتحويل المعركة من ميدان السلاح إلى معركة في ميدان العقيدة والفكر؛ بهدف تزييف عقيدة المسلمين الراسخة التي تحمل طابع الجهاد، وتدفع المؤمنين إلى الاستشهاد.

وانتهى المخططون إلى أن وضعوا لأنفسهم القاعدة التالية: "إذا أرهبك سلاح عدوك فأفسد فكره؛ ينتحر به".

وكذلك فعلوا، وكذلك يفعلون باستمرار في الشعوب الإسلامية. وكلما استجمعت هذه الشعوب شيئًا من قوتها، وأبصرت مراكز عدوها، وأرادت أن ترفع رأسها إلى المجد مكر بها أعداؤها وأعداء دينها، فأفسدوا لديها جانبًا من جوانب الفهم السليم للأمور، والفكر الصحيح في معالجة المشكلات الكبرى، ثم استدرجوها إلى مزالق

خطرة تلجأ فيها إلى استخدام أسلحتها ضد نفسها، فتكون بمثابة مَن ينحر نفسه حماقة وجهلا.[١]

وبدأت مرحلة التبشير والاستشراق:

التبشير: تعريف أطلقه رجال الكنيسة النصرانية على الأعمال التي يقومون بها لتنصير الشعوب غير النصرانية، ولا سيما المسلمون. ثمَّ تحوَّل هدف التبشير داخل الشعوب المسلمة إلى غاية التكفير، وإخراج المسلمين عن دينهم، ولو إلى الإلحاد والكفر بكل دين.

وهو يستهدف الحيلولة دون توسيع الإسلام وانتشاره، وعدم منافسته للمسيحية في البلاد التي تحاول القيام بالتبشير ونشر المسيحية فيها.

والخطر الأكبر في نظر المبشرين هو وصول مفاهيم الإسلام الصحيحة إلى عالم الغرب نفسه، ومما يذكر أن المسلمين لما فتحوا مدينة القسطنطينية -عاصمة الدولة الرومانية الشرقية، وفيها مركز البابوية للكنائس الشرقية- هبَّ رجال الكنيسة؛ وقد هالهم الخطب العظيم، فأخذوا في الافتراء والتشنيع على الإسلام وتشويه أحكامه الإلهية العادلة. وكان الدافع لهم في هذه الحملة الحيلولة بين رعاياهم الذين أقبلوا على الدخول في دين الله أفواجًا؛ ليصدوهم عن الإسلام الذي يبيح تعدد الزوجات والطلاق.

والاستشراق: تعبير أطلقه الغربيون على الدراسات المتعلقة بالشرقيين؛ شعوبهم وتاريخهم وأديانهم ولغاتهم، وأوضاعهم الاجتماعية، وبلادهم وأرضهم وحضاراتهم وكل ما يتعلق بهم.

---

[١] أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي: د. علي جريشة – أجنحة المكر الثلاثة: عبد الرحمن حَبَنَّكة – قادة الغرب يقولون: دمروا الإسلام أبيدوا أهله: جلال العالم. (بتصرف)

وقد بدأ الاستشراق ـ على الأرجح ـ منذ دقَّت جيوش الفتح الإسلامي أبواب أوروبا العريضة، وكان المسلمون قد احتلوا عرش السيادة الدولية، وملأوا سمع الزمان وبصره وقلبه وسائر مشاعره.

وأخذت أوروبا الغارقة في الجهل والتخلف الحضاري يومئذ تبحث عن أسباب نهضة المسلمين، وبلوغهم هذا المجد العظيم الذي بلغوه، وأخذ بعض رجال الكنيسة الأوروبيين يدرسون علوم هؤلاء الفاتحين ولغاتهم، لعلهم يظفرون بما يوقفون به مد هذا الفتح الإسلامي، ولعلهم يكتسبون من علوم المسلمين ما ينفعهم في إنقاذهم من تخلفهم، ويفتح لهم أبواب الارتقاء؛ فكان (الاستشراق) طلبًا لعلوم الشرقيين ولغاتهم وأوضاعهم، وبحثا عنها.

فكان هدفهم الأساسي دراسة الإسلام والشعوب الإسلامية؛ لخدمة أغراض التبشير من جهة، وخدمة أغراض الاستعمار الغربي لبلدان المسلمين من جهة أخرى، ولإعداد الدراسات اللازمة لمحاربة الإسلام وتحطيم الأمة الإسلامية.

وقد أُنشئ أول مركز لدراسة اللغة العربية في (الفاتيكان) لتخريج أهل جدل يقارعون فقهاء المسلمين ويجادلون البروتستانت.[١]

ورحل أول فريق من "الرهبان" إلى المغرب للغاية نفسها؛ فقُتل منهم هناك عدد كثير، ورحل آخرون إلى المشرق؛ إلى سوريا ومصر.

---

[١] كان بداية ظهور تأثير الحضارة الإسلامية على شعوب أوروبا أن ملوك الفرنجة بدأوا يحاولون التخلص من نفوذ الكنيسة وتسلطها الرهيب، وبدأ كثيرٌ من المفكرين الذين فتحت الحضارة الإسلامية أعينهم يضعون (الكنيسةَ) موضع المناقشة والاتهام، حتى انجَلَتْ تلك المناقشات عن حركة انشقاقية في قلب الكنيسة عُرفت فيما بعد باسم الكنيسة (البروتستانتية).

وحاولت الكنيسة في روما إيقاف هذا المد، ففتحت محاكم التفتيش تنكل وتحرق وتقتل كل من رفع راية العصيان في وجهها، أو حاول التخلص من سيطرتها؛ فعرف الأوروبيون حينذاك أبشع عصور الاضطهاد الديني والفكري؛ فحنقوا ليس على الكنيسة فحسب بل على (الدين) الذي حملت تلك الكنيسة رايته، وارتكبت الفظائع باسمه، وكان بداية نشوء (العلمانية).

واضطرت (الكنيسة) إلى الدفاع عن نفسها بطريقة أخرى، فبدأت بالاهتمام بدراسة اللغات الشرقية وفي مقدمتها اللغة العربية. وكانت طلائع المستشرقين من القُسُس والرهبان؛ فانكبوا على دراسة اللغة العربية؛ إذ كان رجال الكنيسة (وحدهم) يشكلون الطبقة المتعلمة في أوروبا، ويهيمنون على الجامعات ومراكز العلم فيها. [المستشرقون في الميزان: عبد العزيز بن عبد الفتاح القارئ]

وانطلق المتوجهون للدراسات الشرقية يعملون في هذا المضمار بجد، ويترجمون إلى لغاتهم كتبًا كثيرة من كتب المسلمين. ونفر فريقٌ منهم يدفعهم التعصب الصليبي إلى الكتابة عن الإسلام؛ لخدمة أهداف الاستشراق الأساسية الرامية إلى تشويه الإسلام وتشويه التاريخ الإسلامي، ووضع الشبهات وتصيد الأدلة لها، وتوجيه الانتقادات الملفقة إلى أحكام الإسلام وشرائعه.

ولم يكن عمل المستشرقين منفصلًا عن عمل المبشرين، بل كانت مهمة كل من الطائفتين تدخل في الأخرى. فالتقت في الاستشراق أهداف جمعيات التبشير وأهداف الدوائر الاستعمارية.

ووضعت أوروبا النصرانية تحت يد المستشرقين كل الإمكانيات التي يحتاجونها للتعمق في دراساتهم للعالم الإسلامي واللغة العربية.

وفي مطلع القرن الثالث عشر الهجري -أواخر القرن الثامن عشر الميلادي- عمد المستشرقون إلى تغيير أساليبهم، وأرادوا أن يظهروا بمظهر جديد؛ فزعموا تحرير الاستشراق من الأغراض التبشيرية، والاتجاه به وجهة البحث العلمي البحت. فأُنشئت كليات لتدريس اللغات الشرقية في عواصم أوروبا؛ مثل: لندن وباريس ولَيْدن وبرلين وبطرسبرج وغيرها، وظهرت فيها أقسام خاصة لدراسة اللغة العربية، وبعض اللغات الإسلامية؛ كالفارسية والتركية والأُردية، وكان الغرض منها تزويد السلطات الاستعمارية بخبراء في الشؤون الإسلامية.

ثم أخذ الطلاب المسلمون يؤمون هذه الكليات الأوربية للدراسة فيها، وبذلك تأثر الفكر الإسلامي بما يلقيه المستشرقون في أذهان هؤلاء المبعوثين من أبناء المسلمين.[١]

---

[١] يقول العلامة "محب الدين الخطيب": إن الذين تثقفوا بثقافة أجنبية عنا قد غلب عليهم الوهم بأنهم غرباء عن هذا الماضي، وأن موقفهم من رجاله كموقف وكلاء النيابة من المتهمين، بل لقد أوغل بعضهم في الحرص على الظهور أمام الأغيار بمظهر=

ثم تسلل المستشرقون إلى الدوائر العلمية والجامعات في الدول الإسلامية، بل إلى المجامع العلمية في القاهرة ودمشق وبغداد، وقامت المؤسسات الدينية والسياسية والاقتصادية في الغرب بما كان يقوم به الملوك في الماضي؛ من الإغداق على المستشرقين، وتقديم المنح والمعونات لهم.

ورأى اليهود الاستشراق بابًا خطيرًا من أبواب التسلل إلى البلاد التي يحلمون بالسيطرة عليها وفق طريقتهم، ويريدون أن يتخذوا لأنفسهم صنائع فيها من أبنائها، فتخصص فريق منهم بالدراسات الشرقية وتابعوا المسيرة ضمن الخطط اليهودية، حتى احتل اليهود عددًا وفيرًا من كراسي الدراسات الشرقية في الجامعات الكبرى، وأخذوا يخدمون الأغراض اليهودية الصهيونية في هذا المجال تحت ستار خدمة أغراض المستشرقين المسيحيين وأغراض الدوائر الاستعمارية.

ومما تجدر الإشارة إليه أن طائفةً من المستشرقين اتسموا بالاعتدال والإنصاف، على تفاوتٍ فيما بينهم؛ فمنهم مَن أخطأ وأصاب، ومنهم مَن انتهى به البحث الحرّ النزيه إلى الإيمان والإسلام.

وكان المستشرقون طلائع للمبشرين، يمهدون السبيل أمامهم؛ لتشكيك المسلمين في عقائدهم، ويفتحون أمام دعاة النصرانية السبيل للطعن في الإسلام ونبيّه بأنواعٍ شتَّى من الشعوذة العلمية، باسم البحث والاستنتاج التحليلي. [١]

=المتجرد عن كل آصرة له بماضي العروبة والإسلام لئلا يتّهم في زعمه بالعصبية لهما، فوضع نفسه موضع التهمة بالتحامل عليهما جريًا وراء بعض المستشرقين في ارتيابهم؛ حيث تحسن الطمأنينة، وفي ميلهم مع الهوى عندما يدعوهم الحق إلى التثبت، وفي إنشائهم الحكم وارتياحهم إليه قبل أن تكون في أيديهم أشباه الدلائل عليه. [نبذة عن منهج الطبري في تاريخه]

[١] المستشرقون في الميزان: عبد العزيز القاري – أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي: د. علي جريشة – أجنحة المكر الثلاثة: عبد الرحمن حَبَنَّكَة (بتصرف).

وخلاصة القول:

الغزو الثقافي الذي يجتاح الأمة الإسلامية صنو للغزو العسكري الذي جاس خلال ديارها من بضعة قرون، وأثر لابد منه للهزائم التي أصابتنا وألحقت بنا خسائر مادية ومعنوية فادحة. والأعداء إذا شنوا غارة على بلد ما، فهم لا ينزلون به سائحين عابرين، ولا زائرين متفرجين. وإنما ينزلون به مستبيحين بيضته، وكاسرين شوكته.. فإن كانوا طلاب مغانم استنزفوا خيره ولم يدعوا لأهله إلا الفُتات، **وإن كانت لهم أغراض دينية أو اجتماعية وضعوا الخطط القريبة والبعيدة لمحو شخصية الأمة وتغيير ملامحها..** وكما يُنقل النهر من مجرى إلى مجرى آخر، **تُنقل الأمة رويدًا رويدًا من مجراها العقلي الأول إلى مجرى آخر يرسمه خصومها ويدفعونها إليه دفعًا..**

والاستعمار الغربي الذي هاجم العالم الإسلامي من بضعة قرون كان مزدوج الهدف؛ فهو طامع في خيرات الشرق الكثيرة، يراها ميراثًا لا صاحِبَ له، وهو في الوقت نفسه مُثقل بضغائن قديمة؛ يكره الإسلام كراهية شديدة، ويضيق بكل مَن ينتمي إليه، ويشتد ضيقه بالعرب خاصة؛ فهم قوم محمد وحملة رسالته، وما تزال لغتهم مستودع كتابه وسنته.. فلما واتته الفرص ووضع يده على أقطارهم؛ شرع يضرب الإسلام بقوة ومكر، ومضى دون هوَادَة يُجْهِز على فُلوله الثقافية الخائرة بعد ما دَحَر جيوشه العسكرية في مواطن كثيرة..

وانطلقت طلائع الغزو الثقافي تطارد الدين المغلوب على أمره في ميادين التربية والتعليم والتشريع، وتطوي تقاليده الاجتماعية والأدبية والاقتصادية والسياسية، وأفلحت في تكوين أجيال تنظر إلى ماضيها كله على أنه أنقاض أو مخلفات ينبغي أن تستخفي ليحل محلها البناء الجديد الذي وضع الغرب حقيقته وصورته.[1]

[1] الغزو الثقافي يمتد في فراغنا: فضيلة الشيخ/ محمد الغزالي رحمه الله.

مؤامرة إسقاط الخلافة الإسلامية:

تعد دولة الخلافة العثمانية ظاهرة تاريخية فريدة، فقد شغلت حيزًا كبيرًا من الزمان والمكان؛ إذ عاشت أكثر من ستة قرون، وامتدت رقعتها الجغرافية إلى آسيا وأوروبا وأفريقيا، وكانت جيوشها أكثر جيوش العالم عددًا وأحسنها تدريبًا وتسليحًا وتنظيمًا، فقد عبرت جيوش هذه الدولة الفتية البحر من الأناضول إلى جنوبي شرق ووسط أوروبا، وفتحت بلاد اليونان وبلغاريا ورومانيا ويوغسلافيا والمجر ورودس وكريت وقبرص وألبانيا حتى بلغت مشارف فيينا ـ عاصمة النمسا ـ وجنوبي إيطاليا؛ فكانت أول دولة إسلامية تصل إلي هذا العمق في الأرض الأوروبية.

وكان هذا الانتشار الواسع للدولة العثمانية وتهديدها للمسيحية في عقر دارها سببًا قويًّا في عداء أوروبا المسيحية لها، وسعيها الدءوب لتقويض أركانها، وهدم بنيانها الشامخ، فقامت ضدها الأحلاف والتكتلات المسيحية في حروب كان النصر فيها حليف الدولة العثمانية في أغلب الأحيان، غير أن عوامل الضعف والتآكل بدأت تضرب في الإمبراطورية العثمانية المترامية الأطراف، **فكان سقوطها في الداخل المرحلة الأولى لسقوطها وزوال خلافتها** حيث ضعفت عسكريًّا أمام روسيا القيصرية، حتى أطلق عليها القيصر الروسي "نيقولا الأول" لقب: "رجل أوروبا المريض"، وأصبحت مطمعًا للدول الاستعمارية الكبرى: بريطانيا وفرنسا وروسيا.

ولم يدخر الغرب في معركته ضد الخلافة سلاحًا إلا استخدمه، بدءًا من الإرساليات التبشيرية والغزو الفكري، وإشعال الثورات والفتن الطائفية والمذهبية، واصطناع الجواسيس والأعوان وشراء الذمم بالمال، حتى تم تقويض الخلافة على يد "مصطفى كمال".

ويذكر المؤرخ الفرنسي "دين جروسيه" في كتابه "وجه آسيا" أن عملية تصفية الخلافة العثمانية استغرقت مائتين وعشرين عامًا، بدأت بمعاهدة "كارلوفجة" سنة

(١١١١ هـ - ١٦٩٩م)، تضافرت فيها جهود الدول الكبرى عبر السنين الطوال، إلا أن اختلاف أطماع هذه الدول وتضارب مصالحها في تركة الدولة العثمانية كان سببًا في إطالة عمرها.

ولما زاد ضعف الدولة العثمانية في أواخر عهدها، كانت الدول الأوروبية قد شرعت في دعم الحركات التي تقوم ضد العثمانيين علنًا، فبدأت الفكرة (القومية) تبرز في كل مكان تحت تأثير النصارى الذين لا دعوة لهم سواها وسط المجتمع الإسلامي، واستفاد النصارى من دعوتهم هذه فضموا إليها الأقليات التي كانت تتحرك بإشارات الدول الأجنبية، ونجحوا في الإيقاع بعدد من شباب المسلمين عن طريق إغرائهم بالجنس والمال!!

وجاء دور اليهود، وكانت وجهتهم فلسطين، وفلسطين تتبع الدولة العثمانية، وبذلوا إمكاناتهم الضخمة في سبيل تحقيق هذا الهدف، إلا أن السلطان عبد الحميد الثاني خيب آمالهم ورد إغراءاتهم؛ فوجهوا سهامهم عليه..

فادعوا أنه كان سفاكا للدماء حتى أطلقوا عليه اسم "السلطان الأحمر"، وادعوا أن الشركسيات السبايا تملأ قصره، وأن رجالات مخابراته قد ملأت كل مكان، وأن أبناءه يترنمون برنين الذهب الذي يلقونه في مياه البوسفور.. **وراجت هذه الشائعات، وعملت الدوائر الأجنبية على نشرها، ولا تزال تردد، مع العلم أن الدولة العثمانية هي التي قبلت اليهود في أراضيها عندما طردوا من الأندلس مع المسلمين!!** وانتقل قسم منهم إلى البلقان، وأظهر عدد منهم الإسلام، بينما بقوا حقيقة على دينهم، يعملون ضد الدولة في الخفاء، وأطلق على هؤلاء اليهود اسم (الدونمة) أي المرتدون، وكان لهم دور في الحركات القومية، ومع العسكريين الذين حكموا تركيا بعد السلطان "عبد الحميد".

وهذا اعتراف من زعيم الحركة اليهودية الصهيونية العالمية "تيودور هرتزل" بموقف

السلطان "عبد الحميد"، يقول: **"أُقر على ضوء حديثي مع السلطان "عبد الحميد الثاني" أنه لا يمكن الاستفادة من تركيا إلا إذا تغيرت حالتها السياسية، أو عن طريق الزج بها في حروب تُهزَم فيها، أو عن طريق الزج بها في مشكلات دولية، أو بالطريقتين معا في آن واحد."ا.هـ**

فقد اتخذ السلطان "عبد الحميد الثاني" كل التدابير اللازمة في سبيل عدم بيع الأراضي لليهود في فلسطين، وفي سبيل ذلك عمل جاهدًا على عدم إعطاء أي امتياز لليهود من شأنه أن يؤدي إلى تغلب اليهود على أرض فلسطين.

ولابد في هذه الحالة أن تتكاتف جهود المنظمات الصهيونية بغية إبعاد السلطان "عبد الحميد الثاني" من الحكم. ويعزز هذا الاتجاه "هرتزل" عندما قال: "إني أفقد الأمل في تحقيق أماني اليهود في فلسطين، وإن اليهود لن يستطيعوا دخول الأرض الموعودة، مادام السلطان عبد الحميد قائمًا في الحكم، مستمرًّا فيه".

وتحركت الصهيونية العالمية، لتدعم أعداء السلطان عبد الحميد الثاني، وهم المتمردون الأرمن، والقوميون في البلقان، وحركة حزب الاتحاد والترقي، والوقوف مع كل حركة انفصالية عن الدولة العثمانية.

وتمكنت القوى القومية من الانتصار على السلطان نتيجة الدعايات ضده، وتحركت قوة من الجيش واستولت على الحكم، واضطر السلطان للرضوخ لمطالبهم، وأظهر الرضا ريثما يجد الوقت المناسب، واستدار العام، وظهر للعسكريين أن السلطان ينتظر الفرصة المناسبة فاستبدلوه..

تولى السلطنة والخلافة بعد السلطان "عبد الحميد الثاني" أخوه "محمد رشاد"، إلا أنه في الحقيقة لا يملك أي سلطة فعلية، وإنما السلطة أصبحت بيد جمعية "الاتحاد والترقي"، وغدت الحكومة العثمانية تركية في مضمونها، قومية في عصبيتها، بينما كانت مِن قَبل عثمانية في مضمونها وإسلامية في رابطتها. فقد تأثرت هذه الجمعية

بقوة الأفكار (القومية الطورانية)[١] التي تدعو إلى تحرير كافة الأتراك. مدعين أن الشعوب الإسلامية في الأناضول وآسيا الوسطى تشكل أمة واحدة، وهي الأفكار التي تطورت أخيرا بمجهودات بعض كتاب الجمعية؛ فاتبعت سياسة (التتريك)؛ وذلك بجعل اللغة التركية هي اللغة الرسمية الوحيدة. بعد أن كانت اللغة العربية تقف إلى جانبها. **فتأججت حركة الدعوة إلى (القومية) العربية في مواجهة حركة (التتريك).**

ولما قامت الحرب العالمية الأولى (١٣٣٢-١٣٣٣هـ/١٩١٤-١٩١٨م) دخلت تركيا الحرب إلى جانب دول الوسط (ألمانيا والنمسا) في حين تمكن الإنجليز بمراسلات "الشريف حسين" حاكم بلاد الحجاز من جر العرب إلى جانب الحلفاء (بريطانيا وفرنسا وورسيا)؛ فسادت فكرة القومية العربية، ووقع الصدام بين العرب والترك.

أعلن الشريف حسين بن علي الجهاد ضد الأتراك الذين كانوا قد أعلنوا الجهاد ضد الحلفاء باسم الخليفة!! فضاع معنى الجهاد، وانقسم المسلمون بين: أي الجهادين يتبعون؟!! وهذا ما أراده الحلفاء..

وسقطت تركيا بعد هزيمتها في الحرب، واحتل الحلفاء واليونان أجزاء منها، ووقعت "الآستانة" تحت سيطرة الإنجليز، وأصبح الخليفة كالأسير في أيديهم، وأصبح المندوب السامي البريطاني والجنرال "هازنجتون" (القائد العام لقوات الحلفاء في استانبول) هما أصحاب السيادة الفعلية!!

اجتمعت إرادة الحاكمين والاستعمار على تصفية الدولة العثمانية، وإبراز طابع الجامعة الطورانية، وإبلاغ العلاقة بين الترك والعرب أشد مراحلها عنفًا وقسوة؛ مما مهد إلى زوال الدولة والتهام الغرب للأجزاء العربية، ومنح اليهود وعد بلفور الذي

---

[١] تنسب (الطورانية) إلى هضبة "طوران" الواقعة فى آسيا الوسطى، حيث كانت تعيش الأقوام التركية قبل نزوحها غربًا إلى خراسان وما وراء النهر. وقد قام (ضيا كوك آلب) الأب الروحى للقوميين الأتراك بنشر منظومته الشهيرة (طوران) سنة ١٩١١م وطرح فيها فكرة الوحدة (الطورانية). ومؤداها أن: وطن الترك ليس الدولة العثمانية أو الأناضول وإنما هو "طوران"، ثم دعى إلى الاهتمام برقي العنصر (التركى) أولا.

يعطيهم الحق في إقامة دولة فلسطين.

وكانت اللعبة العالمية للقضاء على الخلافة العثمانية نهائيًّا تستدعي اصطناع بطل تتراجع أمامه جيوش الحلفاء الجرارة، وتعلق الأمة الإسلامية اليائسة فيه أملها الكبير وحلمها المنشود، وفي أوج عظمته وانتفاخه ينقض على الرمق الباقي في جسم الأمة فينهشه ويجهز عليها..

وتمت صناعة البطل بواسطة المخابرات الإنجليزية بنجاح باهر، وظهر "مصطفى كمال" بمظهر المنقذ لشرف الدولة من الحلفاء واليونان الذين احتلوا "أزمير" بتمكين من بريطانيا سنة ١٣٣٨هـ وتوغلوا في حقد صليبي دفين في "الأناضول"، فقام "مصطفى كمال" باستثارة روح الجهاد في الأتراك ورفع القرآن ورد اليونانيين على أعقابهم، وتراجعت أمامه قوات الحلفاء دون أن يستعمل أسلحته وأخلت أمامه المواقع، وبدأ "مصطفى كمال" يطفو على السطح تدريجيًّا، وابتهج العالم الإسلامي، وأطلق عليه لقب (الغازي)، ومدحه الشعراء وأشاد به الخطباء.. فأحمد شوقي قرنه بخالد بن الوليد في أول بيت من قصيدة مشهورة:

اللهُ أكبرُ كم في الفتحِ من عجبِ يا خالدَ التركِ جدِّدْ خالدَ العربِ

!

وكان الناس إذا قارنوا كفاح "مصطفى كمال" المظفر باستسلام الخليفة "وحيد الدين محمد السادس" القابع في "الآستانة" مستكينًا لما يجري عليه من الذل، كبر في نظرهم الأول بمقدار مايهون الثاني، وزاد في سخطهم على الخليفة ما تناقلته الصحف بإهدار دم "مصطفى كمال" واعتباره عاصيًا متمردًا. ولم يكن "مصطفى كمال" في نظرهم إلا بطلاً مكافحًا يغامر بنفسه لاستعادة مجد الخلافة، الذي خُيل إليهم أن الخليفة يمرغه في التراب تحت أقدام الجيوش المحتلة..!!

لقد استطاعت المخابرات الإنجليزية أن تجد ضالتها المنشودة في شخصية

"مصطفى كمال"، وكانت تلك العلاقة بين المخابرات الإنجليزية و"مصطفى كمال" بواسطة رجل المخابرات الإنجليزي "أرمسترونج"؛ الذي تعززت علاقته معه في فلسطين وسورية، عندما كان "مصطفى كمال" قائدًا هناك في الجيش العثماني.

بدأ "مصطفى كمال" في خوض معركة مع مجلس النواب لإعلان الجمهورية وإلغاء الخلافة، وازدادت حدة المعارضة، وتأزم الموقف.. وهنا تحركت بريطانيا لإنقاذ (الغازي)، وأعطته فرصة لتجميع الناس ضد العدو الخارجي (بريطانيا)، وكذلك ثار (الأكراد) في الشرق.. ولكن الثابت أن (الغازي) استغل تلك الثورات لصالحه!

لقد صاح في الشعب: إن تركيا في خطر فالعدو الأجنبي الأصيل -إنجلترا- يظاهر الأكراد ويمدهم بالمال والسلاح.

هذه أنجح طريقة لإنقاذ العملاء عند اهتزاز الأرض تحت أقدامهم، ولذلك رأينا كيف عاد (الغازي) بهذه المسرحية القائد الأوحد..!

وقد اتخذ هذه الثورة ذريعة لتصفية المعارضة واتهمهم بالاتصال بالإنجليز، فأثار النواب ضدهم ففروا من البلاد، **وأقرت الجمعية الوطنية وقف الدستور، وتخويل الغازي سلطة كاملة لإنقاذ البلاد.. وأُلغيت حصانة النواب، وفُرضت الرقابة الصارمة على الصحف، وصار أي إجراء أو نقد شفوي للحكومة خيانة وطنية عظمى تعاقب عليها محاكم الاستقلال بالإعدام.**

وبعد أن جمع كل السلطات في يده جاءت معاهدة "لوزان" التي استمرت محادثاتها ثلاثة أشهر من نوفمبر (١٩٢٢م) إلى فبراير (١٩٢٣م)، ومعاهدة "لوزان" كانت إنقاذًا لأتاتورك من وضعه الحرج، إذ اشتدت المعارضة ضده في البلد، وفي مجلس النواب.. وقد وضع "كرزون" رئيس الوفد الإنجليزي أربعة شروط للاعتراف باستقلال تركيا، وهي:

١- قطع كل صلة لتركيا بالإسلام.

٢- إلغاء الخلافة الإسلامية إلغاءً تامًّا.

٣- إخراج الخليفة وأنصار الخلافة والإسلام من البلاد ومصادرة أموال الخليفة.

٤- اتخاذ دستور مدني بدلًا من دستور تركيا القديم.

وعندما وقف "كرزون" وزير خارجية إنجلترا في مجلس العموم البريطاني يستعرض ما جرى مع تركيا، احتج بعض النواب الإنجليز بعنف على كرزون، واستغربوا كيف اعترفت إنجلترا باستقلال تركيا، التي يمكن أن تجمع حولها الدول الإسلامية مرة أخرى وتهجم على الغرب. فأجاب كرزون: لقد قضينا على تركيا، التي لن تقوم لها قائمة بعد اليوم؛ لأننا قضينا على قوتها المتمثلة في أمرين: (الإسلام) و(الخلافة).. فصفق النواب الإنجليز كلهم وسكتت المعارضة.

وأما الذي ظهر للناس من المعاهدة أن جيوش الاحتلال الإنجليزية جلت عن العاصمة وذيولها بين سيقانها..!

وفي الثالث من مارس ١٩٢٤م دعا "مصطفى كمال" الجمعية التأسيسية إلى اجتماع، وكان على ثقة تامة من أن أحدًا في الجمعية التأسيسية - التي لم يبقَ منها سوى اسمها - لن يجرؤ على معارضته، **وطرح على الجمعية مشروع قرار بإلغاء الخلافة التي أسماها: "هذا الورم من القرون الوسطى"**، وقد أجيز القرار الذي شمل نفي الخليفة في اليوم التالي دون مناقشة، وانطفأت على يد "مصطفى كمال" شعلة الخلافة التي كان المسلمون طيلة القرون يستمدون من بقائها رمز وحدتهم واستمرار كيانهم. [١]

وبي مما رمتنا به الليالي ... جراحاتٌ لها في القلبِ عُمقُ

[١] الدولة العثمانية: د. علي الصلابي – المنارة المفقودة: د. عبد الله عزام – تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر: د. إسماعيل ياغي ومحمود شاكر – سقوط الخلافة الإسلامية.. انفراط عقد الأمة: مقال لمصطفى عاشور – واقع الأمة بعد سقوط الخلافة: مقال لهشام عبد الله.

فمعذرةُ اليراعةِ والقوافي جلالُ الرُّزءِ عن وصفٍ يَدِقُّ [٢]

تَبِعات سقوط الخلافة الإسلامية:

الخلافة كما وصفها القلقشندي: "حظيرة الإسلام، ومحيط دائرته، ومربع رعاياه، ومرتع سائمته، والتي بها يُحفظ الدين ويُحمى، وبها تُصان بيضة الإسلام، وتسكن الدهماء، وتقام الحدود فتمنع المحارم عن الانتهاك، وتُحفظ الفروج فَتُصان الأنساب عن الاختلاط، وتُحصن الثغور فلا تطرق، ويُذاد عن الحَرَمِ فلا تُقرع"..

تلكم هي المعاني التي افتُقدت بسقوط دولة الخلافة.

فبسقوط "الخلافة" سقطت مفاهيم الدولة المبنية على المبادئ والقيم الرفيعة والأخلاقيات، وحلَّت محلها المفاهيم المبنية على المصالح والأهواء والماديات.

بسقوط الخلافة لم يتبقَ للأمة الإسلامية منذ ذلك التاريخ دولة حقيقية تمثلهم، ولم يعودوا يحيون في جماعة إسلامية يقودها خليفة مبايَع شرعًا على العمل بكتاب الله وسنة رسوله.

وقد تحققت توقعات المعارضين لقرار إلغاء الخلافة؛ إذ استتبع ذلك:

خطوات متتالية في الاتجاه نحو الفصل بين الإسلام والحكم، وتحول الدولة إلى علمانية لا دينية؛ فقد عمد الأوروبيون إلى قطع الصلة التي تربط المسلمين بشريعة ربهم، وكان ذلك في قمة أولوياتهم، تمثل ذلك في الإلغاء السريع والفوري لفرمان السلطان العثماني، الذي ألزم فيه جميع المحاكم الشرعية في كل دول السلطنة بالتحاكم إلى الشريعة الإسلامية والإفتاء وإصدار أحكام القضاء بمذهب الإمام أبي حنيفة.

[٢] من قصيدة "سَلامٌ مِن صَبا بَرَدى أَرَقُّ" لأمير الشعراء/ أحمد شوقي.

وأقام الأوروبيون نظامًا جديدًا قوامه القانون الوضعي الغربي في مختلف مسائل الأسرة والتجارة والمعاملات، وكان نتيجة ذلك إباحة الربا والزنا والخمر في المجتمع الإسلامي، عن طريق قانون العقوبات الوضعي، الذي أباح هتك الأعراض وأخرج المجتمع الإسلامي جزئيًّا من ضوابطه ومبادئه وأخلاقه وقيمه، وفي دائرة المعاملات فرضت القوانين التي تبيح التعامل بالربا، وجعلته أساس التعامل في البيع والشراء والإجارة.

وبعد أن تمكن الأوروبيون من تركيا عن طريق "أتاتورك"، وباستخدام المعاهدات المعروفة والمشهورة تاريخيًّا، التي اشترطت على تركيا قطع صلتها بالإسلام، ووضع دستور مدني علماني للبلاد، ذهبوا لباقي الدول العربية والإسلامية لجعلها نسخة طبق الأصل من تركيا قضاءً وتشريعًا.

وكأن إلغاء الخلافة كان إشارة البدء لتحولات عميقة الجذور في كيان الأمة الإسلامية كلها؛ إذ انتقلت العدوى رويدًا رويدًا من تركيا إلى سائر البلاد، واقتفت أثرها في معظم هذه القرارات، إن لم تكن بقرارات رسمية؛ فقد تمت عن طريق التقليد والمحاكاة..

فقد أصبح "مصطفى كمال" زعيمًا روحيًّا لكثير من الحكام الذين باعوا آخرتهم بدنياهم الزائلة.

وبعد انتصار أوروبا في معركة تصفية الخلافة، تمكن الأوربيون من السيطرة المباشرة على الدول الإسلامية عن طريق الاحتلال العسكري الطويل، الذي أنهك واستنزف موارد هذه الدول، وتمثل الانتصار في هذه المعركة الخبيثة في السيطرة شبه الكاملة على جميع مناحي الحياة، من تشريع وسياسة، واقتصاد وإعلام وثقافة..

فظهر جيل من القادة في بلاد المسلمين يعتنقون (العلمانية)، ويؤمنون بالمادية، ويقدسون العروبة والقومية، والفرعونية والآشورية والفينيقية.. ويكفرون بالحل الإسلامي، الذي يصفونه بالرجعية..!

والمحصلة النهائية: تصدع داخلي، وتفشي الجهل والضعف والسطحية، والخرافات والانحرافات العقدية في أوساط الشعوب الإسلامية والعربية؛ التي لازالت إلى اليوم ـ بعد تسعين عامًا أو يزيد من نكبة سقوط الخلافة ـ تبحث عن ذاتها ولغتها وهُويتها، وقيمها وحضارتها وثقافتها، على أمل تغيير واقعها وبناء مستقبلها؛ ولكن دون فائدة تذكر، ودون نتيجة ملموسة على الأرض؛ فقد انفرط العقد الذي كان يربط هذه الدول ببعضها، والذي كان يربطهم بالقوة المكملة لهم وهي قوة الأتراك، تحت راية واحدة وهي راية الخلافة العثمانية.

وأمعن الغرب الأوروبي في تفتيت العالم الإسلامي وتجزئته، عن طريق إشعال الفتن والثورات الطائفية وتغذية النعرات المذهبية، يقول "برنارد لويس" في كتابه "الشرق الأوسط والغرب": إن التغريب في المنطقة العربية أدى إلى تفكيكها وتجزئتها، وإن هذا التفكيك السياسي واكبه تفكيك اجتماعي وثقافي، والواقع أن إلحاق المنطقة بالغرب لم يكن ممكنًا إلا من طريق تفكيكها وتجزئتها، عن طريق إثارة الفتن الطائفية، وافتعال أسباب الخصومات والعنف. ا.هـ

وكان هذا التفكيك والتفتيت والتجزئة في العالم الإسلامي، في مقابل نزعة للوحدة والاندماج عند دول أوروبا، وحدة قائمة على التنسيق والتعاون، مبنية على نهضة علمية غير مسبوقة، مصحوبة بتطورات تكنولوجية هائلة، خاصة في المجال العسكري، ثم احتكار غير قابل للكسر في المجال النووي وعلوم الفضاء، يظلل

ذلك كله إرادة ورغبة حميمة وعزم وإصرار على المضي قدمًا في اقتسام التركة وإذلال الورثة! [١]

وانهارت بذلك الأمة الإسلامية، وفقد المسلمون ما كان لهم من هيبة في نفوس أعدائهم الطامعين بهم وبخيراتهم وبلادهم.

ولكنَّ الصليبيين ومَن وراءهم قد وَعَوْا الدرس جيدًا؛ وهو ما صرح به المستشرق البريطاني "جِب": من أن صحوة الإسلام تتم بسرعة.

وهذا ما يؤكد عليه المستشرق الأمريكي "ونثروب" في مقدمة كتابه "السيف المقدس The Sacred Sword " -بعد أن لخص تاريخ المسلمين بأنهم غزوا أوروبا واستولوا على أجزاء منها وصنعوا كذا وكذا ..-: **"ولكنهم أصبحوا اليوم بلا قوة، وأصبحوا خاضعين لأوروبا. ولكن.. ما حدث مرة يمكن أن يحدث مرة أخرى! وإن الشعلة التي أشعلها محمد في قلوب أتباعه لهي شعلة غير قابلة للانطفاء".ا.هـ**

ومن ثَم خشي أعداء الإسلام هذه الصحوة! فاتخذوا من الوسائل ما يضمن بقاء الجسد الممزق هامدًا مُثخنًا بالجراح، وكان لهم في ذلك أكثر من سبيل..[١]

[١] الدولة العثمانية للصلابي – المنارة المفقودة لعزام – تاريخ العالم الإسلامي لياغي – سقوط الخلافة الإسلامية.. انفراط عقد الأمة: مقال لمصطفى عاشور – واقع الأمة بعد سقوط الخلافة: مقال لهشام عبد الله.

[١] أساليب الغزو الفكري: د. علي جريشة – أجنحة المكر الثلاثة: عبد الرحمن حَبَنَّكة – دراسات قرآنية: محمد قطب.

الوسائل التي لجأ إليها أعداء الأمة ليقيموا جدرانًا سميكة بين المسلمين ودينهم

(١) إنشاء ديكتاتوريات سياسية وفرض العلمانية

التغريب: هو حركة موجهة لصبغ الثقافة الإسلامية بصبغة غريبة، وإخراجها عن طابعها الإسلامي الخالص، واحتوائها على النحو الذي يجعلها تفقد ذاتيتها وكيانها، **وتذوب فيما يسمى بـ "الثقافة العالمية" أو الفكر الأممي.**

ولا ريب أن هذا المخطط من أقسى ما يواجهه الفكر الإسلامي في العصور المختلفة لأنه وليد الاستعمار وربيب الاستشراق وابن التبشير، وهو فوق ذلك مؤامرة الصهيونية مع الصليبية ضد الإسلام والمسلمين.

والتغريب حركة كاملة البناء، له نظمه ووسائله وأهدافه، وقادته ودعاته.. وهو يعتمد على وسائل الإعلام من: راديو، وتليفزيون، وصحافة، كما يعتمد على دور الثقافة والمدارس..

وقد استعملت حركة التغريب أساليب شتى لتحقيق أغراضها المنكرة، وكان أهمها أسلوبين: الحركة العلمانية. والحركة القومية.

العلمانية: تنسب "العلمانية" على غير قياس إلى العالم أو العالمية "Secularism". ولعل المعنى الصحيح لترجمة كلمة "العلمانية" هي "اللادينية" أو "الدنيوية". وليس المعنى ما يقابل الأخروية فحسب، بل بمعنى ما لا صلة له بالدين. يتضح ذلك مما تورده دوائر المعارف الأجنبية للكلمة.

تقول دائرة المعارف البريطانية: "هي حركة اجتماعية تهدف إلى صرف الناس عن الاهتمام بالآخرة إلى الاهتمام بالحياة الدنيا وحدها".

وتقول دائرة المعارف الأمريكية: "الدنيوية هي: نظام أخلاقي أسس على مبادئ الأخلاق الطبيعية ومستقل عن الديانات السماوية أو القوى الخارقة للطبيعة..".

وهي نظام من المبادئ والتطبيقات يرفض كل صورة من صور الإيمان الديني والعبادة الدينية، وقيام الدولة على دعائم الدين، كما يرفض كل نظام أو قيمة تنسب إلى الدين من قريب أو من بعيد.. وهي **دعوة صارخة لفصل الدين عن الدولة (وأن يكون ما لله لله، وما لقيصر لقيصر).. هذه صيحتها التي قصدت من ورائها عزل الدين عن مناهج الحياة وعن السياسة والحكم والقضاء.**

والعلماني "Secular" هو كل ما يتعلق بشئون الدنيا وأنظمتها بعيدًا كل البعد عن التعاليم الدينية.

وقد ظهرت العلمانية في ظل حكم "كمال أتاتورك" في تركيا بشكل صارم وعنيف، وكشفت عداءها الشديد للإسلام.

ثمّ ظهرت في كثير من بلدان العالم الإسلامي باسم فصل الدين عن السياسة، وأنه لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين. [1]

---

[1] **أضواء على الثقافة الإسلامية: د. نادية شريف العمري – العلمانية وموقف الإسلام منها: حمود بن أحمد بن فرج الرحيلي.– كواشف زيوف: عبد الرحمن حَبَنَّكة.**

يقول "أبو حامد الغزالي": [إن الإسلام كل لا يتجزأ، وليست مظاهر الانحراف عن هذا الدين في معظم المجالات إلا نتيجة ضياع (السلطان) الذي جاء فيه عن عثمان بن عفان رضي عنه قوله: "ما يزعُ[٢] الناسَ السلطانُ أكثرُ مما يزعهم القرآن"]ا.هـ

ونظرًا لما يمنحه الإسلام للسلطان من صلاحيات يحرس بها الدين، ويذود عن حماه، ويسوس الدنيا بالدين، فيؤتمن على مصاير البلاد، ومصالح العباد..

وقد فطن أعداء الإسلام أيضًا لهذا المصدر العظيم من مصادر قوة الأمة، فحرصوا على نقض هذه العروة الوثقى من عرى الإسلام، وقد تم لهم ما أرادوا حين أفلحوا في الإجهاز على آخر شكل صوري للخلافة العثمانية..

فكان سقوط الخلافة أول دركة انحطت بعدها الأمة إلى ما يليها من دركات سَلْخها من خصائصها المتميزة التي طالما احتفظ بها المسلمون رغم تقلبات القرون والمحن، تلك الخصائص التي أورثتهم عبر الأجيال عزة ومنعة أذلوا بها رؤوس الجبابرة، وكسروا ظهور الأكاسرة، وقصموا رقاب القياصرة..

واعلموا عباد الله أن:

الشريعةَ أصل، والمُلْكَ حارس.. وما لا أصل له فمهدوم..

وما لا حارس له فضائع.[٢]

كيف تضرب الإسلام، وتطفئ جذوته، وتميت صحوته:

إن الحكم الفردي المستبد هو وحده الذي يقهر الإسلام ويذل أمته، وقد عرفت أمريكا وروسيا ذلك فقررتا إحداث انقلابات عسكرية في أرجاء العالم الإسلامى المترامي الأطراف.

---

[٢] الوَزْعُ: كَفُّ النفْسِ عن هَواها. وزَعَه وبه يَزَعُ ويَزِعُ وزْعًا: كفَّه فانْزَعَ هو أي كَفَّ. وبمعنى زَجَرَهُ ونَهَاهُ.

[٢] عودة الحجاب: محمد إسماعيل المقدم.

وعن هذا الطريق لا غير يمكن لَيّ عنان الجماهير، وتجريعها الصاب والعلقم.

يقول المستشرق الأمريكي "و. ك. سميث" والخبير بشؤون الباكستان: "**إذا أعطي المسلمون الحرية في العالم الإسلامي، وعاشوا في ظل أنظمة ديمقراطية، فإن الإسلام ينتصر في هذه البلاد، وبالديكتاتوريات وحدها يمكن الحيلولة بين الشعوب الإسلامية ودينها**".ا.هـ

وينصح رئيس تحرير مجلة "تايم" في كتابه "سفر آسيا" الحكومة الأمريكية أن **تنشئ في البلاد الإسلامية (ديكتاتوريات) عسكرية للحيلولة دون عودة الإسلام إلى السيطرة على الأمة الإسلامية، وبالتالي الانتصار على الغرب وحضارته واستعماره.**

ويقول الرئيس الأمريكي السابق "كارتر": "والتهديد الوحيد الآن في أعقاب التراجع السوفيتي في الشرق الأوسط على المصالح الأمريكية هو الإسلام المتطرف، ولا يقتصر التهديد الإسلامي على المصالح الأمريكية فقط، بل يتجاوزها إلى تهديد الأنظمة العربية أيضًا، **والولايات المتحدة لن تسمح بنشر ثورة إسلامية جديدة في أي دولة عربية من الدول ذات الأهمية الكبيرة.**"ا.هـ

ومن هنا ندرك أن الحاكم الذي فرضه علينا أعداؤنا في العالم العربي والإسلامي، له مهمة محددة تتلخص في: كيف تضرب الإسلام، وتطفئ جذوته، وتميت صحوته.. ولنبدأ بجِذر النكبة..

مؤسس مصر الحديثة "محمد علي" باشا(١٨٠٥م-١٨٤٨م):

فشلت الحملة الفرنسية على مصر بقيادة "نابليون" بداية القرن التاسع عشر، وخَلَفَه الأوروبي المولد والمنشأ (محمد علي باشا)، مؤسس مصر الحديثة التي جرّت على الأمة بأسرها ويلات كثيرة، ليس يغفرها له أحد من المسلمين المستضعفين الذين تعرضوا للذل والهوان والقهر عقب زوال الدولة العثمانية، تلك المأساة الفاجعة التي حمل الباشا على عاتقه

تحصيلها إرضاءً لأصدقائه وجلسائه الأوروبيين وعُماله من أصحاب الديانتين النصرانية واليهودية.

هناك جوانب كثيرة يكتنفها الغموض في صعود "محمد علي" إلى هرم السلطة، خاصة وأنه لم يكن يصلح للولاية، وليس من الوزراء ولا من الأمراء، ولا من أكابر الدولة، هذا بالإضافة إلى افتعال الثورات بسبب رواتب الجند، ثم تمكنه من تسديدها. لكن صلة "محمد علي" بالشيخ "حسن العطار" الذي انضم إلى المحفل (الماسوني) الذي أسسه الفرنسيون تفسر لنا شيئًا من هذا الغموض.

يذكر الأستاذ/ "محمد قطب" أن "فرنسا" قد احتضنت محمد علي احتضانًا كاملاً لينفذ لها كل مخططاتها؛ حيث أنشات له جيشًا مدربًا على أحدث الأساليب ومجهزًا بأحدث الأسلحة المتاحة يومئذ، وكان ذلك بإشراف "سليمان"[١] الفرنساوي، وأنشات له أسطولاً بحريًا حديثًا وترسانة بحرية في "دمياط"، وأنشأت له القناطر الخيرية لتنظيم عملية الري في مصر.. وكل ذلك ليس حبًّا في شخص "محمد علي" أو حبًّا في مصر، وإنما كان ذلك لتنفيذ المخطط الصليبي الذي عجزت الحملة الفرنسية عن تنفيذه بعد أن اضطرت للرحيل، وكان ذلك المخطط الخبيث يرمي إلى عدة أمور منها: **القضاء على الدولة العثمانية، والقيام بتغريب العالم الإسلامي عن طريق تغريب مصر – بلد الأزهر.**

وتتلخص الجرائم العظيمة التي تولى كبرها "محمد علي" في:

١) تأسيس حكومة مدنية في مصر (أي علمانية) كانت مقدمة لاحتلال الأجانب لها.

---

[١] سليمان باشا الفرنساوي أو الكولونيل سيف، اسمه بالميلاد "جوزيف انتيلمي سيف" Joseph Anthelme Sève . ولد عام ١٧٨٨م في مدينة ليون بفرنسا، وجاء إلى مصر مع الحملة الفرنسية، وبقي بها واعتنق الإسلام، وسمى نفسه "سليمان". ويُعد (سليمان الفرنساوي) أول قائد للجيش المصري الحديث.

٢) قتاله للدولة العثمانية بما أظهر به للعالم كله ولدول أوربا خاصة ضعفها وعجزها وجرّأهم على التدخل في سياستها.

٣) مقاتلة (الوهابية) والقضاء على ما نهضوا به من الإصلاح الديني في جزيرة العرب مهد الإسلام ومعقله.

أي أنه سعى في نسخ الأحكام الشرعية وإعلان (العلمانية) في مصر، وهو أول من تجرأ في العالم الإسلامي على استبدال القوانين الأوربية بالشريعة الإسلامية، وشارك في قتال خليفة المسلمين مما يُعد (حَرابة)، وقضى على دولة السعوديين العربية المسلمة المُصلحة السلفية، ثم جاء من بعده (توفيق)، وهو الذي تآمر على (ثورة عرابي)، واستدعى الانجليز لاحتلال مصر واحتمى بجيشهم..

أما تغريب العالم الإسلامي فقد عمل "محمد علي" على تحقيقه بفرض سياستين تغريبيتين؛ كانت الأولى تقضي بابتعاث الطلاب الشبان وإرسالهم إلى أوربا ليتعلموا هناك. وكان هذا أخطر ما فعله في الحقيقة.. لأنه من هناك بدأ (الخط العلماني) يدخل ساحة التعليم، ومن ورائه ساحة الحياة في مصر الإسلامية.

أما السياسة التغريبية الثانية التي سار عليها "محمد علي" فهي إنشاء نظام تعليمي جديد على نسق الأنظمة التعليمية في الغرب.

وقد أصر على السير بالأمة في المضمار التغريبي المؤدي إلى الحياة الغربية وأساليبها وثقافتها، فقرر إنشاء نظام تعليمي كامل من المرحلة الابتدائية إلى المراحل العليا، وفتح المدارس على نمط المدارس الغربية.

ولجأ "محمد علي" إلى طريق (الترجمة)، حيث تُرجمت كثير من الكتب في مختلف العلوم والقوانين العسكرية والبحرية، **وقام باستقدام المعلمين الأجانب إلى المدارس الجديدة التى أنشأها.**

على أن هناك هدفًا خطيرًا كان يرمي إليه "محمد علي" باشا من وراء إنشاء هذا النظام التعليمي الجديد ألا وهو **إلغاء دور الأزهر في المجتمع**، ومِن ثَمَّ القضاء عليه بصورة غير مباشرة، وذلك حين يقوم بفتح العديد من المدارس ذات المميزات العالية التي تؤهل الدارسين فيها لتبوؤ المناصب الهامة، والأعمال الرفيعة في دولة الباشا.

وكان جل القائمين على التعليم في عهد "محمد علي" من الغربيين النصارى، فمجلس شورى المدارس، وهو الهيئة العليا للتخطيط والتنفيذ؛ كان جميع أعضائه من الأجانب ما عدا ثلاثة.

وفي هذه الظروف وَجدت أطرافٌ أجنبيةٌ منفذًا خطيرًا لها في مصر، وكان من أبرزها:

ظاهرة فتح الباب لغير المسلمين في إدارة البلاد، وإدارة التعليم الجديد، وإدارة الجيش والنشاط التجاري، وحرية الحركة والنشاط، واستغلال ضعف المسلمين وفقرهم لتحقيق مصالحهم، وافتتاح المدارس الصناعية، وانتشار واسع للتعليم الأجنبي الموجه أساسًا لأبناء الطوائف الأخرى، كما أن تلك الدولة عرفت المطبعة والترجمة والصحافة، كما أن هناك بعثات رسمية؛ فهناك رحلات خاصة قام بها البعض إلى الغرب خارج دائرة الابتعاث العلمي، **وعرفت تلك المرحلة نفوذًا غربيًا عبر بعض تياراته الخطيرة الجديدة، وكان أشهرها حضورًا (الماسونية) و(السيمونية).**[1]

ومن خلال هذه الشبكة المعقدة تم استقبال الوافد الغربي بما فيه العلوم الجديدة والصناعات وأمور المدنية، ومن الطبيعي لوضعٍ معقد كهذا أن يُفسِد مسيرة حضور

---

[1] (الماسونية) هي منظمة يهودية سرية إرهابية غامضة؛ تهدف إلى ضمان سيطرة اليهود على العالم، وتدعو إلى الإباحية والفساد. و(السيمونية) هم أتباع "سان سيمون" المفكر الفرنسي الاشتراكي، وهو شخص عاش أزمة المجتمع الفرنسي بعد أن ضُربت الكنيسة، والأزمة العنيفة التي عصفت بكل من كان يدين بدينها، فدعا إلى وضع العلم مكان الدين.

العلوم العصرية في بلاد المسلمين؛ ولاسيَّما في مثل هذه التجربة التي استبعدت إلى حد كبير أي تدخل من قبل أشهر مؤسسة علمية آنذاك وهي الجامع الأزهر.

وخلاصة الأمر يذكرها المؤرخ الإنجليزي "أرنولد توينبي" قائلا: كان "محمد علي" ديكتاتورًا أمكنه تحويل الآراء النابليونية إلى حقائق فعالة في مصر.[٢]

الخائن الذي حول الإمبراطورية الإسلامية إلى قُطر:

ألغى "مصطفى كمال أتاتورك" الخلافة الإسلامية، وأعلن الخطة العلمانية، وجنى الأعداء الغزاة ثمرة دسيستهم، واستطاعوا بذلك أن يفصلوا مسلمي الترك عن مسلمي العرب حقبة من الزمن، سار فيها كل من العرب والترك ضمن خطوط السير التي رسمها لهم من قبل شياطين الدسائس والمؤامرات على الإسلام والمسلمين.

وها هم سادته يمدحونه بعدما أتم تنفيذ المهمة اللعينة، وكلماتهم تقطر سُمًّا ينبئك عما تحمله ضلوعهم من أحقاد لا ينطفئ أُوراها:

يقول المؤرخ "آرمسترونج": "انطلق كمال أتاتورك يكمل عمل التحطيم الشامل الذي شرع فيه، وقد قرر أنه يجب عليه أن يفصل تركيا عن ماضيها المتعفن الفاسد، يجب عليه أن يزيل جميع الأنقاض التي تحيط بها، هو حطم فعلاً النسيج السياسي القديم، ونقل السلطنة إلى ديمقراطية، وحول الامبراطورية إلى قُطر فحسب، وجعل الدولة الدينية جمهورية عادية، إنه طرد السلطان وقطع جميع الصلات عن الامبراطورية العثمانية، **وقد بدأ الآن في تغيير عقلية الشعب بكاملها وتصوراته القديمة وعاداته ولباسه وأخلاقه وتقاليده وأساليب الحديث ومناهج الحياة المنزلية التي تربطه بالماضي"**.ا.هـ

---

[٢] النظريات العلمية الحديثة مسيرتها الفكرية وأسلوب الفكر التغريبي العربي في التعامل معها: حسن بن محمد حسن الأسمري – فرعون باشا.. نموذج للحاكم المستنير: مقال بقلم: ياسر قارئ/ مجلة البيان (١٠٢/ ٨٨) – أعلام وأقزام: د. سيد العفاني.

وهذا "توينبي" **يعتبره أعظم من هتلر عبقرية في فن الهدم وقطع الصلة بالماضي!** يقول: "إن الدولة القومية التركية التي أقامها "مصطفى كمال" على النسق الغربي تبدو ـ وقت كتابة هذه السطور ـ عملاً ناجحًا لم يتحقق مثله حتي ذلك الوقت في أي بلد إسلامي آخر".

ويقول "ولفرد كانتول سمث": " .. رأينا تركيا في سبيل رفعة شأنها وخلق مثل عليا جديدة **لم تتردد في سحق السلطات الدينية، وألغت تعاليمها، وحررت الإسلام، وكشفت النقاب عن الدين الحق القويم."(!!)**

وقد نصب "مصطفى كمال" نفسه إلهًا من دون الله يشرع للأمة كما يشاء، فلفق قانونًا فريدًا يتكون أكثره من القانون السويسري والقانون الإيطالي وغيرهما، وأكمل الباقي من عنده، ومع ذلك فهو يدعي أنه كله من عنده قائلاً: **"نحن لا نريد شرعًا فيه قال وقالوا؛ ولكن شرعًا فيه قلنا ونقول".**

وفي افتتاح البرلمان التركي عام ١٩٢٣م قال "أتاتورك": **"نحن الآن في القرن العشرين لا نستطيع أن نسير وراء كتاب تشريع يبحث عن التين والزيتون".**

ووقف في جلسة مجلس النواب قائلا: **"إن التشريع والقضاء في أمة عصرية يجب أن يكونا عصريين مطابقين لأحوال الزمان لا للمبادئ والتقاليد".**

ونتيجة التطرف والغلو المفرط والأعمال التي لا مبرر لها إلا تنفيس الحقد الأوربي على الإسلام ومركب النقص الذي كان يستشعره الكماليون؛ **اتخذت تركيا تدبيرات وإجراءات غريبة حقًّا:**

فقد ألغت بالعنف والإرهاب الكتابة التركية بالأحرف العربية، ثم تجرأت فحرمت الأذان بالعربية، وكتبت المصحف أو ترجمته بلغتها الهجين، وحددت عدد المساجد وأقفلت كثيرًا منها أو حولته إلى ما لا يتفق وقداسته كما فعلت بجامع "أيا صوفيا"، وألغت وزارة الأوقاف. وفرضت بقوة السلاح المسخ الفكري وحتى المظهري على الأمة

لا سيما معركة القبعة الأوروبية التي سالت لأجلها الدماء، وألغت الأعياد الإسلامية، وحطمت بصورة استبدادية مظاهر الحشمة والحياء الإسلاميين، فأكرهت النساء على تقليد المرأة الغربية في كل شيء، وحاربت بشدة صارمة كل من اعترض طريقها من المتورعين وحتى المعتدلين شيئًا ما من الكماليين.

ولذلك فإن حكومة تركيا العلمانية الكمالية ـ كما وصفها الأمير "شكيب أرسلان" ـ ليست حكومة دينية من طراز فرنسا وإنجلترا فحسب، بل هي دولة مضادة للدين كالحكومة البلشفية في روسيا سواء بسواء، إذ أنه حتى الدول اللادينية في الغرب بثوراتها المعروفة لم تتدخل في حروف الأناجيل وزي رجال الدين وطقوسهم الخاصة وتلغي الكنائس.

والحقيقة المرة أن "مصطفى كمال" قد خلق نموذجًا صارخًا للحكام في العالم الإسلامي، وكان لأسلوبه الاستبدادي الفذ أثره في سياسات مَن جاء بعده منهم، كما أنه أعطى الاستعمار الغربي مبررًا كافيًا للقضاء على الإسلام، فإن "فرنسا" مثلاً بررت تنصير بلاد المغرب العربي وفرنجتها بأنه لا يجب عليها أن تحافظ على الإسلام أكثر من الأتراك المسلمين أنفسهم!!

وعُدَّ ذلك كله نجاحًا، شجع الغرب بعد ذلك على مزيدٍ من الانقلابات العسكرية في المنطقة الإسلامية، بهدف إبقاء السيطرة أو القوة تابعةً له؛ لتنفذ البرنامج، أو المخطط الموضوع لإبعاد المسلمين عن دينهم، وتحقق التغيير الاجتماعي، أو ما يطلق عليه (التغريب).[1]

زعماء ثورة يوليو ١٩٥٢م وتنحية الإسلام عن المجتمع:

[1] أجنحة المكر الثلاثة: عبد الرحمن حَبَنَّكة – أعلام وأقزام في ميزان الإسلام: د. سيد العفاني– أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي: د. علي جريشة.

فيما بعدُ استُخدمت الكثير من الأنظمة في العالم الإسلامي، لضرب عوامل القوة في الأمة من الداخل، وقد كان أغلب ذلك لا يحتاج إلى كثير خداع أو قناع، بل كان هؤلاء يقودون المعركة ضد الإسلام ذاته تحت مسمَّيات مختلفة: التصدي للرجعية، مواجهة التطرف، مكافحة الأصولية .. ، وأخيرًا الحرب ضد الإرهاب!!

وكان المثال الأوضح في القرن الماضي استعمال زعماء الثورة المصرية عام ١٩٥٢م في محاربة محاولات النهضة الإسلامية، لا في مصر وحدها، بل في البلدان حولها، حتى عُدّت تلك التجربة أنموذجًا مفضلاً ومرشحًا للتصدير إلى كل بلد يحاول الإسلاميون فيه النهوض بالدعوة الإسلامية، ولكن اللافت أن معظم الزعماء الذين استُعمِلوا في ضرب الإسلام في مصر أو غيرها، تخلى عنهم أولياؤهم، ولم يسمحوا لهم حتى بأن يموتوا أبطالاً في نظر شعوبهم؛ بل منهم من مات مهزومًا على يد أعدائه، ومنهم مَن اغتيل مُهْدَرَ الدم على يد شعبه، ومنهم من مات كمدًا بسبب تآمر أصدقائه الذين ظهر له أنهم ألدُّ أعدائه!

وفي العقود والسنوات الأخيرة تكررت تجارب أكبر وأخطر، انتقلت من المستويات المحلية والإقليمية إلى المستويات المؤثرة على المعادلات الدولية. [١]

يقول رجل المخابرات الأمريكي "مايلز كوبلاند": **"إن عبد الناصر لو لم يكن قد ولد؛ فإن لعبتنا كان عليها أن تخلقه"**. أي تربي حاكمًا دكتاتوريًّا مثله.

ولقد مهد "عبد الناصر" لانحسار الإسلام عن المنطقة كلها بانتشار (القومية)، ونجاح (البعث)، وتغلغل (الشيوعية).

كتب اليهودي الأمريكي "مورو برجر" Morroe Berger في كتابه "العالم العربي اليوم": [وكانت أشد صورة لتجدد هذا الصراع (بين الاتجاه الديني والاتجاه العلماني Secular) هي التي حدثت في مصر بعد عام ١٩٥٤م.. ذلك أن الإخوان

[١] حتى لا نظل عصا في يد (العم) سام: د. عبد العزيز كامل/ مجلة البيان (٢٣٤/ ١٣)

المسلمين المتطرفين لما رأوا أن الحركة العلمانية تزداد قوة انقلبوا على زملائهم السابقين في السلاح الذين استولوا على السلطة عام ١٩٥٢م. **ولقد قام النظام الحاكم في مصر (بقمع) الإخوان المسلمين بلا رحمة، و(قمع) دعوتهم إلى الوحدة الإسلامية التي يقفون بها ضد الدعوة القومية اللادينية.**]ا.هـ

ثم قال في الصفحة التالية: [إن الصراع بين الاتجاه الديني والقومي اللاديني هو صراع حتمي، ولكن يمكن تأجيله بعض الوقت. ولكن **الغلبة في ذلك الصراع ستكون للاتجاه القومي اللاديني.**]ا.هـ

ثم كتب كلاما طويلا عن التغيير الاجتماعى في روسيا وتركيا ومصر؛ خلص منه في النهاية بأن **"جمال عبد الناصر" قد أحدث اتجاهًا إلى (العلمانية) في مصر عن طريق تغيير مناهج التعليم وتشجيع الصناعة وتعليم المرأة وتغيير علاقات الأسرة.. قد يكون بطيئا ولكن لا رجعة فيه !**

كان "عبد الناصر" في كل نزاع بين الإسلام وطرف آخر ينضم إلى الطرف الآخر:

. انضم إلى الهند في خصومتها المرة ضد باكستان المسلمة.

. انضم إلى الحبشة في عدوانها الصارخ على أريتريا.

. انضم إلى تنجانيقا وأغضى عن المذبحة الشنعاء التى أوقعتها بشعب زنجبار المسلم، ورحب آخر ترحيب بـ"نيريري"[١] الذى يتظاهر بالاشتراكية وهو قسيس كاثوليكى!!

---

[١] تتكون "تنزانيا" من اتحاد دولة "تنجانيقا" التي استقلت عن الاستعمار البريطاني سنة ١٩٦١م، ودولة "زنجبار" التي استقلت عن الاستعمار البريطاني أيضًا سنة ١٩٦٣م. وكانت "زنجبار" سلطنة عربية اسلامية منذ القرن السابع عشر الميلادي، حيث انتشرت العروبة والإسلام في هذه البلاد وما حولها على يد عرب "عُمان" الذين كان لهم الفضل الأكبر في محاربة وطرد البرتغاليين من الساحل الشرقي لأفريقيا. ظلت "زنجبار" سلطنة عربية إسلامية حتى عام ١٩٦٤م؛ إذ حدث فيها انقلاب عسكري عنصري بتدبير من "نيريري" حاكم "تنجانيقا" آنذاك، وأدى إلى قتل وذبح ستة عشر ألف عربي مسلم وأربعة وخمسين ألفًا من المسلمين الآخرين. ثم بعد أن استقر الحكم في أيدي الانقلابيين صارت "زنجبار" و"تنجانيقا" دولة اتحادية تحت مسمى جمهورية "تنزانيا" برئاسة "جوليوس نيريري". وعلى إثر ذلك بدأت حكومة "نيريري" في شن حملة واسعة وضارية ضد اللغة العربية والثقافة العربية الإسلامية علمًا بأن العرب والمسلمين في "زنجبار" يمثلون تسعين بالمائة من مجموع السكان، بينما يصل عدد المسلمين في

. انضم إلى القبارصة اليونان في نزاعهم مع القبارصة المسلمين، وجعل الأزهر يستقبل مكاريوس عدو الكيان الإسلامى للأتراك.

. كان أسدًا هصورًا في قتال اليمن، وحملاً وديعاً في قتال اليهود، حتى جعل اليهود . وهم أحقر مقاتلين في العالم . يزعمون أنهم لا يقهرون في حرب!!

سريعٌ إلى ابنِ العمِّ يَلطِمُ خَدَّهُ * * * وليسَ إلى داعي الندَى بسريعِ..!

. ولقد ساند "البعث العربي" الحاقد على الإسلام، ورفض مساندة أى تجمع إسلامي، واخترع حكاية القومية العربية لتكون بديلاً عن العقيدة الإسلامية..!!

ثم جاء "السادات" من بعده، وهو صاحب المقولة الشهيرة: "لا سياسة في الدين، ولا دين في السياسة".

وذكر مثله الأعلى (مفاخرًا) في كتابه "يا بنيّ هذا عمُّك جمال": وإذا سألت يا ولدي عن مَثَلي الأعلى في هذه الحياة، فسأقول لك: إنه "مصطفى كمال أتاتورك"..!

وسار "حسني مبارك" على خطاهما، وأكمل المسيرة في نفس الاتجاه المعادي للإسلام، وأفرط في السياسة القمعية للإسلاميين، وتجاوز في (خنق) المقاومة الفلسطينة؛ حتى عده اليهود "كنزًا استراتيجيًّا"..

قال وزير التجارة والصناعة الصهيوني "بنيامين بن أليعيزر"[١] خلال حديثه لإذاعة جيش الاحتلال في أعقاب الزيارة التي قام بها إلى مصر برفقة رئيس الوزراء "بنيامين

"تنجانيقا" إلى ستين بالمائة من مجموع السكان، بل إن العاصمة "دار السلام" بناها المسلمون، وتعد مدينة إسلامية حيث أن تسعين بالمائة من سكانها من المسلمين. [الموسوعة الحرة].

[١] "بن اليعيزر" كان قائدًا لوحدة "اشكيد" في جيش إسرائيل التي ثبت أنها قتلت مائتين وخمسين جنديا مصريا من وحدة كوماندوز مصرية في مدينة العريش في شهر يونيو عام ١٩٦٧م. وقد كشف التليفزيون الإسرائيلي عن دوره في فيلم وثائقي تم بثه في شهر مارس عام ٢٠٠٧م، تضمن اعترافات أدلى بها ضابط سابق في الوحدة تحدث فيها عن دور "بن أليعازر" في العملية. أحدث الفيلم ضجة في حينها أصابت علاقات البلدين بالتوتر، وأدت إلى إلغاء زيارة للقاهرة كان مقررًا أن يقوم بها الرجل

نتنياهو" ولقائه بالرئيس المصري: "إن اللقاء الذي استمر ساعة ونصف الساعة سادته أجواء رائعة للغاية. الأمر الذي يؤكد أن **"حسني مبارك" بمثابة كنز استراتيجي بالنسبة لإسرائيل**، وهو سيبذل كل ما بوسعه من أجل دفع عملية التسوية في الشرق الأوسط." ا.هـ

ثم جاء الابتلاء الأعظم والنكبة الكبرى بالانقلاب العسكري الدموي بقيادة سليل اليهود "عبد الفتاح السيسي" الذي شن حربا شاملة على الإسلام والمسلمين.. استهلها بقتل الركع السجود أثناء الصلاة في المسجد، وأفرط في اعتقال العلماء والشباب الملتزم بالإسلام، وأطلق يد الجيش والشرطة في ملاحقة كل من له سمت إسلامي، وشرع في حرق المساجد وتفجيرها بالطيران وإغلاقها، وبالغ في توجيه الاتهام للمسلمين جميعًا أنهم سبب نشر الإرهاب في العالم، ناهيك عن سن قوانين جديدة لتنحية الإسلام بكل صوره عن جميع مناحي الحياة.. وصارت المجاهرة بـ(الإلحاد) و(الفجور) أمرًا غير مستنكَر.. بل تشجع عليه وسائل الإعلام التي أطلق لها العَنان لتنفيذ خطته الموغلة في الإجرام والفجور..

وهذا تقرير لصحيفة "يديعوت أحرونوت" الصهيونية عن "الإسلام في الشرق الأوسط" يوثق (الجريمة) النكراء:

يذكر التقرير أن مركز الإسلام في مصر، ويحدد سبب حذف قصة صلاح الدين الأيوبي وعقبة بن نافع من المناهج الدراسية في مصر، ويقول: **إنه يأتي في إطار الحرب التي يشنها "عبد الفتاح السيسي" قائد الانقلاب العسكرى على الإسلام.**

وأضاف التقرير: **إن السياسة الجديدة بالقاهرة تجاه المقدسات تثير حالة من**

وقتذاك. وبسببه بعث وزير الخارجية المصري برسالة وصفت بأنها "شديدة اللهجة" إلى نظيرته الإسرائيلية طالب فيها بمحاكمة قتلة الأسرى المصريين. وقدمت وقتذاك ٦ بلاغات اتهمت "بن اليعيزر" بارتكاب جرائم ضد الإنسانية. [كنز إسرائيل الاستراتيجي: مقال لفهمي هويدي/ ٦ مايو ٢٠١٠م]

السخط؛ حيث قررت وزارة التعليم تغيير المناهج الدراسية بالمدارس، وتقليص المواد وقائمة الموضوعات التي لن تدرس مجددًا بالمدارس، ومن بينها قصة حياة "صلاح الدين الأيوبي" (محرر القدس) من يد الصليبيين.

وتابع التقرير: **بطل آخر في التاريخ الإسلامي التقليدي، عُرف كأحد رجال النبي محمد، وهو "عقبة بن نافع"؛ حذف جزئيًّا من منهج الصف الأول الإعدادي. و"نافع" هو الذي قاد (احتلال الإسلام) لمنطقة المغرب وإفريقيا.**

وتطرق التقرير إلى **حذف قصة "نهاية الصقور"، بدعوى التخوف من تحريض التلاميذ على العنف**، حيث **تقوم العصافير بحرق أعدائها من الصقور، وهو ما اعتبر ترويجًا لتنظيم داعش المتطرف الذي يحرق خصومه. ا.هـ** [جريدة الشعب]

هؤلاء هم من حكموا مصر، وتحكموا في رقاب أهلها منذ مائتي عام أو يزيد..

وأصَّلوا فرقان الشيطان بين السلطان والقرآن، ذلك الفرقان الذي أخبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: **"ألا إن السلطان والقرآن سيفترقان، فلا تفارقوا الكتاب".**(١)

وكان هذا (الفصل) بين الدين والدولة، أو بين الشرع والحُكم، تضييعًا للشرع وإضعافًا للحُكم، بل كان إضعاف الحكم بالإسلام مقدمة لإضاعة الدين والدنيا معًا، في تتابع مستمر قابل لأن يطال كل أسس الدين وثوابت الشريعة، كما أخبر الصادق المصدوق في قوله صلى الله عليه وسلم: **لَتُنقَضَنَّ عُرى الإسلامِ عُروةً عُروةً؛ فكلما انتقَضَتْ عُروةٌ تَشبَّثَ الناسُ بالتي تليها؛ فأولُهنَّ نَقضًا الحُكْمُ وآخِرُهنَّ الصلاةُ".**(٢)

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الصغير، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، وابن حبان في صحيحه، والحاكم في المستدرك، وصححه الألباني في "صحيح الجامع الصغير".

وقد صدَّقت حقائق التاريخ المعاصر هذه النبوءة المعجزة لرسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فما أن يُنقَض الحكم بالإسلام في أرض، إلا ويتسلط عليها شياطين الإنس، فيقوضون بنيانها وينقضون عُراها بدءًا بمنصة القضاء الشرعي، وانتهاء بإقامة الصلاة التي جعل الرسول صلى الله عليه وسلم إقامة الولاة لها في الناس فيصلاً بين شرعية ولايتهم أو عدم شرعيتها؛ وذلك عندما سأله بعض الصحابة عن حكم أئمة الجور قائلين: أفلا ننابذهم بالسيف؟ قال: **"لا.. ما أقاموا فيكم الصلاة"**.[٣]

وهذا فضيلة الشيخ/ محمد الغزالي يكشف عن جزء من (الصراع) الدائر بين (المسؤولين) وبين العلماء (المصلحين) بسبب تعطيل أحكام الشريعة المتعمد: [إن شرائع الحدود والقصاص جزء من الشريعة الإسلامية الرحبة، أو هي سطور قليلة من كتابها الطويل، ولم يقل أحد: إن تنفيذ الحدود والقصاص إقامة للشريعة كلها. ولم يقل أحد: إن هذا التنفيذ يغني عن الإصلاح الواجب لسائر أجهزة الدولة العليا والدنيا. ولم يقل أحد: إن طلاب هذا التنفيذ سيغلقون أفواههم بعد ذلك، ويشعرون بأن دولة الإسلام قامت.

ولقد قلت في مؤتمر مشهود: إن هذا التنفيذ سيمنع عدة آلاف من جرائم القتل والشروع فيه، ومن جرائم العدوان على الأموال والأعراض والدماء.. بيد أن صيحتي ذهبت في وادٍ؛ **لأن المراد تعطيل الإسلام وصرف الناس عنه وإبطال حنينهم إليه..**

والغريب أن ذلك يتم باسم الحرية..! أية حرية..؟! **إن المسلمين يُقهرون بالعنف على ترك دينهم.**

قلت لمسؤول كبير: أندمتم على الاستفتاء الذي تم على عهد "السادات"، وقررت فيه الأمة أن يكون الإسلام المصدر الرئيسي للتشريع؟ قال: لا..

---

[٣] أخرجه مسلم في صحيحه.

قلت: فما يعوق إصدار الأحكام المتعلقة بالحدود والقصاص؟ قال مستنكرًا: أهذا هو الإصلاح؟!

نعم.. هذا إصلاح عميم الفائدة، عميق الأثر، حاسم في ثمراته ودلالاته.

وعلمتُ لماذا توضع مشروعات القوانين الإسلامية في بعض الأدراج، لعلها لا تخرج منها أبدًا ! **إن الإيمان بهذه القوانين مفقود، بل إن الكره لها شديد.**

إن (منع تعدد الزوجات) تم بين عشية وضحاها، أما المحكم الصريح من أوامر الله فشأن آخر..]ا.هـ[1]

حصاد العلمانية:

إن الفتنة المعاصرة الكبرى آتية من الآراء والأفكار والشعارات والمذاهب الفكرية المعاصرة، التي تناولت حرمات العقائد الدينيّة الربّانية الكبرى، **وتناولت مقدَّسات المبادئ والأخلاق بالتقويض والهدم، والتشويه والرجم. وعبثت بالنظم ومناهج السلوك الإنساني الفردي والاجتماعي التي جاءت بها الشرائع الربانية، وأكملها الله بالرسالة الخاتمة لرسوله صلى الله عليه وسلم.**

وقد أثبت المتتبعون من أهل البحث أن اليهود يحملون كبر نشرها في العالم، وظهر هذا في مخططاتهم السرية، وفي كون أئمة معظم هذه المذاهب المعاصرة هم من اليهود.

وكانت الدراسات الفلسفية والنفسية والاجتماعية هي المجالات الخصبة التي أُسست فيها هذه الآراء والأفكار والمذاهب الفكرية المعاصرة، مع بعض مجالات أخرى.

---

[1] واقعنا المعاصر: محمد قطب – القومية: د. عبد الله عزام – الغزو الثقافي يمتد في فراغنا: محمد الغزالي– العلمانية "إمبراطورية النفاق" من مهد لها الطريق: مقال بقلم د. "عبد العزيز كامل"/ مجلة البيان (١٩٥/ ٣٤) – قذائف الحق: محمد الغزالي.

وجَرَّت هذه المُحدَثات الفكرية المعاصرة التي عبثت بالعقائد الدينية، والمبادئ والأخلاق والنظم ومناهج السلوك للأمم والشعوب بلاءً كبيرًا، وشرًّا مستطيرًا، وأمست مُنذرة بانهيار ساحق، ودمار ماحق، وكثير من هذه المُحدَثات هو من دفائن الأولين؛ من الكافرين والفاسقين والمجرمين، والمهلَكين المدمر عليهم.

وقد سرت عدوى (العلمانية) وامتدت إلى الشرق الإسلامي، وحملها الذين درسوا من أبناء المسلمين في مؤسسات التعليم العلمانية، وأخذت المحافل الماسونية والأحزاب والجمعيات ذات الاتجاه الغربي اللاديني تنشرها بين أبناء المسلمين بكل ما أوتوا من وسيلة دعائية وإعلامية وتعليمية.

وزحفت العلمانية بقوة تنتشر بين المسلمين مع جيوش المستعمرين الغربيين ومدارسهم العلمانية، ومن معهم من المستشرقين.

ولا تزال تظهر للعلمانية تطبيقات في معظم بلدان العالم الإسلامي، ولو لم تحمل هذه البلدان شعار العلمانية بشكل سافر.

والتزامًا بمذهب الأخذ بالعلمانية وبالعقلانية أحيانًا، انطلق العلمانيون يبحثون في كل مجال من مجالات الحياة عما توصلهم إليه علمانيتهم وعقلانيتهم من أفكار ومناهج ونظم، لاتخاذها مذاهب لهم.

وكان لا بد أن ينتج هذا الاتجاه العلماني مذاهب مختلفة ومتناقضة أحيانًا للسلوك الإنساني، في كل مجالٍ من مجالات الحياة، لأن **البحث العلمي أو العقلي الإنساني الذي لم يصنه الوحي الربّاني لتحديد هذه المذاهب، لا يملك الوصول إلى المنهج الأصلح والأقوم لكل الناس،** إذْ تخضع رؤيتهم لمؤثرات من النفوس والأهواء والشهوات، أو لمصالح أفراد أو جماعاتٍ أو منظَّمات، وتخضع أيضًا لتضليلات يوسوس بها شياطين الإنس وشياطين الجن.

وجرت تعديلات في كثير من المذاهب الإنسانية، التي كانت من منتجات المذهب العقلاني، وذلك بموجب تأثيرات المذهب العلماني، الذي صار هو السائد في القضايا التي يكون فيها للملاحظة والاختبار والتجربة الحسية أحكام من وجهة نظر أصحابها.

وباستطاعتنا أن نقرر أن المذاهب الاقتصادية المختلفة المعاصرة، من رأسمالية إلى اشتراكيات مختلفة، إلى شيوعية على اختلافها أو تناقضها؛ كلها من منتجات العلمانية مع العقلانية. وأن المذاهب السياسية المعاصرة المختلفة من ديمقراطيات إلى ديكتاتوريات على اختلافها أو تناقضها، هي من منتجات العلمانية مع العقلانية. وكذلك المذاهب الأخلاقية المتخالفة والمتناقضة أحيانًا جميعها من منتجات الاتجاه العلماني أو العقلاني. وهكذا سائر المذاهب الاجتماعية المختلفة والمتناقضة أحيانًا والآراء والأفكار والمذاهب المختلفة في علم النفس وفي سائر العلوم.

طُبقت العلمانية في التعليم ومناهجه، فأُبعد الدين عنه.

وطُبقت في السياسة والحكم فعُزل الدين عنهما.

وطُبقت في الاقتصاد ونُظُم الأموال فعُزل الدين عن هذا المجال.

وطُبقت في القوانين المدنية، فوضع العلمانيون قوانينهم.

وطُبقت في الفنون، فانطلق هواة الفن ينتجون إنتاجاتهم المختلفة مستهينين بالدين وبفضائل الأخلاق وبفضائل السلوك.

وسقط العلمانيون العقلانيون في مذاهب متخالفة ومتناقضة أحيانًا، ولم يقدموا للإنسانية مناهج سليمة متكاملة تحل مشكلات الحياة البشرية الفردية والجماعية، أو تحقق للناس أوفر حظٍّ من العيش الكريم، والأمن، والسعادة، وكان ذلك بإهمالهم لدين الله الحق الذي ختم الله به رسالاته للناس، وهو الإسلام.

يقول فضيلة الشيخ/ محمد الغزالي: [أحد الذين حضروا ندوة "الإسلام والعلمانية" سألني: لماذا لم تجب عن تساؤل الدكتور "فؤاد زكريا": ماذا يفعل الإسلام لحل مشكلة الديون المصرية؟ قلت: وجدت السؤال ساذجًا ! ولو قال: ماذا يفعل الإسلام لعلاج أخطاء العلمانية الاقتصادية لسارعت بالجواب! قال: وما هذه الأخطاء؟

فرددت بسرعة: **إن مصر بعد الحرب العالمية الثانية كانت دولة دائنة، وكانت القيمة الذاتية للجنيه المصري خمسة أضعاف الدولار الأمريكي! فما الذي جعل الدولة الدائنة مدينة؟! وما الذي جعل الجنيه يساوي في الأسواق نصف دولار؟!! تلك آثار العلمانية الاقتصادية، وعبقريتها في التخريب المادي والأدبي ! والسخيف أنها تخفي هذا الفشل تحت ثوب من الترفع والتعالم !! ثم يُقال للمسلمين: ماذا ستفعلون لحل المشكلة؟ المشكلة التي وضعوا هم بذورها]**ا.هـ [(١)]

ونستعرض جزءًا من البروتوكول التاسع من "بروتوكولات صهيون"، فهو يقدم لنا وصفًا دقيقًا للمؤامرة التي يتم تنفيذها بدقة متناهية:

[وحين تقف حكومة من الحكومات نفسها موقف المعارضة لنا في الوقت الحاضر فإنما ذلك أمر صوري، متخذ بكامل معرفتنا ورضانا، كما أننا محتاجون إلى إنجازاتهم المعادية للسامية، كيما نتمكن من حفظ إخواننا الصغار في نظام.

وإنني أستطيع في ثقة أن أصرح اليوم بأننا أصحاب التشريع، وأننا المتسلطون في الحكم، والمقررون للعقوبات، وأننا نقضي بإعدام مَن نشاء ونعفو عمن نشاء، ونحن ـ كما هو واقع ـ أولو الأمر الأعلون في كل الجيوش، الراكبون رؤوسها، ونحن نحكم بالقوة القاهرة، لأنه لا تزال في أيدينا الفلول التي كانت الحزب القوي من قبل، وهي الآن خاضعة لسلطاننا، إن لنا طموحًا لا يُحَد، وشَرَهًا لا يَشبع، ونِقمة لا ترحم، وبغضاء لا تُحَس. إننا مصدر إرهاب بعيد المدى. وإننا نسخر في خدمتنا أناسًا من

(١) كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة: عبد الرحمن حَبَنَّكة – الحق المر: محمد الغزالي.

جميع المذاهب والأحزاب، من رجال يرغبون في إعادة المَلَكيات، واشتراكيين، وشيوعيين، وحالمين بكل أنواع الطوبيات[٢]، ولقد وضعناهم جميعًا تحت السَّرْج، وكل واحد منهم على طريقته الخاصة ينسف ما بقي من السلطة، ويحاول أن يحطم كل القوانين القائمة. وبهذا التدبير تتعذب الحكومات، وتصرخ طلبًا للراحة، وتستعد ـ من أجل السلام ـ لتقديم أي تضحية، ولكننا لن نمنحهم أي سلام حتى يعترفوا في ضراعة بحكومتنا الدولية العليا.[١]

فيا عباد الله..

إذا اكتبرَ الأعــداءُ عَــدًّا وعُــدَّةً ... فــلا تنسَ أنَّ اللهَ أعلى وأكبــرُ

فلا بــدَّ مِن يـومِ اعتـلاءٍ وصحوةٍ ... وأصنــامُهم مِن دَوسِــها تتكسَّـرُ

ولا بــدَّ مِن يــومٍ تَرى كلَّ باطلٍ ... زَهــوقًا ذليلَ الرأسِ والحقُّ يَظـهرُ

كأني أرى مَــوجَ السَّــرايَـا مُلَبَّــدٌ ... وأسمَــعُ كلَّ الكــونِ "اللهُ أكبـرُ"

أرى السيفَ لا يَنبو ولا الرمْحُ يَنثَني ... وخيـلُ التُّقى تَعــدو ولا تَتَعَثَّــرُ

وصُبْحُ الأمــاني فيْـلقٌ إثـرَ فيْــلقٍ ... وليــلُ الأعــادي ثــورةٌ تتفجَّــرُ

وتُشرِقُ مِن وَجـهِ الوجــودِ شَـريعتي ... وكــلُّ جميلٍ في مُحيَّـاهُ يُزهِـرُ[٢]

[٢] الطوبيات يُقصد بها ما يسمى الممالك الفاضلة، أو كما سماها "الفارابي" المدينة الفاضلة. ومفرد هذه الكلمة "Utopia" (لا أرض) وأول من استعملها في الإنجليزية السير "توماس مور" Sir Thomas More (١٤٨٩ ـ ١٥٣٥) للدلالة على مملكة فاضلة تخيلها، وتخيل الناس فيها سعداء جميعًا، وقد صارت بعد ذلك تطلق على كل فكرة من هذا القبيل. وقد ترجمنا أحيانًا بـ"الممالك الفاضلة" مستأنسين بتسمية "الفارابي" الفيلسوف المسلم لفكرة له تشبه فكرة الاسمين من التشابه في اللفظ والمعنى، فأما اللفظ فظاهر، وأما المعنى فلأن "طوبى" في العربية ـ كما وردت في القرآن والترجمة العربية للإنجيل ـ تؤدي معنى الجزاء للصالحين بما عملوا من خير، وقد جعلنا النسبة إليها طوباوية وطوباويًا. [ترجمة: محمد خليفة التونسي]

[١] الخطر اليهودي بروتوكولات حكماء صهيون: ترجمة: محمد خليفة التونسي (المتوفى: ١٤٠٨هـ)

[٢] من قصيدة "الوعد الحق" للمبدع/ صالح بن علي العمري.

(٢) إثارة النزعة القومية

عمل أعداء الإسلام على تفتيت الوحدة الدينية الكبرى بمختلف الوسائل فلم يظفروا، إلى أن عثروا على السلاح الخطير القادر على تفتيت وحدة المسلمين، مع ضعف الإسلام فيهم. إنه "سلاح القومية".. إنه المتفجر الهائل الذي يفرق المسلمين إلى قوميات شتى، ويعيدهم إلى أصولهم الأولى التي كانوا عليها، قبل أن تجمع بينهم الوحدة الإسلامية الكبرى.

كانت الخديعة الكبرى التي انزلقت فيها الشعوب العربية تحت شعار "التحرر القومي"، والتي انتهت بهم إلى التجزئة، وكانت هذه الخديعة سُلَّمًا للمستعمرين حقق لهم فرصتهم الذهبية لفرض حكمهم المباشر على المجزءات العربية، فحكموها وأمعنوا في تجزئتها متابعة منهم للخط القومي الضيق؛ الذي يفصل هذه الأمة عن وطنها الأم الكبير، ألا وهو الوطن الإسلامي الواحد في مبادئه وعقائده وشرائعه وعاداته وتاريخه الطويل المجيد، وأسرع أعداء الإسلام يتناهبون التركة التي خلَّفتها الخلافة الإسلامية بعد قتلها.

وكانت المؤامرة معدَّة سلفا؛ ذكرها الكولونيل "لورانس" في تقريره للمخابرات البريطانية عام ١٩١٦م: "إن أهدافنا الرئيسة تفتيت الوحدة الإسلامية بدحر

الإمبراطورية العثمانية وتدميرها، وإذا عرفنا كيف نعامل العرب فسيبقون في دوامة الفوضى السياسية داخل دويلات صغيرة حاقدة متنافرة غير قابلة للتماسك".

حتى (الجامعة العربية) كانت كما يعرف كل مَنْ عاصر أحداث العصر من صناعة وزير خارجية الإنجليز[1]؛ لتكون بديلًا عن (الجامعة الإسلامية):

نشر الدكتور "عبد اللطيف حمزة"، أستاذ الصحافة بجامعة القاهرة مقالاً في جريدة "الأهرام" بعنوان (الجامعة الإسلامية والجامعة العربية) جاء فيه:

في الربع الأخير من القرن الماضي، والعشرة الأوائل من القرن الحالي ظهرت في سماء الفكر السياسي المصري أفكار ثلاثة هي سلسلة متصلة الحلقات، وهي فكرة الجامعة الإسلامية، وفكرة الجامعة العربية، وفكرة القومية أو (المصرية).

واقترنت فكرة الجامعة الإسلامية بظهور السيد "جمال الدين الأفغاني"؛ الذي يقول المؤرخون: إنه جاء يبشر بدولة إسلامية عريضة في ظل خلافة عثمانية قوية. وهي فكرة كان يمكن تحقيقها لو أوتيت تركيا يومئذ من القوة المادية والمعنوية ما يكفل لها ذلك.

ومنذ خابت آمال أوروبا في الشرق الأقصى ـ أي الصين واليابان ـ؛ اتجهت آمالها الاستعمارية إلى الشرقين الأوسط والأدنى؛ فصوبت إليهما سهام الاستعمار.

---

[1] في ٢٩ مايو ١٩٤١ ألقى "أنتوني إيدن" وزير خارجية بريطانيا خطاباً ذكر فيه "إن العالم العربي قد خطا خطوات عظيمة منذ التسوية التي تمت عقب الحرب العالمية الماضية، ويرجو كثير من مفكري العرب للشعوب العربية درجة من درجات الوحدة أكبر مما تتمتع به الآن. وإن العرب يتطلعون لنيل تأييدنا في مساعيهم نحو هذا الهدف، ولا ينبغي أن نغفل الرد على هذا الطلب من جانب أصدقائنا. ويبدو أنه من الطبيعي ومن الحق وجود تقوية الروابط الثقافية والاقتصادية بين البلاد العربية، وكذلك الروابط السياسية أيضا. وحكومة جلالته سوف تبذل تأييدها التام لأي خطة تلقى موافقة عامة". وفي ٢٤ فبراير ١٩٤٣م صرح "إيدن" في مجلس العموم البريطاني بأن الحكومة البريطانية تنظر بعين (العطف) إلى كل حركة بين العرب ترمي إلى تحقيق وحدتهم الاقتصادية والثقافية والسياسية. [الموسوعة الحرة]

ثم نهض المسلمون في بلادهم. وخشي الاستعمار الأوروبي نتائج هذه النهضة. وعندئذ أصبح للجامعة الإسلامية معنيان: أحدهما في أذهان المسلمين في الشرق والثاني في أذهان الأوروبيين في الغرب.

فأما المعنى الأول لفكرة الجامعة الإسلامية في أذهان المسلمين؛ فهو النهوض ببلاد الإسلام نهوضًا تستيقظ به من سُباتها. وتتخلص به من النفوذ الأوروبي الذي كان عاملاً حقيقيًّا في تخلفها؛ لا في تقدمها كما زعم القوم.

وأما المعنى الثاني لفكرة الجامعة الإسلامية؛ فهو ما وقر في مشاعر الغربيين وأفكارهم من أن (الإسلام يعاود زحفه القديم)، ويتهدد كيانهم الروحي ونفوذهم السياسي. ثم إن النزاع الدامي الذي نشب طويلاً بينهم وبين الأتراك لا يتيسر محوه من الذاكرة.

ومِن ثَمَّ قاوموا فكرة الجامعة الإسلامية مقاومة عنيفة، وأوجسوا خيفة من ترك دعاتها يجمعون العواطف حولها؛ خصوصًا إذا قام هذا الجمع على حشد قُوى المسلمين وراء دولة الخلافة، غير أن سَوادَ المسلمين ـ ببواعث شتى ـ مَال إلى هذا الاتجاه.

وابتدع الأوروبيون فكرة الجامعة العربية (للتخلص) من (الجامعة الإسلامية) التي رأوا فيها (الخطر الأكبر).. وأغرت هذه الفكرة كثيرًا من المسلمين فراحوا يؤيدونها ويدعون لها دون أن يذكروا أنهم أخذوها عن الأوروبيين، وكان من هؤلاء السيد "علي يوسف" صاحب (المؤيد) الذي كان متأثرًا في ذلك بأفكار الخديوي "عباس حلمي".

وبينما العالم الشرقي متأرجح بين هاتين الفكرتين؛ إذ بـ"الجريدة" التي يحررها "أحمد لطفي السيد" تدعو إلى فكرة جديدة هي فكرة (الجامعة المصرية)! وتأثرت الأذهان بهذه الفكرة إلى ما بعد عام ١٩٣٢م.

وهذه (الجامعة المصرية) تقوم على أساس النزعة (الفرعونية)، وأن أهل هذه البلاد لا صلة لهم بـ(عروبة) ولا (إسلام). وهذا الكلام أوغل في الكفر من سابقه، ولكنه بداهة (قرة عين الاستعمار)؛ وإن زعم قائلوه أنهم دعاة حرية واستقلال.

إنه (استقلال) نشتريه ببيع ديننا، ونسيان ربنا ونبينا، وقد قُضي على هذه (النزعة العفنة)؛ بَيْدَ أنَّ ما أمَّله الصليبيون مِن ورائها ربطوه كَرة أخرى بمفهوم (القومية العربية) بعد اطراحها الإسلام.

ثم ظهرت من جديد فكرة الجامعة العربية، ومع أنها نبعت مرة أخرى من الأطماع الإنجليزية؛ إلا أن المصريين والشرقيين تحمسوا لها، وحرصوا على الانتفاع بها ضد الاستعمار من دسائس الإنجليز.

وفي ذلك يقول الأستاذ "فتحي رضوان": وتنبه "مصطفى كامل" إلى هذه المحاولة، وأثبت أن **نية "بريطانيا" لا تهدف إلى إنشاء جامعة عربية (للعرب ولمصلحة العرب)؛ بل جامعة عربية تعيش في ظل إنجلترا وتحت سلطان إنجلترا.ا.هـ**

إن الإنجليز الذين طالما حاربوا الإسلام، رحبوا بقيام الجامعة العربية؛ ظانين أنها سوف تكون أداة صالحة لاستقرار المنطقة على نحو يتمشى مع أهدافهم البعيدة.

لكننا نحن العرب رحبنا بقيام الجامعة لتخدم قضايانا، وتنمي وحدتنا؛ لا لتخدم خصومنا وتؤمن رغائبهم. **ويبدو أن القومية العربية ولدت من فترة طويلة في هذا الجو نفسه.**

الغزاة الأجانب يحسبونها عوضًا عن الإسلام، وصارفًا عن التفكير فيه. والعرب لا يعرفون هذا، ولا يصدقون سماسرة الاستعمار الذين يشرحون هذه القومية على أنها مقطوعة الصلات بالدين، وعلى أنها مانعة من العود إليه والاستقاء منه.

وعدد كبير من المحدَثين في مفهوم هذه القومية (يبغضون) الإسلام، و(يستنكرون)

نظمه المقررة و(يتجهمون) لأمته الكبيرة.. أي إنهم (جيش للغزو الصليبي) مُدرَّب على قتال بني جنسه ،كما تُدرب (الكلاب) على خدمة سادتها أحسن تدريب.

فـ(القومية) إحدى الوسائل التي استخدمها أعداء الأمة لاستبعاد الإسلام كـ(رابطة وحيدة)، وإحلال رابطة جديدة مكانه.

وهكذا.. فإن تيار الفكرة القومية كانت مهمته إقصاء الإسلام، وتفريغ القضية السياسية والاجتماعية بوجه عامٍّ من المحتوى الإسلامي، وإحلال فلسفة أخرى وعقيدة أخرى محل عقيدته، واستبدال رابطة أخرى برابطته؛ لعزل الشعوب الإسلامية بعضها عن بعض عزلًا نهائيًّا؛ بحيث تكون صلة بعضها ببعض كصلتها بأيِّ شعب من الشعوب الأخرى التي تدين بالوثنية أو الماركسية أو غيرها، والتي لم تكن تربطها بها أي رابطة، وبذلك تنقطع الصلات بين الشعوب الإسلامية، وتضعف روابط الثقافة المشتركة ولغة القرآن، والقيم الخلقية، ويُقضى على الأخوة الإسلامية.

وما دام باب (القومية) قد فُتح على المسلمين؛ فقد كان طبيعيًّا أن تنتهي إلى ظهور القومية (الكردية) في العراق، و(البنغالية) في باكستان، بعد أن أُوصد الباب الذي يصل المسلمين بعضهم ببعض وهو (الإسلام). [١]

وقد ظهرت بدايات الفكر القومي في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين؛ متمثلة في حركة سرية تألفت من أجلها الجمعيات والخلايا في عاصمة الخلافة العثمانية، ثم في حركة علنية في جمعيات أدبية تتخذ من دمشق وبيروت مقرًّا لها، ثم في حركة سياسية واضحة المعالم في المؤتمر العربي الأول الذي عُقد في باريس سنة ١٩١٢م.

---

[١] أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي: د. علي جريشة – أجنحة المكر الثلاثة: عبد الرحمن حبنكة – حقيقة القومية العربية وأسطورة البعث العربي: فضيلة الشيخ/ محمد الغزالي رحمه الله.

وظلت الدعوة إلى القومية العربية محصورة في نطاق الأقليات الدينية غير المسلمة، وفي عدد محدود من أبناء المسلمين الذين تأثروا بفكرتها، ولم تصبح تيارا شعبيًّا عامًّا إلا حين تبنى الدعوة إليها الرئيس المصري الراحل "جمال عبد الناصر"؛ حين سخر لها أجهزة إعلامه وإمكانات دولته. ويمكن أن يقال إنها الآن تعيش فترة انحسار أو جمود على الأقل.[٢]

رواد الحركة القومية العربية:

"ساطع الحصري" (١٨٨٠-١٩٦٨م): سوري ولد في "صنعاء" باليمن حيث كان أبوه موظفًا فيها، ثم درس في المدارس التركية وتخرج فيها ونال عدة وظائف تعليمية وإدارية، وكان مديرًا لدار المعلمين في إسطنبول، ثم عين محافظًا لبعض الولايات في "البلقان"، وكانت نزعته (طورانية) تركية بحتة، وعمل مع جمعية "الاتحاد والترقي"، وقد نشر عدة مقالات في الدعوة إلى (الطورانية والتتريك) في مجلة "تورك أوجاني" بتوقيع: (م ساطع) أي مصطفى ساطع، ثم انقلب بين عشية وضحاها ليصبح رائدًا من رواد القومية العربية. وكانت في لغته رطانة.

يُعد داعية القومية العربية وأهم مفكريها وأشهر دعاتها، وله مؤلفات كثيرة تُعد الأساس الذي تقوم عليه فكرة القومية العربية، ويأتي بعده في الأهمية "ميشيل عفلق".

وهو أول مَن جعل العنصرية والعِرق والدم بديلاً لمفهوم الإسلام الذي يقوم على الإخاء الإنساني، وأول مسؤول عن التعليم العالي التركي في الوزارة التي شكلها "الاتحاديون" بعد سقوط الخلافة مباشرة، وأول مَن صرح بأن (قومية إسرائيل) تقوم على الدين، وأن (الإسلام) دين تعبد، وينكر مكانة الإسلام في بناء المجتمع.

---

[٢] الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة: الندوة العالمية للشباب– مراجعة: د. مانع بن حماد الجهني

أحرز "ساطع الحصري" شهرة وافرة في سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية باعتباره (فيلسوف القومية العربية)؛ حيث روَّج لنظرية خطيرة كانت بعيدة الأثر في حجب العروبة الأصيلة المرتبطة بالإسلام فكرًا وعقيدة، وبالعالم الإسلامي تكاملاً وإخاء.

لقد كان دعاة حركة اليقظة في البلاد العربية يرون أن الجامعة الإسلامية قائمة بين العرب والمسلمين (فُرسًا وتُركًا) بعد زوال الدولة العثمانية. ولكن "ساطع الحصري" كان من أوائل الدعاة إلى فصل العرب عن المسلمين بمفهوم القومية الغربي الوافد الذي طرحه في أفق الفكر السياسي العربي. وهذا يرجع إلى أن "ساطع الحصري" كان ثمرة من أنضج ثمار المدرسة الاتحادية التركية، وأكبر الدعاة الذين نقلوا مفهوم (القومية الطورانية التركية) إلى أفق العروبة التي كانت ترتبط بمفهوم الإسلام في العلاقة بين الشعوب التي جمعها التوحيد والقرآن ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم والفكر الإسلامي الأصيل.

وعلى هذا الفهم الخاطئ القاصر قامت نظرية "ساطع الحصري" التي لمعت سنوات تحت تأثير الخداع والأهواء حتى أن بعض دعاة "الماسونية" في العالم العربي راح يفسر عن طريقها تاريخ الإسلام كله؛ فيرى أنه تاريخ قومي عنصري عربي. ومن ثَمَّ وُجِّهت غارات الحقد والخصومة إلى الأمة الإسلامية، وهذه هي الثمرة الحقيقة التي تهدف إليها حركة الغزو الثقافي التغريبي من طرح هذه النظرية القومية الإقليمية الضيقة العدوانية الوافدة. بديلاً عن المفهوم الأصيل "العروبة في إطار الإسلام".

وقد ثبت أن "ساطع الحصري" قد خدم بدعوته وفكره مفاهيم (الماسونية) والنظرية (القومية الوافدة)؛ التي كان النفوذ الغربي حريصًا على تلقينها للعالم العربي. وهي ليست إلا صورة من مفهوم (الإقليمية اللبنانية).

وقد كان من أعمدة وزارة المعارف في تركيا منذ أوائل حكم (الاتحاديين) في تركيا العثمانية إلى أن انتهت الحرب الأولى.

وكان من أخطر الموجِّهين للبرامج التربوية والتعليمية في العراق[1]؛ حيث عمد إلى فصلها عن الإسلام فصلاً تامًا. وكان دوره أشبه بدور الدكتور "طه حسين" في التعليم المصري.

"ناصيف اليازجي" (١٨٠٠- ١٨٧١م) لبناني نصراني، عمل مع البعثة الأمريكية، وفي مطبعتها مع "سمث" و"فانديك"[1]. قام هو وابنه **"إبراهيم اليازجي"** بترجمة التوراة، وكان ابنه "إبراهيم" هو أول مَن أسس "جمعية بيروت السرية" ذات الطابع القومي، وشعارها بيت من شعر إبراهيم نفسه:

لَنطلُبَنَّ بحدِّ السيفِ مأرَبَنا ... فلن يخيبَ لنا في جنبِهِ أرَبُ

وإبراهيم هذا كان (ماسونيا) عاش ما بين (١٨٤٧- ١٩٠٦)، ومات في مصر ونعته المحافل (الماسونية) فيها، وهو صاحب القصيدتين اللتين تناديان بالثورة على الأتراك:

تنبهوا واستفيقوا أيها العربُ ... لقد طما السيلُ حتى غاصتِ الرُّكَبُ

أقدارُكم في عيونِ الترك نازلةٌ ... وحقُّكم بين أيـدي التُّـركِ مُنتَهَبُ

والقصيدة الثانية:

دَعْ مجلسَ الغِيدَ الأوانِسْ ... وهوى لواحِظِها النواعِسْ

أيُّ النعيـمِ لمَـنْ يَبِيـتُ ... على فِراشِ الذُّلِّ جالِسْ

---

[1] عينه ملك العراق "فيصل الأول" معاونًا لوزير المعارف، ثم مديرًا للآثار. وتولى إدارة دار المعلمين العالية في بغداد، وكان (علمانيا) فلم يُبدِ اهتمامًا بدروس الدين في المناهج المدرسية، بل جعل درس الدين لا قيمة له. وفي سنة ١٩٢٣م احتج المعلمون في بغداد على سلوك "الحصري"، وقدموا مذكرة للملك "فيصل الأول"، ثم نشروا كراسًا بعنوان "سر تأخر المعارف"، ولكن الملك كان يُلزم وزارة المعارف بأوامر "الحصري"، ولم يهتم بآرائهم. [الموسوعة الحرة]

[1] "إيلي سمث" مكث يعمل دائبًا للنصرانية (١٨٣٤ – ١٨٥٧م)، فنقل المطبعة التي كانت للبعثة التبشيرية البروتستانتية الأمريكية بمالطة إلى "بيروت"، وبدأت تطبع بالعربية. وهي أول مطبعة من نوعها في بلاد الشام. و"كورنيليوس فانديك" جاء طبيبًا مع البعثة الأمريكية وبقي يعمل خمسًا وخمسين سنة في بلاد الشام.

فالتُّـركُ قــومٌ لا يَفـوزُ لديـهِـمُ إلا المُشـاكِسْ

"بطرس البستاني" (١٨١٩م – ١٨٨٣م) وهو لبناني، كان يعمل مترجمًا في القنصلية الأمريكية في بيروت وغير دينه من (ماروني) إلى (بروتستانت) بسبب صداقته مع "سمث" و"فانديك". وظفه المبشرون مدرسًا في مدرسة عربية، ترجم التوراة مع "سمث" واستغرق في الترجمة عشر سنوات. أصدر في فتنة ١٨٦٠م بين النصارى والدروز في لبنان مجلة اسمها "نفير سورية" يدعو إلى الوحدة القومية.

ويعتبر "اليازجي" و"البستاني" من الرواد الأوائل لفكرة القومية العربي، فلقد قام تلاميذهم بالتنظيمات القومية التي آتت أكلها فيما بعد، وأثمرت هذا الإقصاء لدين الله عن الحياة وتربية الرواد الذين يعتبرون (القومية) مثلهم الأعلى تقدم له القرابين والتضحيات.

عمدت (البعثة الأمريكية) إلى إنشاء أكبر معهد لحضانة الفكر القومي وهو: (الجامعة الأمريكية) في بيروت ١٨٦٦م، وكان اسمها في البداية "الكلية السورية الإنجيلية". وكان أول رئيس لها هو "دانيال بلس" راهب أمريكي يحمل الدكتوراة في اللاهوت، وبقي رئيسًا للجامعة حتى ١٩٠٢م، وخلفه ابنه "هوارد بلس".

إن أثر (الجامعة الأمريكية) في المنطقة لا يوازيه أي أثر في (الفكرة القومية).

ولقد خرَّجت الجامعة أجيالا من (قادة) بلاد الشام على مدى قرن ونَيِّف.

ومن أساتذتها المعروفين برعاية الفكر القومي **"قسطنطين زريق"** الذي تخرج على يديه **"جورج حبش"** زعيم القوميين العرب.

ويتطابق الواقع الأليم مع ما أشار إليه مُعرِّب كتاب "لعبة الأمم" أن: أكثر من تسعين بالمائة من قادة حركة القومية العربية الأقحاح هم من خريجي الجامعة الأمريكية في بيروت، وكلهم من النصارى.

ومن الأعمال التي قامت بها البعثات التبشيرية إنشاء "الجمعيات" التي تنادي بالفكر القومي.

ونستطيع أن نجزم أن **بداية العمل القومي (المنظم) كان في بلاد الشام عن طريق (النصارى). هؤلاء النصارى كانوا ثمرة جهود البعثة الأمريكية. وكان من بين المؤسسين "إبراهيم اليازجي"، و"فارس نمر" باشا (نصراني لبناني)، وصهره "شاهين مكاريوس"، وهؤلاء الثلاثة من كبار (الماسونيين) المعروفين.**

فالأيادي الماسونية (اليهودية) هي التي تبنت فكرة القومية العربية[1]، وهي نفس الأيادي التي كانت تحرك في الوقت ذاته القومية (الطورانية) التي يتبناها يهود الدونمة في "سالونيك"، وتعقد اجتماعاتهم في بيوت اليهود الإيطاليين.

"مدحت" باشا والي الشام [1]، وكان يُشك أنه وراء تشكيل جمعية "بيروت السرية"، فقد جاء في برقية أرسلها القنصل البريطاني في يونيو/حزيران ١٨٨٠م: **(ظهرت في بيروت منشورات تحض على الثورة يُشك في أن مدحت هو مُنشئها).**

---

[1] يقول "جورج أنطونيوس" في كتابه "يقظة العرب": يرجع أول جهد منظم في حركة العرب القومية ١٨٧٥م أي قبل ارتقاء "عبد الحميد" العرش بسنتين؛ حين ألف خمسة شبان من الذين درسوا في الكلية البروتستانتية السورية (الجامعة الأمريكية) ببيروت جمعية سرية، وكانوا جميعا من (النصارى)، ولكنهم أدركوا قيمة انضمام المسلمين والدروز إليهم، فاستطاعوا أن يضموا الى الجمعية نحو اثنين وعشرين شخصًا ينتمون إلى مختلف الطوائف الدينية، ويمثلون (الصفوة المختارة المستنيرة) في البلاد. وكانت (الماسونية) قد دخلت قبل ذلك بلاد الشام على صورتها التي عرفتها أوروبا، فاستطاع مؤسسو الجمعية السرية عن طريق أحد زملائهم أن يستميلوا إليهم (المحفل الماسوني) الذي كان قد أنشئ منذ عهد قريب ويشركوه في أعمالهم. ا.هـ

[1] ينتمي في الأصل إلى يهود الدونمة، وانضم في شبابه إلى المحافل الماسونية التي أسسها اليهود في الدولة العثمانية، ومكَّنه هذا الانضمام من أن يلتحق بالسلك السياسي وزيارة العواصم الكبرى في أوروبا. أخذت آلة الدعاية الماسونية في الداخل والخارج في الترويج لمدحت باشا ووصفه بحامل لواء الإصلاح والحرية في الدولة العثمانية، وأطلق عليه اسم "أبو الدستور". وكان على صلة مع الإنجليز ومع رئيس وزرائهم اليهودي "دزرائيلي"، حيث كان على وشك الاتفاق معه على وضع الدولة العثمانية تحت وصاية إنجلترا، وأنه عازم على إعلان الجمهورية في الدولة العثمانية على أن يكون هو أول رئيس للبلاد ثم إمبراطورًا لها، وكان إدمانه للخمر والسُكْر والعربدة من أهم أدلة إدانته؛ إذ شهد عليه الكثيرون بهذه الخطط والنوايا التي أفشاها حالة سكره. ويقال: المؤامرة على تركيا الخلافة مؤامرة على الإسلام؛ بَدؤها (مدحت)، ووسطها (الاتحاديون)، وختامها (أتاتورك). [مفكرة الإسلام]

ولكن حزم السلطان عبد الحميد، ومتابعته للجمعية ومنشوراتها جمَّد نشاطها.

وكان أهم منشورات الجمعية هو المنشور الثالث الذي صدر في ٣١ ديسمبر ١٨٨٠م وحدد مطالبهم بأربع نقاط هي: **منح سوريا مع لبنان الاستقلال – الاعتراف بالعربية لغة رسمية – رفع الرقابة عن حرية التعليم – عدم إرسال أبناء العرب للحرب مع الأتراك خارج بلادهم.**

كانت شخصية السلطان عبد الحميد فذة وفريدة، وقد ملأ مكانه وفرض حبه على القلوب؛ إذ أنه كان يعيش عيشة زاهدة دون ترف ولا ترهل، مع إقصاء كل مظاهر الترف والتحلل التي وجدها في القصر.. **ولذا لم يستطع المنصِّرون وتلاميذهم أن ينشطوا في أيامه. وقد استطاع أن (يُجَمِّد) الدعوة إلى القومية؛ خاصة وأنه رفع شعار: "يا مسلمي العالم اتحدوا".**

وجاءت فكرة الرحيل إلى القاهرة حتى تعيش الفكرة القومية في محضن الرعاية البريطانية حيث يجثم "كرومر" المعتمد البريطاني، فهاجرت العائلات النصرانية والكتَّاب النصارى إلى القاهرة؛ لتكون القاهرة منطلقًا لمحاربة "تركيا"، ولنشر الأفكار العلمانية والقومية لتحل تدريجيًّا محل الإسلام، ولتكون رابطة عربية بدل الرابطة الإسلامية.

ومن الأسماء التي هاجرت:

"إبراهيم اليازجي" ابن "ناصيف اليازجي"، وهما ماسونيان. أسس جريدة "الضياء".

"فارس نمر" وصهره **"شاهين مكاريوس"** صاحب جريدة "المقطم" اليومية، ومجلة "المقتطف" الشهرية، وهما نصرانيان ماسونيان.

"سليم تقلا" الذي أسس "الأهرام" جريدة يومية تصدر حتى يومنا هذا.

"جورجي زيدان" صاحب "دار الهلال"، وله مؤلفات كثيرة.

"أديب إسحق" مدير صحيفة "مصر"، و**"سليم نقاش"** مدير إدارة صحيفة "التجارة"، وهذان النصرانيان من الشام كانا يعملان بإرشاد "جمال الدين الأفغاني"؛ وهو الذي أسس هاتين الصحيفتين.

"روز اليوسف" جاءت من الشام نصرانية، ثم تظاهرت بالإسلام، وسمت نفسها فاطمة اليوسف، ولكنها أصدرت مجلة باسمها القديم "روز اليوسف".

"أحمد فارس الشدياق" ماروني اعتنق البروتستانتية على يد البعثة الأمريكية، ثم جاء مصر، وأصدر صحيفة "الجوائب"، ثم أسلم على يد باي تونس[١].

بالإضافة إلى نصارى الشام في القاهرة الذين تولوا توجيه الفكر في مصر كلها، فهناك في المركز الآخر في باريس بعض النصارى، ومنهم:

"نجيب عازوري" سياسي لبناني نصراني. تخرج بمعهد الدراسات العليا في باريس، وتوظف بالقدس. وجاهر بالدعوة إلى استقلال سورية وفصلها عن الدولة العثمانية، ونزح إلى مصر ومنها إلى باريس حيث ألف سنة ١٩٠٤م جمعية باسم "عصبة الوطن العربي" **لم ينتسب إليها أحد!**

ونشر سنة ١٩٠٥م كتاب "يقظة الأمة العربية" باللغة الفرنسية، وأصدر بالاشتراك مع الكتاب الفرنسيين مجلة "الاستقلال العربي"!

يقول ساطع الحصري: **"إن القومية ابتدأت بـ"نجيب عازوري" الذي يضع آماله العربية السورية في فرنسا أولا وفي انجلترا ثانيًا"..!**

وكانت أعمال نجيب عازوري تمهيدا لمؤتمر باريس سنة ١٩١٣م.

ومؤتمر باريس يعتبره كثير من كُتاب القومية العربية (أساسا) للقومية الحديثة، وكان عدد المشتركين ثلاثة وعشرين عضوا؛ نصفهم من المسيحيين، ونصفهم من أبناء المسلمين.

---

[١] "باي" تونس هو في الأصل والي ممثل الدولة العثمانية في تونس.

يقول "**أنيس الصايغ**"[١] عن المؤتمر: كان خاليا من المطالبة بـ(الاستقلال) حتى لا تُحرَج بعض **الدول الأوروبية التي كانت تشجع الحركة القومية وتمدها بالأموال.**

ثم جاء القرن العشرين، وكان من قادتهم:

زكي نجيب إبراهيم الأرسوزي (١٩٦٨-١٨٩٩)، مفكر وعربي سوري، ومن أهم مؤسسي الفكر القومي العربي. ويُعَد المؤسس الأول لحركة "البعث".

هاجر الأرسوزي إلى "دمشق" من "لواء الإسكندرونة" عقب اقتطاع فرنسا له وتسليمه إلى تركيا؛ بعد أن قاد حملة لمقاومة "التتريك" في الإقليم.

عمل "الأرسوزي" بالتدريس في المدارس الثانوية، وأخذ يعمل علي نشر أفكاره (القومية) بين طلاب المدارس الثانوية في دمشق عن طريق مجموعة الطلاب اللوائيين الذين نزحوا معه.

لاقت أفكار "الأرسوزي" ودعوته صدى وتأييدًا من المثقفين والطلاب في دمشق، وبذلك طرح نفسه كزعيم قومي استلهم (البعث) أفكاره منه. حيث تلقف "ميشيل عفلق" منه تلك الأفكار التي تبناها حزب البعث.

"ميشيل عفلق" (١٩١٠- ١٩٨٩)، مفكر (قومي) عربي، **كان له الدور الأكبر في تأسيس حزب "البعث"؛ الذي أصبح فيما بعد حزب "البعث العربي الاشتراكي".**

ولد في دمشق، وأكمل دراسته الجامعية في باريس. بعدها عاد إلى دمشق، وتنقل بينها وبين بيروت والقاهرة وبغداد. وتُوفي في مشفى في باريس.[١]

[١] أنيس صايغ (١٩٣١ – ٢٠٠٩) باحث ومفكر فلسطيني، رئيس مركز الأبحاث الفلسطيني، وكان صاحب فكرة مشروع الموسوعة الفلسطينية. حاولت إسرائيل اغتياله عام ١٩٧٢م بطرد مفخخ؛ أصيب من جرائه بضعف نظر وبتر بعض أصابعه. [الموسوعة الحرة]

[١] الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة: الندوة العالمية للشباب الإسلامي، مراجعة: د. مانع بن حماد الجهني– الأعلام: خير الدين الزركلي – القومية: د. عبد الله عزام – أعلام وأقزام في ميزان الإسلام: د. سيد العفاني (باختصار).

ولتعرفنهم في تهافت الفكر وفي لحن القول:

يرى دعاة الفكر القومي على اختلاف بينهم في ترتيب مقومات هذا الفكر أن أهم المقومات التي تقوم عليها القومية العربية هي: اللغة والدم والتاريخ والأرض والآلام والآمال المشتركة.

ويرون أن العرب أمة واحدة لها مقومات الأمة، وأنها تعيش على أرض واحدة هي الوطن العربي الواحد الذي يمتد من الخليج إلى المحيط.

ويرون أن الحدود بين أجزاء هذا الوطن هي حدود طارئة، ينبغي أن تزول، وينبغي أن تكون للعرب دولة واحدة، وحكومة واحدة، **تقوم على أساس من الفكر العلماني.**

ويدعو الفكر القومي إلى تحرير الإنسان العربي من الخرافات والغيبيات والأديان كما يزعمون. لذلك يتبنى شعار: (الدين لله والوطن للجميع).

والهدف من هذا الشعار إقصاء الإسلام عن أن يكون له أي وجود فعلي من ناحية، وجعل أخوة الوطن مقدمة على أخوة الدين من ناحية أخرى.

ومن ثَمَّ فإنهم يوالون لأجل ذلك كل عربي من يهود ونصارى ومجوس ووثنيين وملاحدة، وغيرهم.. تحت لواء (القومية العربية)، ويقولون: إن نظامها لا يفرق بين عربي وعربي؛ وإن تفرقت أديانهم.

ويرى القوميون العرب أن الإسلام (وثبة) من وثبات الأمة العربية أدت دورها ومضت. وأما اليوم فهناك مبادئ أخرى تؤدي دورها دون الإسلام الذي لا يستطيع أن يواكب العصر.

وكثير من قادتهم يرددون: نحن عرب قبل عيسى وموسى ومحمد.

وكثيرا ما يتمثل دعاة الفكر القومي بقول الشاعر "القروي"[١]:

هَبوني عيدًا يجعلُ العُرب أمـةً وسيروا بجثماني على دينِ بَرْهَمِ
بلادَكَ قدِّمها على كلِّ ملةٍ ومِن أجلِها أفطِرْ ومِن أجلِها صُمِ
سلامٌ على كفرٍ يُوحِّد بيننـا وأهـلاً وسهـلاً بعدَه بِجـهنمِ

يقول محمود تيمور[١]: **وإن كتَّاب العرب في أعناقهم أمانة هي أن يكونوا حواريين لتلك النبوة الصادقة (القومية)؛ يزكونها بأقلامهم، وينفثون فيها من أرواحهم، ويعملون على أن تكتمل لها أسباب النماء والازدهار. ا.هـ**

ويقول علي ناصر الدين[٢]: في مقدمة كتابه "قضية العرب": **العروبة نفسها (دين) عندنا نحن القوميين العرب المؤمنين العريقين من مسلمين ومسيحيين، ولئن كان لكل عصر نبوته المقدسة، إن القومية العربية لهي نبوة هذا العصر. ا.هـ**

وورد في مقال لكاتب قومي نشرته مجلة "العربي" عدد يناير ١٩٥٩م: والوحدة العربية يجب أن تنزل من قلوب العرب أينما كانوا منزل وحدة الله من قلب قوم مؤمنين.

ويقول عمر فاخوري[٣]: **لا ينهض العرب إلا إذا أصبحت العربية ـ أو المبدأ العربي ـ (دينًا) يغارون عليها كما يغار المسلم على قرآن النبي الكريم. وغرضي من هذا الكتاب تشكيل (ديانة جديدة) هي الجنسية أو العنصرية العربية.ا.هـ**

---

[١] رشيد سليم الخوري (١٨٨٧م – ١٩٨٤م)، لبناني مسيحي، من الشعراء العرب في القرن العشرين. وقد هاجر إلى "البرازيل" في عام ١٩١٣م برفقة أخيه. وتولَّى رئاسة تحرير مجلة "الرابطة" لمدة ثلاث سنوات، ثم رئاسة "العصبة الأندلسية" عام ١٩٥٨م، فكان رئيسها الثاني بعد "ميشيل معلوف"، وظل في المهجر خمسة وأربعين عامًا، ثم عاد إلى وطنه في عهد الوحدة بين سوريا ومصر عام ١٩٥٨م.

[١] محمود أحمد تيمور (١٨٩٤م–١٩٧٣م) كاتب قصصي مصري. حظي بحفاوة وتقدير الأدباء والنقاد، ونال اهتمام وتقدير المحافل الأدبية ونوادي الأدب والجامعات المختلفة في مصر والوطن العربي، كما اهتمت به جامعات أوروبا وأمريكا.

[٢] سياسي لبناني، ساهم في تأسيس عصبة العمل القومي في مؤتمر "قرنايل" بجبل لبنان سنة ١٩٣٣م.

[٣] عمر فاخوري (١٨٩٥م – ١٩٤٦م) أديب وناقد ومفكر لبناني. وكتابه "كيف ينهض العرب".

وهذا زكي الأرسوزي يرى أن **الجاهلية العربية هي الفترة الذهبية في حياة العرب ويراها مثله الأعلى.**

وفي جريدة حزب "البعث" العراقي أُطلق لفظ (الإله العائد) على "ميشيل عفلق"، وقال شاعرهم مخاطبًا "ميشيل عفلق":

يا سيدي ومعبدي وإلهي حسبي ألُمُّ فُتاتَكم.. حسبي (!!)

وهذه إذاعة (العراق) تعلن على المستمعين:

آمنتُ بـ(البعثِ) ربًّا لا شريك له وبالعروبةِ دينًا ما له ثانِ

ويقول أحد البعثيين السوريين:

إن الطريق الوحيد لتشييد حضارة العرب وبناء المجتمع العربي هي خلق الإنسان الاشتراكي العربي الجديد؛ الذي يؤمن أن الله والأديان والإقطاع ورأس المال والاستعمار والمتخمين، وكل القيم التي سادت المجتمع السابق؛ ليست إلا دُمًى محنطة في متاحف التاريخ. ا.هـ

ويصرخ القوميون على لسان قادتهم: ألحدنا بكل الطقوس والعلاقات والأديان، اتُّهِمنا بالإلحاد؛ وكان ذلك صحيحا . رغم كل ما زعم البعثيون فيما بعد من مزاعم التبرير . لقد كنا خوارج على كل الشرائع التي تعارف عليها الناس فنسفناها.ا.هـ[٢]

بعث القوميات البائدة رِدَّة جاهلية:

نشط دعاة التجزئة في أعقاب الحرب العالمية الأولى في الدعوة إلى بعث التاريخ

[٢] الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة – القومية: د. عبد الله عزام – أعلام وأقزام: د. سيد العفاني.

القديم في كل جزء من أجزاء الوطن العربي، وهو التاريخ السابق على استعرابها بدخولها في الإسلام واتخاذها لغة.

ويعترف المستشرق البريطاني "جِب" بذلك قائلا: "**وقد كان من أهم مظاهر سياسة التغريب في العالم الإسلامي تنمية الاهتمام ببعث الحضارات القديمة التي ازدهرت في البلاد المختلفة التي يشغلها المسلمون الآن. فمثل هذا الاهتمام موجود في تركيا وفي مصر وفي إندونيسيا وفي العراق وفي إيران. وقد تكون أهميته محصورة الآن في تقوية شعور العداء لأوروبا. ولكن من الممكن أن يلعب في المستقبل دورًا مهمًّا في تقوية القوميات المحلية وتدعيم مقوماتها**". ا.هـ

ففي تركيا: كانت الزلة الأولى للعثمانيين في أواخر عهد دولتهم، أن أوحى بعض المنافقين إلى بعض زخرفًا من القول، يعدُّون به رابطة الأخوة الإسلامية غير كافية لأن تكون أساسًا جامعًا لرعايا الدولة من المسلمين، فابتدعوا تقسيم الرعايا إلى (عثمانيين وأجانب).. فقبل إلغاء الخلافة بنحو ثمانين عامًا اتجه بعض السلاطين إلى تحويل الرابطة أو الجامعة الإسلامية إلى (رابطة عثمانية)؛ وذلك عن طريق ما يسمى بـ(إعلان التنظيمات العثمانية) الصادر في عام (١٢٥٥هـ-١٨٣٩م)، وهو نظام وضعي مضمونه أن يُقَسَّم المسلمون إلى: مسلمين عثمانيين، وهم رعايا ومواطنو الدولة العثمانية، ومسلمين غير عثمانيين، عدَّهم الإعلان (أجانب) !

وضَمِنَ النظام الجديد للرعايا العثمانيين كل الحقوق بغضِّ النظر عن الدين أو اللغة أو الجنس، بينما وُضع الآخرون (الأجانب) من المسلمين في خانة أدنى.. وكان هذا الإعلان بداية حقيقية للتخلي عن الرابطة الإسلامية المنبثقة عن المبدأ الإسلامي العظيم: (**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**) [الحجرات: ١٠].

كانت هذه في ذاتها (نازلة) تستدعي أن يقوم لها عقلاء الأمة وعلماؤها، ليميتوها في مهدها إحقاقًا للحق وإزهاقًا للباطل، فيعلنوا في الناس أن خلافة المسلمين لكل

المسلمين، وأن رابطة الإسلام أسمى وأعلى من كل الروابط الاسمية الأرضية العنصرية، ولكن ذلك الإجراء مضى، وتطاولت به السنون، حتى تحولت النزعة (العثمانية) إلى نزعة (طورانية)، يدَّعي أصحابها أن (الطورانيين) المنحدرين من آسيا الوسطى (قوم) متميزون، ونشأ بذلك ما سمي بـ(القومية الطورانية) كرابطة بديلة للرابطة الإسلامية، وهي التي نشأت ردًّا لها أو تأثرًا بها (القومية العربية) التي رد بها جهلة العرب على جهلة الترك، فأنشأوا بذلك نواة للروابط الباطلة التي عدَّها الإسلام نوعًا من الجاهلية، كما في قوله صلى الله عليه وسلم للمتنازعين من المهاجرين والأنصار: **"أبدعوى الجاهليةِ وأنا بينَ أظهُرِكم؟ دَعُوها فإنها مُنتِنةٌ"**.[١]

تلك الرابطة البديلة عن عُروة الإسلام، ظل معمولاً بها، حتى جاء السلطان عبد الحميد الثاني (١٩٠٩-١٨٧٦م) فغير تلك السياسة، وقدَّم نفسه للعالم على أنه خليفة لكل المسلمين، وبدلاً من أن يُسانَد هذا التوجه المحمود من علماء الأمة وعقلائها، إذا بهؤلاء يختلفون حول هذا الأمر؛ فبينما أيده على ذلك وسانده كل من الشيخ "جمال الدين الأفغاني" والشيخ "محمد عبده من خلال جمعية (العروة الوثقى) التي شكلاها لتكون أداة إعلامية لهذا التوجه، إذا بآخرين من أمثال "عبد الرحمن الكواكبي" يأخذون توجهًا آخر، فينادون بـ (جامعة عربية) وخلافة عربية!!

وفي مقابل المناداة بجامعة إسلامية عربية في ذلك الوقت الحرج، استفحل الشعور القومي الجاهلي لدى فريق من الأتراك، فنادوا بجامعة طورانية، تجمع الأمة الطورانية الممتدة من "فنلندا" إلى "منشوريا"[٢] في دولة واحدة.

---

[١] وكان ذلك عندما ضرب رجل من المهاجرين آخر من الأنصار، فكاد الشيطان أن يوقع الفتنة بين الفريقين، فتداعى قوم بالنصرة من الأنصار فقالوا: (يا للأنصار!) وقال آخرون: (يا للمهاجرين!)، فقال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم قوله الآنف. والحديث رواه البخاري ومسلم.

[٢] اسم تاريخي يطلق على منطقة جغرافية واسعة في شمال شرق آسيا.

ومنذ ذلك الحين والصراعات القومية تمزق أوصال المسلمين بعد أن نشأت بعد ذلك النعرات القومية الأخرى كالقومية الفارسية والكردية والبربرية والهندية والبَشتونية والطاجيكية وغيرها.. وهي النعرات التي لعب عليها العلمانيون اللادينيون؛ عربًا كانوا أو عجمًا، فأقاموا حول كل قومية طاقمًا من الأصنام النظرية والعملية التي تقدم لها القرابين المادية والمعنوية؛ فتخاض لأجلها الحروب، وتُشكَّل لها الأحزاب، بل وتقوم عليها الدول.

أما في تركيا نفسها، فقد تشكل فريق (القومية الطورانية) لمهمة الإجهاز النهائي على الرابطة الإسلامية، ومِن ثَمَّ الخلافة الإسلامية، وكانت جمعية (الاتحاد والترقي)[1] أداتهم في ذلك، وكانت أولى إنجازاتهم السوداء أن انقلبوا على السلطان "عبد الحميد" الذي أراد إعادة الاعتبار للجامعة الإسلامية؛ وذلك في عام ١٩٠٨م، عندما قاموا بانقلاب دستوري ضده يقيد سلطاته، فلما قام أعوانه بمحاولة لتصحيح الأوضاع أطاح به الكماليون.

ومن تلك اللحظة تحولت دولة الخلافة من دولة إسلامية عثمانية إلى دولة طورانية تركية؛ حيث سيطر (الطورانيون) على كل أجهزة الدولة عسكريًّا وإداريًّا، وسياسيًّا من خلال جمعية (الاتحاد والترقي)، وانطلق هؤلاء إلى تطبيق سياسة (التتريك) لكل مظاهر الدولة، تمهيدًا للانتقال من منزلة (القومية) الطورانية التركية الإقليمية، إلى ما هو أنزل منها وأدنى وهو (الوطنية) التركية المحلية، وكانت تلك

[1] كتب اللورد "ستون" صاحب كتاب (نشوء القومية في تركيا): "العلامة البارزة في جمعية الاتحاد والترقي أنها غير تركية وغير إسلامية"، وقال: "إن أصحاب العقول المحركة ورواد تلك الحركة كانوا يهودًا، أو مسلمين من أصل يهودي، ومواردهم المالية كانت تأتيهم عن طريق (الدونمة) ويهود سالونيكا الأثرياء، كما كانت تأتيهم المعونات من بعض الجمعيات الدولية أو الشبيهة بالدولية من فيينا وبودابست وبرلين، وربما من باريس ولندن أيضًا". [من مقال العلمانية "إمبراطورية النفاق" من مهد لها الطريق: د. عبد العزيز كامل/مجلة البيان (١٩٥/ ٣٤)]

هي الخطوة التالية من خطوات الشيطان التي خطاها نيابة عن إبليس صاحب الأصل اليهودي البئيس (مصطفى كمال أتاتورك).

وقد أسعد بسياساته تلك أولياءه من أعداء الله، حتى كتب السفير البريطاني في تركيا مذكرة إلى وزير خارجية بريطانيا في (١٩١٠/٦/٢٨م): **"الآن، قد أخذ الكثيرون يعلنون أن رابطة الإسلام انفصمت، وأن القضية أمست قضية تُرك وعرب".**

وفي مصر: أثيرت الحضارة "الفرعونية"؛ خاصة بعد اكتشاف "توت عنخ آمون". وتولى "سلامة موسى" و"لطفي السيد"، ثم "سعد زغلول" و"طه حسين" الدعوة إلى (الفرعونية)، وبدأت تظهر أسماء (رمسيس)، (الأهرام)، (نفرتيتي)، (أبو الهول). واتُّخِذ "أبو الهول" شعارًا ليمثل (نهضة مصر).

وفي عهد "جمال عبد الناصر" أقيم السد العالي؛ فأثارت "اليونسكو" همة العالم لإنقاذ (معبد أبي سنبل الفرعوني)، ونُقل تمثال رمسيس ـ فرعون موسى ـ إلى القاهرة، وكُلف الملايين. وأصبح الأتراك ينادون بشعار: (تركيا للأتراك) و(مصر للمصريين) !!

وفي مصر العربية كانت أضواء هذه الصيحات تتجاوب؛ فتحرك الببغاوات المصرية التي تلعب بها الأصابع الغربية (البريطانية بالذات) فتنادي (بفرعونية مصر)!

يقول "طه حسين": **المصري (فرعوني) قبل أن يكون عربيًّا.** وقال أيضا: **لو وقف الإسلام بيني وبين فرعونيتي لنبذت إسلامي.**

وعليه فإن اهتمام الغرب الكبير آنذاك بالآثار والمتاحف الوطنية ليس بمستغرَب.. فقد تأسست (هيئات غربية) للإشراف على التنقيب في العالم الإسلامي؛ لربط المسلمين بالآثار وبالقيم والأعلام التي كانوا ينتمون إليها قبل الإسلام. وليس عجيبًا أن تتبرع مؤسسة (روكفلر اليهودية) بعشرة ملايين دولار لإنشاء متحف للآثار الفرعونية، وملحق به معهد لتخريج متخصصين في هذا الفن (الآثار).

كل هذا لقطع صلة المسلمين بإسلامهم، وربطهم بالجاهلية الأولى؛

حتى يتسنى للغرب أن يقضي على هُويتهم؛ سر تميزهم الحضاري.

وفي لبنان وسوريا: أثار "سعيد عقل" شبح (الفنيقية).. التي تردد صداها من خلال مدرسة الحزب القومي السوري الأدبية، وهي منطلق العمل الشعوبي، وأساس البناء التغريبي في هذه المرحلة، فهي تحمل لواء الإقليمية والفينيقية، والوجودية وكل شتات الدعوات الوافدة لتزييف أصالة الأدب العربي.

وفي العراق: ثارت النعرات؛ فنادى بعضهم بـ(القومية العربية)، ونادى الأكراد بقوميتهم (الكردية)، والأتراك بـ(التركية)، وثارت الدعوات (الأشورية) و(الكلدانية).

وفي الأردن وفلسطين: ارتفعت الأصوات بالتغني بالأمجاد القبلية القديمة، وقامت النزاعات بين قبائل الشمال والجنوب في شرق الأردن، وبين الفلسطينيين وبين أبناء شرق الأردن.

وفي الهند: تأججت نار العصبية الهندية، وأصبح الهنود يفخرون بـ(الهندية)، ويرون الانقطاع عن ماء زمزم في مكة إلى نهر (جنجا)! ويتغنون بأبطال الهندوس: (بهيم أرجن، رام ها). وأصبحوا ينظرون إلى الفتح العربي على أنه (استعمار) و(استعباد) و(احتلال) الغريب لأرض الوطن.

وفي إيران: قام الصفويون والحكم البهلوي بتوهين العلاقة مع العالم الإسلامي؛ فأنشأ الحكم البهلوي أكاديمية للتخلص من المفردات العربية في الفارسية، واكتشفت الأكاديمية (مجد إيران القديمة)، وبزغ مذهب "زرداشت" من جديد، واحتل مكانًا مرموقًا، وبدأت العمارات الجديدة تبنى على الطراز الأخميني القديم، وأقام الشاه "محمد رضا بهلوي" احتفالا بمناسبة مرور اثنين وخمسين قرنا على "كورش" صانع الإمبراطورية الفارسية. وثارت في إيران قوميات أخرى، مثل: (البلوش)، و(الأكراد)،

و(العرب).

وفي إندونيسيا: اكتشفت الحضارة الجاوية الهندوكية. [١]

وخلاصة القول:

القومية حركة سياسية فكرية متعصبة، تدعو إلى تمجيد العرب، وإقامة دولة موحدة لهم؛ على أساس من رابطة الدم واللغة والتاريخ، وإحلالها محل رابطة الدين. وهي صدى للفكر القومي الذي سبق أن ظهر في أوروبا.

وحيث إن أساسها إبعاد الدين الإسلامي عن معترك حياة العرب السياسية والاجتماعية والتربوية والتشريعية؛ فإنها تُعَدُّ (رِدة إلى الجاهلية)، وضربًا من ضروب (الغزو الفكري) الذي أصاب العالم الإسلامي، لأنها في حقيقتها صدى للدعوات القومية التي ظهرت في أوروبا.

وينبغي ألا ننسى أن (القومية) قد اقترنت في التاريخ الإسلامي الحديث بـ(العمالة) للاستعمار، كما اقترنت بـ(العداء) للإسلام.

يقول المستشرق البريطاني جِب: إن الأسلوب الذي استطاعت به طبقة (المتغربين) تأمين قبضتها الثابتة على السلطة في الدولة كان (القومية)، فالقومية هي فكرة (غربية تمامًا).

وتعتبر وقفة العرب بجانب (الحلفاء) ضد تركيا المسلمة نقطة تحول كبرى في الفكر القومي والتجمع على أساس القومية. إذ لم يكن البريطانيون يحلمون في يوم من الأيام أن يقف العرب بجانبهم ككفار ضد بني دينهم وعقيدتهم.

---

[١] الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة – القومية: د. عبد الله عزام رحمه – حقيقة القومية العربية: فضيلة الشيخ/ محمد الغزالي رحمه الله – العلمانية "إمبراطورية النفاق" من مهد لها الطريق: د. عبد العزيز كامل/مجلة البيان (١٩٥/ ٣٤)

يقول "لورنس"[١]:

وأخذت أفكر طيلة الطريق إلى سوريا، وأتساءل: هل تتغلب القومية ذات يوم على النزعة الدينية؟ وهل يغلب الاعتقاد الوطني المعتقدات الدينية؟ وبمعنى أوضح: هل تحل المثل العليا السياسية مكان الوحي والإلهام، وتستبدل سوريا مثلها الأعلى الديني بمثلها الأعلى الوطني؟ ا.هـ

وكتبت مجلة "الإيكونومست" في يونيو (حزيران) سنة ١٩٦٢م تحت عنوان: "الإسلام ضد القومية": لقد وضع العرب منذ الحرب العالمية الأولى القومية في المكان الأول حين قاتلوا بجانب الإنجليز الكفار؛ من أجل التحرر من المسلمين الأتراك. وباستثناء البقية الهزيلة من الإخوان المسلمين؛ فليس هناك في العالم العربي اليوم أناس ذوو تفكير سياسي يضعون مجتمع الدول الإسلامية فوق قوميتهم العربية.

والذين يذهبون مذهب القومية في الحياة السياسية من العرب يُسقطون الدين من حسابهم كثيرًا أو قليلاً. وبعض القوميين لا يرون في الدين مقومًا من مقومات الحياة السياسية، بينما بعضهم الآخر يخاصمون الدين مخاصمة شديدة. والمقصود بالدين هنا

---

[١] توماس إدوارد لورنس (١٨٨٨م–١٩٣٥م) ضابط بريطاني اشتهر بدوره في مساعدة القوات العربية خلال الثورة العربية عام ١٩١٦م ضد الدولة العثمانية عن طريق انخراطه في حياة العرب الثوار، وعُرف وقتها بـ"لورنس العرب"، وكتب "لورنس" سيرته الذاتية في كتاب حمل اسم "أعمدة الحكمة السبعة". توفي عن ستة وأربعين عاما بعد سقوطه من دراجته النارية التي كان يقودها بسرعة كبيرة في محيط مدينة "اكسفورد" وهو عائد إلى البيت من مكتب البريد بحادث؛ قيل: إنه كان مفتعلا.
وقد كشف في كتابه عن حقد وكراهية للعرب والمسلمين ولتاريخهم، وحاول التقليل من شأنهم ورميهم بالجهل والتخلف. فضلاً عن مغالطاته المتعددة وأخطائه التاريخية. وآية خداع "لورنس" وتآمره على العرب ما سجله "وايزمان" (أول رئيس للكيان الصهيوني ١٩٤٩م) في كتابه "التجربة والخطأ" قوله: وأود أن أعلن في هذا المجال تقديري للخدمات الجليلة التي أسداها لقضيتنا الكولونيل "لورنس"، لقد اجتمعت به في مصر وفلسطين، وقابلته فيما بعد مقابلات عدة، إن علاقته بالصهيونية علاقة إيجابية على الرغم من تظاهره بالميل للعرب. وقد ظل اسم "لورنس" يدوي مصورًا تلك المغامرة السحرية الجريئة التي قام بها، والعمل البطولي الذي وُصف من أجله بأنه (سلطان الصحراء العربية)، و(ملك العرب غير المتوج) حتى توفي في ١٩ مايو ١٩٣٥م. [الموسوعة العربية– أعلام وأقزام في ميزان الإسلام]

(الإسلام). وحجة هؤلاء القوميين أن البلاد العربية تضم مذاهب وأديانًا مختلفة، ففيها مسلمون ونصارى ويهود.

وكثير من الشباب العربي ومن المفكرين العرب يحملون هذا الفكر، كما توجد عدة أحزاب قومية منتشرة في البلاد العربية، مثل حركة الوحدة الشعبية في تونس، وحزب البعث بشقيه في العراق وسوريا، وبقايا الناصريين في مصر وبلاد الشام وليبيا.

وكثير من (الحكام) يتبارون في ادعاء القومية، وكل منهم يفتخر بأنه رائد القومية العربية ويدعي أنه الأجدر بزعامتها!

وحكم الإسلام في (القومية) يقرره سماحة الشيخ "ابن باز" بقوله: دعوة جاهلية إلحادية؛ تهدف إلى محاربة الإسلام والتخلص من أحكامه وتعاليمه. وقد أحدثها الغربيون من النصارى لمحاربة الإسلام والقضاء عليه في داره بزخرف من القول. فاعتنقها كثير من العرب من أعداء الإسلام، واغتر بها كثير مِن الأغمار ومَن قلَّدهم من الجهال، وفرح بذلك أرباب الإلحاد وخصوم الإسلام في كل مكان. فهي دعوة باطلة، وخطأ عظيم، ومكر ظاهر، وجاهلية نكراء، وكيد سافر للإسلام وأهله.[1]

فيا عباد الله..

لحساب مَن هذا الإلحاح الملحوظ من بعض الناس في إبعاد الإسلام عن العروبة؟ أو بعبارة صريحة: في دفع العرب المسلمين إلى الجاهلية الأولى، أو إلى جاهلية حديثة، فيها قشور من العلم المجلوب، وفيها ركام بعد ركام من الأهواء والخبائث؟

بديهي أن ذلك لحساب الجهات التي تكره الإسلام قديمًا وحديثًا، الجهات التي قال الله فيها: **(وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا)** [البقرة: ٢١٧]

---

[1] الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة: الندوة العالمية للشباب الإسلامي، مراجعة: د. مانع بن حماد الجهني – التبشير والاستعمار في البلاد العربية: د. مصطفى خالدي و د. عمر فروخ – أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي: د.علي جريشة – القومية: د. عبد الله عزام – الغزو الفكري: د. علي عبد الحليم.

غاية ما هنالك أن هؤلاء القوميين يصيحون:

لا تقتلونا، نحن سنقتل أنفسنا، لا تحاربوا الإسلام، نحن سنحاربه.

إن القومية العربية بهذا المفهوم الكفور لا وجود لها إلا في أذهان بعض المارقين الآثمين. وهي بهذا المفهوم خدعة صليبية لخَتْل [٢] الجماهير عن دينها الحبيب.

نعم، هي بهذا المفهوم (عُملة) زيفتها أوروبا الحاقدة على الإسلام، وروجتها بين قصار النظر أو ضعاف اليقين؛ لتجعل منها بديلاً تلتف حوله الجماهير، بدل أن يلتفوا حول (إسلامهم)، ويتعلقوا بأهدابه.[٣]

لكنني رَغْمَ الكآبةِ والأسى ... سأظلُّ أرْقُبُ ثورةَ البُركانِ

يومَ انتصارِ المسلمين لحقِّهم ... ونهوضِهم في قـوةٍ وتفانِ

يومًا تعودُ بهِ الحياةُ لرُشدِها ... وتَسودُ فيه شريعةُ الرحمنِ

(٣) اغتيال اللغة العربية

لسان الوحي:

من آلاء الله على العرب أن جعل اللغة العربية لسان الوحي، وترجمان الهُدى الباقي على الزمان.

ونشأ على صيانة اللغة وإضفاء القداسة عليها أن احتفظت بكلماتها وقواعدها ونماذجها العليا من زمن لا يُؤثَر مثله للغة أخرى. فلو أن عربيًّا مات من ألف وأربعمائة سنة؛ قُيض له أن يعود اليوم حيًّا، لوجد لغة القرآن هي هي، ولوجد أداءها الموسيقي لم يتغير قليلاً ولا كثيرًا، ولوجد اللغة العربية التي ألف لفظها وجَرْسها على

---

[٢] خَتْل: خداع عن غفلة.

[٣] حقيقة القومية العربية وأسطورة البعث العربي: فضيلة الشيخ/ محمد الغزالي رحمه الله.

النحو الذي ألف، لا يغض من ذلك أن اللهجات واللحون تنتشر بين الرعاع وأشباههم من صرعى الثقافة الفرنجية. وتلك حال لا تُعرف للغة أخرى كالإنجليزية والفرنسية وغيرهما.

فاللغة العربية تملك من (المرونة) مالا تملكه لغة حية أخرى؛ فالألماني المعاصر مثلا لا يستطيع فهم كلمة واحدة من اللهجة التي كان يتحدث بها أجداده من ألف عام، بينما العرب المحدَثون يستطيعون فهم لغتهم التي كُتبت في الجاهلية قبل الإسلام.

وللعربية ميزة أخرى.. إنها موعودة بالخلود من رب العالمين، فهناك لغات بائدة أو شبه بائدة، ولغات دخلت في أطوار تقطعها عن أصولها الأولى. أما **اللغة العربية فسوف تبقى بنحوها وصَرفها وخَطها وبيانها وبديعها ومعانيها ما بقي في الحياة إيمان، وما بقيت للإيمان أتباع وألسنة.**

وكانت اللغة العربية التي نتكلمها الآن شائعة في وسط الجزيرة العربية وشمالها خلال القرون السابقة لبزوغ الإسلام. أما اليمن وجِوارها فكانت لأهلها لغة مخالفة، وشاءت الأقدار أن تضطرب الأحوال السياسية في الجنوب العربي، وأن تضمحل قواه الخاصة، فواتت اللغةَ العربيةَ ظروفٌ حسنة جعلتها لغة سكان الجزيرة جميعًا، ولعل ذلك كان إعدادًا للرسالة التي انشقت عنها الغيوب، وتضافر على إبلاغها أهل الجنوب والشمال على السواء.

وبظهور الإسلام واندماج العروبة فيه شرعت اللغة العربية تأخذ مكانتها العظمى من لسان محلي لقوم محدودين إلى لغة عالمية تجتاز التخوم وتطوف بالمعمور من أرض الله.

وهي الآن اللغة السائدة في وطن يستوعب أخطر بقاع الأرض، واللغة المقدسة لخُمس سكان العالم تقريبًا .

واللغة وعاء الثقافة، والثقافة أساس الحضارة، والحضارة ترجمة للهُوية؛ ومن هنا كانت اللغة من أهم الأركان التي تعتمد عليها الحضارات، ومن أهم العوامل التي تساهم في تشكيل هُوية الأمة، وكلما كانت اللغة أكثر اتصالاً بثقافة الشعوب كانت أقدر على تشكيل هُوية الأمة وحملها.

وبهذا ندرك السر في نهي الشريعة الإسلامية عن استعمال لغة الغير (الرطانة) دونما حاجة، في الوقت نفسه الذي نجد فيه بعض الفقهاء أوجب تعلم اللغة العربية. والشعور بهذا الخطر الذي تمثله اللغة الوافدة لم يكن وليد ظروف معينة حملت الفقهاء على هذا الرأي، لكنه حقيقة مرتبطة بطبيعة النفس البشرية التي تميل إلى المشابه والمماثل، والتي تقترب من الكائن الآخر إذا أمكن التواصل معه، وتبادل مكنونات النفس معه.

ولهذا فلا نعجب حينما نرى أن بعض المفكرين اللغويين في بعض البلاد التي تعتبر نفسها أمة عريقة، يرون أن الغزو اللغوي لا يقل خطورة عن الغزو العسكري.

ورقي لغة من اللغات عنوان رقي الأمة الناطقة بها، كما أن انحطاط لغة من اللغات عنوان انحطاط الأمة الناطقة بها، والثروة العلمية والثقافية والأدبية والفنية التي تقدمها لغة من اللغات؛ متمثلة فيما أنتجه العلماء والمثقفون والأدباء الناطقون بها، أعظم مجد يتمتع به تاريخها الذي يكسو الأمة صاحبة هذه اللغة بحلل من المجد العلمي والحضاري.

ولدى البحث المقارن في تاريخ اللغات العالمية نلاحظ أن للعربية الفصحى أكبر نصيب عرفته لغة واسعة الانتشار في العالم؛ منذ فجر التاريخ حتى عصر النهضة الأوروبية الحديثة. تشهد بذلك هذه الكنوز العلمية والثقافية والحضارية الدينية والمدنية؛ المنبثة في المكتبة الإسلامية العربية؛ الجامعة لعشرات الألوف من المؤلفات الضخمة النافعة، في شتى العلوم ومختلف الفنون والآداب، والتي يقع في منزلة الرأس

منها كتاب الله المنزل، ثم من دونه كلام الرسول العربي محمد صلوات الله عليه، ثم تأتي ذخائر الكتب النفيسة التي تستطيع أن تتوج الأمة الإسلامية والعربية بتاج المجد العظيم بين أمم الأرض.

يقول الجاحظ: **والبديع مقصور على العرب، ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة.**

ولابن فارس (٣٩٥هـ) كلامٌ مستفيض في فضل العربية في كتابه "الصاحبي في فقه اللغة العربية وسنن العرب في كلامها"، يتجه فيه إلى تفضيل العربية على غيرها لنزول القرآن بها. ويقرر أنَّ العربية (توقيفٌ) من عند ربِّ العالمين، وأنها لغةٌ مَصونةٌ مَرعيَّةٌ برعاية الله، وهي أعلى لغةٍ؛ لنزول أعلى كتابٍ بها وأعظم دين. كما عقد بابًا لبيان أنّ (لغة العرب أفضل اللُّغات وأوسعها)، صدَّره بقوله تعالى: **(وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ)** [الشعراء: ١٩٢ – ١٩٥] فوصفه جلَّ ثناؤه بأبلغ ما يوصَفُ به الكلام؛ وهو البيان.

ومع الحزن الذي يقرّح الفؤاد نجد أن هذه الأمة قد وصلت إلى مرحلة تاريخية رمت فيها هذا التاج العظيم عن رأسها، وذلك بأسباب شتى؛ بعضها قد كان من إهمالها وتقصيرها، وبعضها قد كان من الغزو المركز المحكم الذي تداهمها به جيوش أعداء الإسلام، المسلحة بالأسلحة الحديثة المشحونة بدهاء ومكر شديدين.

لقد أدرك أعداء الإسلام أن الشعوب الإسلامية ما دامت على صلة وثيقة باللغة العربية، فإنها ستظل مرتبطة بالإسلام وبالقرآن، وستظل متمسكة بفكرة الوحدة الإسلامية الكبرى.

فالمكانة التي اقتعدتها اللغة العربية جعلت أعداء الإسلام يتصلبون في مقاتلتها ويحاولون بالجهر أو بالغيلة أن يأتوا عليها. وقد أقنعوا اليهود العرب أن يستحيوا العبرية القديمة، وأن يجردوها من أكفانها لتكون لغة معاصرة. كما أقنعوا فريقًا من النصارى أن يُؤثِر الفرنسية على العربية.

وإننا ـ بعدما بلوناه من دسائس ـ نؤكد للمتعلمين الجدد هذه الحقيقة المهمة:

*** إن الخطأ في اللغة العربية نقص في المنزلة وخدش في المقدرة.**

*** وإن الإصرار على هذا الخطأ معصية لله وإيهان لعرى الإسلام.**

*** وإن إشاعة الإفك حول قيمة اللغة، أو الحط من مثلها العليا في البلاغة، أو ترجيح النزعات الفرنجية عليها.. (سيئات) يقترفها أناس (غاشون) لهذه الأمة ومبتغون لها سوء العقبى.**

إن الوحدة اللغوية والأدبية أظلت وطننا العريض أعصرًا طويلة، وكانت طابعًا لهذا الامتزاج الرائع في أسلوب التعبير، ونسق الأداء والتلقي. فكيف نسمح لبعض الهازلين أن يشغبوا على هذه الوحدة، بإثارة اللغط حول هذه اللغة الكريمة، أو إثارة الريبة في مواريثها الأدبية؟ [١]

تقليص ظل الفصحى:

شرع أعداء الإسلام يوجهون مختلف القوى، ويتابعون ألوان الجهود، ويتخذون شتى الوسائل الممكنة لهم، لصد الشعوب الإسلامية عن اللغة العربية، وصرف الشعوب العربية عن اللغة العربية الفصحى، وتغذية اللهجات الإقليمية المحلية، وتشجيع أبناء الشعوب الإسلامية على أن تكون لغاتها المحلية ولهجاتها الإقليمية العامية البعيدة كل البعد عن اللغة العربية الفصحى هي اللغات المستعملة في كتاباتها المتنوعة؛ في العلوم والفنون والآداب والمعاملات وسائر ما يحتاج فيه إلى الكتابة والتسجيل، وتشجيعها أيضًا على هجر رسم الكتابة العربية، ووضع الحروف اللاتينية موضعها، أو إحداث رسم جديد بعيد عن الرسم العربي، الذي يضم نفائس الثروات

[١] حقيقة القومية العربية وأسطورة البعث العربي: فضيلة الشيخ/ محمد الغزالي رحمه الله – أجنحة المكر الثلاثة: عبد الرحمن حبنَّكة – العولمة اللغوية: مقال بقلم هيثم الحداد/ مجلة البيان (١٧٠/ ٥٩) – خصائص العربية بين القديم والحديث: د. مصطفى أحمد عبد العليم – الفصحى لغة القرآن: أنور الجندي.

العربية الإسلامية في شكله المختصر الجميل، وإن كان فيه بعض الصعوبة التي لم تكن في يوم من الأيام عائقًا عن الانطلاق في ميادين المعرفة، على أن هذه الصعوبة أقل من الصعوبات التي يعانيها مثلاً متعلم اللغة الإنجليزية ذات الرسم الحفظي، الذي لا تطابق فيه بين الرسم والنطق في كثير من مفرداتها.

ولكن الخطة المدبرة تهدف إلى محاربة الإسلام عن طريق تقليص ظل اللغة العربية الفصحى عن المسلمين.

ومنذ دخلت القوات الاستعمارية عددًا كبيرًا من البلاد الإسلامية، والدوائر الاستعمارية على اختلاف اتجاهاتها السياسية، وتباين مصالحها؛ ما فتئت تعمل على محاربة اللغة العربية الفصحى بمختلف الوسائل؛ بغية إبعاد شعوب هذه البلاد عن مصادر الشريعة الإسلامية، وفي مقدمتها القرآن الكريم والسنة المطهرة، ثم كتب التفسير والفقه، ومِن ورائها سائر كتب العلوم الإسلامية والعربية، وذلك في خطتها لمحاربة الإسلام وهدم وحدة المسلمين.

ومن الوسائل التي اتخذوها لمحاربة العربية الفصحى محاولة صهر الشعوب الإسلامية المغلوبة بالشعوب الغالبة، وذلك بفرض لغة (الغازين) على أفراد الشعب المغلوب، وقد أخذ فرض لغة الغازين عدة أشكال وصور..

١- جعل التعليم بلغة الشعب الغالب المستعمر إجباريًّا في مختلف مراحل التعليم، ولجميع المواد التعليمية.

٢- إهمال اللغة العربية التي هي اللغة الأساسية للبلاد إهمالاً كليًّا أو شبيهًا به، أو جعلها في المراحل الأولى للخطة لغة ثانية لا لغة أولى، ثم التخفيف من شأنها شيئًا فشيئًا، حتى تصل إلى مرحلة الإهمال الكلي.

٣- التنفير من اللغة العربية، بإثارة عبارات الاستهزاء منها، ومن قواعدها، والاستهانة بها، مع الترغيب بلغة المستعمرين، عن طريق تزيينها في النفوس، وتوجيه الدعايات

المختلفة لعلومها وفنونها وآدابها، وربط المنافع الاقتصادية والعلمية والسياسية والصلات العالمية بها.

٤- جعل لغة المستعمرين هي اللغة الرسمية لدوائر الدولة المغلوبة ولدواوينها، وكذلك يفعل اليهود في إسرائيل.

٥- حصر الوظائف والأعمال بالذين يتقنون لغة المستعمرين، وتتبع دولة إسرائيل هذه الخطة مع الشعب العربي في فلسطين.

إلى غير ذلك من وسائل أخرى تستخدمها الدوائر الاستعمارية، لصهر ما يريدون صهره من الشعوب بهم صهرًا كليًّا، حتى يفقدوا بذلك كل كيانهم الأصلي الشامل لكيانهم الديني واللغوي والتاريخي.

وعلى سبيل المثال:

عندما سقطت غرناطة سنة ٨٩٧هـ، وسقطت معها دولة الإسلام في الأندلس؛ سقط مسلمو الأندلس في دوامة لا تنتهي من العذاب والنكال وطمس الهُوية، والفتنة في الدين، والإجبار على الكفر والردة.. فبعد استيلاء الصليبيين الأسبان على غرناطة (ألزموا) المسلمين هناك بضرورة التنصر، أو الرحيل وترك الديار والأموال وحتى الأولاد دون الثانية عشرة وراءهم؛ فاضطر كثير من المسلمين إلى البقاء في الأندلس مع (التظاهر) بالنصرانية، وأُطلق على هذه الطائفة اسم "الموريسكيين".

ولكن.. ظلت هذه الفئة الجديدة في المجتمع الأسباني الخالص النصرانية موضع شك وريبة من قساوسة الكنيسة الأسبانية؛ الذين كانوا يشعرون بأن "الموريسكيين" مازالوا في داخلهم مسلمين، لذلك أنشأ الكاردينال "خمنيس"[١] أشد الناس عداوة

---

[١] **Francisco Jiménez de Cisneros شخصية كبيرة ومؤثرة في تاريخ أسبانيا؛ حيث كان أمين سر الملكة إيزابيلا، وكبير المفتشين بمحاكم التفتيش للمسلمين. قاد حملة صليبية لنشر المسيحية في "وهران" بالجزائر، وقد تطابق فيها تعصبه الديني مع سعي فرديناند للربح المادي والسياسي. [الموسوعة الحرة–المعرفة]**

للإسلام والمسلمين مجلس التفتيش أو التحقيق للتأكد من صحة تنصر هؤلاء المسلمين، وهذا الديوان كان أشبه ما يكون بجهنم، وقد سيق إليه المسلمون بالآلاف حيث صنوف العذاب ما يعجز عن وصفه القلم؛ وذلك كله باسم حماية العقيدة الكاثوليكية التي فشل القساوسة والرهبان الأسبان في إقناع المسلمين بها.

وظل الخط البياني لاضطهاد الموريسكيين في تذبذب حتى وصل لذروة سنامه أيام الإمبراطور "فيليب الثاني" حفيد "فرناندو" و"إيزابيلا" فاتحي غرناطة، وكان "فيليب الثاني" مثل جدته "إيزابيلا" يضطرم بروح صليبية خالصة العداء للمسلمين، واقفًا تحت تأثير الأحبار والرهبان؛ لذلك اشتد هذا الإمبراطور الصليبي في مطاردة الموريسكيين، وفرض المراسيم والغرامات الفادحة عليهم.

كان الموريسكيون رغم تنصرهم الظاهري إلا أنهم قد حافظوا على ارتداء الثياب العربية، وكانوا يتحدثون بالعربية كوشيجة أخيرة للإسلام في قلوبهم، وكان الأسبان يرون في ذلك دليلاً على بقاء الموريسكيين على الإسلام، وعدم تمكن النصرانية من التغلغل في قلوبهم؛ فأصدر "فيليب الثاني" قرارًا تم نشره يوم ١١ جمادى الآخرة ٩٧٤هـ الموافق الأول من يناير سنة ١٥٦٧م[١]

يَفرض القرار على الموريسكيين (تحريم) استعمال اللغة العربية وارتداء الملابس العربية، ويحظر (الحجاب) على النساء، ويفرض عليهن أن يكشفن وجوههن، ويُحَرِّم استخدام أي شيء من العادات العربية؛ حتى (الحمامات) العربية تُهدم فورًا، وبالجملة كان هذا الفرمان الصليبي الهمجي لتسديد (الضربة القاتلة) لبقايا الأمة الإسلامية الأندلسية، و(طمس هُويتها بالكامل).

[١] وهو يوم سقوط غرناطة، والذي اعتُبر عيد أسبانيا القومي.

وقد أدى هذا الفرمان لاشتعال ثورة كبيرة بالأندلس قام بها الموريسكيون؛ كانت من أكبر وأعنف ما قام به الموريسكيون، وأيضًا كانت الأخيرة.

وقد أمر الكاردينال "خمنيس" بجمع كل ما يُستطاع جمعه من الكتب العربية من أهالي غرناطة وأرباضها، ونُظمت أكداسًا هائلة في ميدان باب الرملة أعظم ساحات المدينة، ومنها كثير من المصاحف البديعة الزخرف، وآلاف من كتب الآداب والعلوم؛ أُضرمت النار فيها جميعا، ولم يستثن منها سوى ثلاثمائة من كتب الطب والعلوم، حُملت إلى الجامعة التي أنشأها في مدينة "ألكالا دى هنارس".

وذهبت ضحية هذا الإجرام الهمجي عشرات الألوف من الكتب العربية، هي خلاصة ما بقي من تراث الفكر الإسلامي في الأندلس.

وليس المؤلفون العرب والمسلمون وحدهم الذين يصفون عمل "خمنيس" بالبربرية والهمجية، بل قالها ويقولها المنصفون من الغربيين، فمثلاً يشير المستشرق الإيطالي الأب "سكيابرللي" (Schiaparelli) في مقدمة إحدى كتبه إلى: **التعصب الكاثوليكي، وثورات "خمنيس" البربرية، التي ترتب عليها حرق المصاحف والكتب الإسلامية الأخرى لمسلمي غرناطة، وذلك لكي يتوسل إلى تنصيرهم**.ا.هـ

ويشير المؤرخ الأمريكي "وليم برسكوت" إلى ما ترتب على هذا العمل بقوله:

لقد غدت الآداب العربية نادرة في مكتبات نفس البلد الذي نشأت فيه، وإن الدراسات العربية التي كانت من قبل زاهرة في أسبانيا، حتى في العصور الأقل لمعانا قد انهارت.

على أن هذا العمل الذي يثير النقد الغربي الحديث وزرايته؛ يجد مع ذلك بين العلماء الأسبان مَن يُسوِّغه بل يمجِّده. وقد تولى المستشرق "سيمونيت" الدفاع عن الكاردينال "خمنيس"؛ الذي يصفه بأنه أحد أمجاد الكنيسة الأسبانية، في رسالة عنوانها: **"الكاردينال خمنيس دى سيسنيرس والمخطوطات العربية الغرناطية"**، يقول

فيها: **إن ما قام به الكاردينال من حرق الكتب أمر لا غبار عليه؛ إذ هو إعدام للشيء الضار، وهو بالعكس أمر محمود، كما يعدم عناصر العدوى وقت الوباء، وإن الملكين الكاثوليكيين قد أمرا بعد تنصير المسلمين أن تؤخذ منهم كتب الشريعة والدين، لكي تُحرق في سائر مملكة غرناطة، أن يسلموا سائر الكتب العربية التي لديهم سواء في الدين أو الشريعة أو كتب الطب والفلسفة والتاريخ أو غيرها إلى قاضي الجهة، وذلك في ظرف خمسين يوما من تاريخ هذا الأمر؛ لكي يفحصها القضاة، وتؤخذ منها كتب الدين والسنة، ويرخص القضاة بعد ذلك بحيازة غيرها.**[1]

الدعوة لنشر العامية وإحياء اللهجات الإقليمية:

من المخططات التي أعدها الغزاة لإقامة السدود بين الشعوب الإسلامية واللغة العربية الفصحى، اتخاذ مختلف الوسائل لنشر اللهجات العامية الإقليمية، والتشجيع على أن تكون هي اللغة الرسمية في البلاد، والتشجيع على أن يكتب المسلمون بها علومهم وآدابهم وأشعارهم وقصصهم وتواريخهم وعقودهم وسائر معاملاتهم، وأن يهجروا العربية الفصحى نهائيا؛ بحجة أن معظم الشعب لا يحسنها، وأنه متى انطلق يكتب بلغته العامية الدارجة استطاع أن يبتكر ويبدع، ويساهم مع معظم أفراده في مختلف العلوم والفنون والآداب.

وما هذه الحجج الضعيفة إلا ذرائع كلامية لخطة تهدف إلى تجزئ الشعوب الإسلامية والشعوب العربية، وإقامة السدود اللغوية بينها؛ التي ستجعل من الشعب الواحد شعوبًا متعددة بمقدار تعدد أقاليمه، حتى ينتهي الأمر إلى أن ينطق سكان كلِّ

---

[1] أجنحة المكر الثلاثة: عبد الرحمن حَبَنَّكة – موقع "مفكرة الإسلام" بتاريخ ١١ من جمادى الثانية١٤٣٠هـ-٤ يونيو٢٠٠٩م (بتصرف يسير) – قادة فتح الأندلس: محمود شيت خطاب.

إقليم منها بلغة خاصة، لا تمتُّ إلى لغة الإقليم الآخر بصلة فعلية إلا صلة الاشتقاق التاريخي من أصل واحد، وهذا سينسى خلال عدد قليل من القرون، ويمسي لكل إقليم لغته وقوميته وتقاليده الخاصة.

ودراسة كثير من اللغات المتعددة في العالم، تعطينا نماذج تطبيقية شتى للغات مختلفة فيما بينها كل الاختلاف، مع أنها مشتقة في أصلها من لغة واحدة؛ يمكن أن نُسميها بالنسبة إليها اللغة الأم، ولكن انفصال اللهجات المحلية الإقليمية عن بعضها مضافًا إلى ذلك العامل الزمني الذي طالت فيه مدة الانفصال قد أدى إلى تكوُّن لغات متباينة، لا يفهم الناطق بأحدها على الناطق بالأخرى.

ومثال ذلك: اللغات السامية المتفرعة عن أصل ساميٍّ واحد، واللغات اللاتينية المتفرعة عن الأصل اللاتيني، وفي الهند ما يزيد على سبعين لغة إقليمية متفرعة عن اللغة الأصلية التي كان سكان الهند الأولون ينطقون بها، ولولا ظل الدولة الإسلامية التي وحدت الهند طوال قرون على اللغة الأُردية الغنية بالمفردات العربية لانفصل الهنود إلى قوميات كثيرة بعدد لغاتهم المختلفة، ونجد نظير ذلك في الشعب الإندونيسي.

وقد ظهرت الدعوة إلى العامية داخل البلاد العربية أول ما ظهرت في كتابات عدد من المستشرقين؛ إذ قدموها في ثياب الناصحين لسكان هذه الأقاليم العربية ليصرفوهم عن لغة القرآن.

وقد استطاعوا أن يزينوا كلامهم بوجهين: أحدهما إيجابي في صالح العامية الدارجة على ألسنة العامة، وثانيهما سلبي ضد اللغة العربية الفصحى.

فأعطوا العامية صفة اللين والسهولة، والقدرة على تلبية رغبات جميع الأفراد في التعبير عمَّا يخطر في أفكارهم ويختلج في نفوسهم، وألبسوا العربية الفصحى صفات التعقيد والشدة والصعوبة، وعدم تلبيتها لرغبات جميع الأفراد في التعبير عمَّا يخطر في أفكارهم ويختلج في نفوسهم.

هذه الفكرة الخبيثة بمثابة خنجر مسموم حاول

المستشرقون أن يغمسوه في قلب الإسلام.

وعند الشروع في تنفيذ (مؤامرة) القضاء على اللغة العربية يحسن الاستعانة بمستشرقين (يُعيَّنون) في (مؤسساتنا) الثقافية؛ لتكون كلمتهم (نافذة)، مثل المستشرق الألمانى "ولهلم سبيتا" الذى وُظِّف بدار الكتب المصرية..(!) وكان أول من دعا إلى (نبذ) اللغة العربية، وألف كتابا عن قواعد اللغة العامية فى مصر..!

وتبع هذا الموظف لمحاربة العربية (موظف) ألمانى آخر؛ هو "كارل فولرس" الذي عُيِّن (أمينًا) للمكتبة الخديوية بالقاهرة..! وجاء بعدهما إنجليزى (موغل فى التعصب)، كان يشرف على مدرسة الهندسة العليا (كلية الهندسة الآن) اسمه "وليم ولكوكس"؛ الذى منحته إنجلترا فيما بعد لقب (sir).

وتبنى أفكار الجميع عدد من اللبنانيين والمصريين الحاقدين على الإسلام، وكانت صيحاتهم لهدم المواريث الأولى لا ينقطع صداها.. وتدبر ما قاله "سلامة موسى" في كتابه "اليوم والغد": (الرابطة الشرقية سخافة، والرابطة الدينية وقاحة، والرابطة الحقيقية هى رابطتنا بأوروبا..).

والذوبان المنشود فى أوروبا يعنى بداهة اطراح الإسلام والعربية، ووجود نابتة مهجنة تستخف بتكاليف الإيمان وأواصر الفصحى، وقد اتسعت هذه الدائرة، ووجد الداخلون فيها كل تشجيع مادي وأدبي، وأزيحت من أمامها العوائق، بل كثرت من ورائها الدوافع؟ حتى كادت تستولى على مقاليد الأمة في كل ميدان.

ولا تزال المعركة سجالا بين الإيمان والإلحاد، وبين العامية والفصحى.

يقول المبشر "زويمر": **يوجد لسانان لهما النصيب الأوفر في ميدان الاستعمار المادي ومجال الدعوة إلى الله وهما: الإنجليزي والعربي، وهما الآن في مسابقة وعناد لا نهاية لهما؛ لفتح القارة السوداء مستودع النفوذ والمال، يريد أن يلتهم كل منهما الآخر، وهما المعضدان للقوتين المتنافستين في طلب السيادة على العالم البشري. أعني النصرانية والإسلام.**

ومع اعترافنا بأن الخطة الذكية التي سلكها الأعداء الغزاة، المشتملة على استئجار أجراء من داخل البلاد الإسلامية؛ لتحقيق أهدافهم في هدم الإسلام؛ قد كانت أكثر نجاحًا من خططهم السابقة التي واجهوا بها المسلمين صراحة؛ وهم يعلنون عداءهم الصريح لهم ولدينهم ولماضيهم وكل ما يتصل بهم.

فبعد أن بلغت اللغة العربية كل وصف حتى أصبحت لغة التخاطب بين قبائل نصف القارة الإفريقية؛ كما أشار إلى ذلك "توماس أرنولد" في كتابه "الدعوة إلى الإسلام".. بدأت يد (المستعمر) تعمل في دأب؛ ففي أفريقيا عمد الإنجليز في "نيجيريا" إلى نقل حروف اللغات المحلية من العربية إلى الحروف اللاتينية؛ فضلاً عن عملية القضاء على كتب التراث الإسلامي التي تعرضت للحريق؛ للقضاء على كل أثر علمي عربي بعد قطع التيار الحضاري العربي القادم من شمال إفريقية ومصر.

وبعد أن كانت بعوث أفريقيا تُرسل إلى "مكة" المكرمة و"الأزهر"؛ أصبحت تُرسل إلى الغرب!

وبعد أن كانت اللغة العربية قد شاركت بحروفها وألفاظها في كل اللغات الأساسية في أفريقيا؛ وهي الهوسا والماندنجو والوولوف والسواحلية والصومالية ولغات النيجر والدناكل في إثيوبيا وإرتيريا، عمد النفوذ الأجنبي إلى إيقاف كل ذلك، وإحياء الثقافات الأفريقية القديمة، وصبغها بصبغة إقليمية تساعد على إثارة التعصب وإقامة

القوميات المحدودة المحلية في نطاق قبلي؛ ليستغلوا هذه الروح في إقامة سد مرتفع في وجه انتشار اللغة العربية؛ مع نشر الثقافة الإنجليزية والفرنسية من خلال اللغتين ليتحقق الاستعمار الثقافي الكامل..

وهكذا أصبحت اللغتان الإنجليزية والفرنسية ـ كلٌّ في منطقة سيطرتها ـ لغة أساسية في مراحل التعليم المختلفة، وغلبت اللهجات القومية ولغة المستعمر ليس على مناهج التعليم فحسب، بل على أعمال المصارف والمحاكم والدواوين..

أما في آسيا فقد استطاعت اللغات الأجنبية في جنوب شرق آسيا (الملايو – إندونيسيا – تايلاند) السيطرة، وتراجعت اللغة العربية ثم تراجعت الحروف العربية أيضًا في تركيا وإندونيسيا.

وفي إندونيسيا وأرخبيل الملايو نجد الصورة قاتمة، فقد تعرضت إندونيسيا بعد الاستقلال للتحديات في مجال اللغة؛ فكتبت اللغة الأندونيسية بالخط الروماني (اللاتيني) بدلاً من الخط العربي المحلي، وأصبحت العربية لغة أجنبية لا يقرؤون ولا يكتبون بها، وأصبح العدد الأكبر قادرًا على أن يقرأ اللغات الغربية وخاصة الإنجليزية.

لقد تعرضت اللغة العربية (وحدها) من بين لغات العالم لكلِّ ما ينصبُّ عليها من معاول الهدم، ويحيط بها من دسائس الراصدين لها.. [١]

ولنبدأ بالانقلاب اللغوي في تركيا:

مرت اللغة التركية بتطورات عديدة عبر التاريخ، ولكن أشهرها على الإطلاق كان تطور اللغة العثمانية (اللغة الرسمية للدولة العثمانية)، ذات الخليط الفريد المكون من

---

[١] أجنحة المكر الثلاثة: عبد الرحمن حَبَنَّكة– اللغة العربية ومكانتها بين اللغات: د. فرحان السليم– مستقبل العربية وآدابها: محمد الغزالي. (بتصرف)

اللغات التركية، والعربية، والفارسية بحروفها العربية، إلى اللغة التركية الحديثة المعروفه الآن بحروفها اللاتينية.

واستمر استخدام اللغة التركية، بحروفها وكتابتها العربية، والفارسية خلال العصر العثماني، على سبيل المثال اسمعوا لهذه الجملة، نقلاً من أحد المصادر التاريخية العثمانية: "بلقاندن أخبار هزائم مؤلمة عاجلاً ورود ايتدي"، أي: "وردت أخبار هزائم مؤلمة من البلقان"، إنها جملة تركية، ولكنها كانت تكتب وتقرأ بكلمات عربية.

وطُرحت فكرة تطبيق الأبجدية اللاتينية على اللغة التركية للمرة الأولى على الساحة على يد الأذربيجاني "فتحى علي أخوندزاده" في عام ١٨٦٠م، إلا أن تبنى الأبجدية الأرناؤوطية الحديثة ذات الجذور اللاتينية في الفترة من ١٩٠٨م-١٩١١م، أصبح سببًا لاختلافات عميقة فيما بين المثقفين الأتراك. فـ"حسين جاهد" الذي شن حربًا ضد الفتوى التي أصدرها معلمو مدرسة "البعثان" في ١٩١١م، والتي تقول بتعارض الحروف اللاتينية مع الشريعة الإسلامية؛ لم يكتفِ بالدفاع عن الحروف الأرناؤوطية ذات الأصول اللاتينية، ولكنه اقترح على الأتراك أن يطبقوها.

وفي عام ١٩١١م قام جناح الأرناؤوط في جمعية "الاتحاد والترقي" بالاعتراف بالأبجدية الأرناؤوطية ذات الأصول اللاتينية.

وكان كثير من المفكرين يرون أن تدني مستوى التعليم في الدولة العثمانية يعود إلى استخدام الأبجدية العربية، وأن الحروف العربية لم تعد تناسب اللغة التركية التي طرأ عليها كثير من التغييرات نتيجة الإضافات التي دخلت عليها من اللغات الأخرى.

وأثار الموضوع الرأي العام في العام ١٨٦٩م، بعدما نشر أحد أتباع جمعية "تركيا الفتاة" مقالاً في صحيفة "حرّيت" التي كانت تصدر في لندن، انتقد فيه نظام التعليم العثماني، وكيف أن الطلبة المسلمين يمضون سنوات في الدراسة لينتهي بهم الأمر بعدم

القدرة على قراءة صحيفة.. **ورد سفير إيران لدى الباب العالي على المقالة مؤكدًا مسألة تخلف نظام التعليم الإسلامي، وركّز في نقده على الأبجدية العربية التي وصفها بالعائق الذي يمنع المسلمين من مواكبة الغرب المتطور، بل رأى أن الأبجدية العربية هي سبب كل تخلف ورجعية وفقر واضطراب في العالم الإسلامي.**

وقد بدأ اهتمام "مصطفى كمال" بهذا الموضوع منذ أن كان متواجدًا في سوريا في الفترة من ١٩٠٥م-١٩٠٧م. وفى عام ١٩٢٢م تحدث أتاتورك في نفس الموضوع مع الأديبة "خالدة أديب"، حيث قال: إن إحداث مثل هذا التغيير يحتاج لإجراءات حازمة.

وعندما وجه "حسين جاهد" سؤالاً لأتاتورك في الاجتماع الذي ضم أعضاء الهيئة الصحفية، والذي عقد في سبتمبر عام ١٩٢٢م، قائلاً: لماذا لا تقر الحروف اللاتينية؟ أجاب أتاتورك: "الآن ليس موعدها". وفي مؤتمر "إزمير" الاقتصادي الذي عقد في عام ١٩٢٣م، عُرض اقتراح في نفس الموضوع، ولكن رئيس المؤتمر "كاظم قرابكير" رفض هذا الاقتراح بدعوى أن (إقرار الحروف اللاتينية يضر بالوحدة الإسلامية). وقد احتل الصراع على هذا الموضوع حيزًا كبيرًا في عالم الصحافة.

وأصدر "المجلس القومى التركى الكبير" في ٢٨ مايو عام ١٩٢٨م قانونًا إداريًّا يتم العمل به اعتبارًا من الأول من يونيو/حزيران، **ينص على استخدام الأرقام الدولية في الدوائر والمصالح الرسمية.** ولم يُحدث إصدار هذا القانون رد فعل مهم.

وفي نفس الوقت تقريبًا صدر قانون تشكيل لجنة لتعديل الحروف. وكانت واحدة من أهم الخلافات في هذه اللجنة، هي مقابلة حرفي "القاف والكاف" في الكتابة العثمانية القديمة بحرف (q) و(k) في الكتابة التركية الحديثة، إلا أن "أتاتورك" رفض هذا الاقتراح، واستبعد حرف (q) من الكتابة التركية الحديثة.

وأثناء انعقاد اللجنة قال أحد أعضائها ويدعى "فالح رفقي أتاي": إن تطبيق الحروف الجديدة سوف يستغرق فترة من خمسة إلى خمسة عشر عامًا.. فعلق "أتاتورك" قائلاً: بل يكفى ثلاثة أشهر، لا نريد أن نضيع الوقت.

وبعد الانتهاء من إعداد الحروف الجديدة قام أتاتورك في ٩ أغسطس ١٩٢٨م بإطلاع المشاركين عليها، وفي ١١ أغسطس تم تعريف العاملين برئاسة الجمهورية ونواب الشعب عليها. وفي ١٥ أغسطس تم إعلامها لأعضاء هيئات التدريس بالجامعة والأدباء. وفي خلال شهرى أغسطس وسبتمر تم إعلام الشعب بالحروف الجديدة في مختلف الولايات. وفي نهاية هذه الفترة قاموا بجمع اقتراحات هذه اللجنة اللغوية في قاموس أساسي للتعريف والتوضيح؛ يشمل أيضًا الإضافات الجديدة فوق الحروف. وفي الفترة من ٨-٢٥ أكتوبر اجتاز كل الموظفين في المصالح والهيئات الرسمية اختبار استخدام هذه الحروف الجديدة.

وفي عام ١٩٣٢م عمد "أتاتورك" إلى تشكيل لجنة من الخبراء تحت اسم "جمعية اللغة التركية"؛ كانت مهمتها إعادة تكييف اللغة مع وضعها الجديد، عبر استبدال ما أمكن من الكلمات ذات الأصول العربية أو الفارسية، واستحداث كلمات أخرى مكانها إما تحمل جذرًا تركيًّا خالصًا أو مصوغًا من الإنجليزية والفرنسية، وعلى الرغم من ذلك ما تزال العديد من الكلمات الفارسية والعربية متداولة بالتركية الحديثة حتى اليوم بعد تتريك نطقها، أو اختلاف معناها عن الراسخ بهاتين اللغتين.

وعلى سبيل المثال:

الفعل العثماني (افتخار) إيتمك، ومعناه (يفتخر) تغير ليصبح: övünmek (أوفونمك)، والتي معناها يتفاخر أو يتباهى.

الكلمة العثمانية (نسبت) ومعناها (نسبة)، تغيرت لتصبح: oran (أوران)، وتحمل نفس المعنى.

الكلمة العثمانية (طيارة) ومعناها (طائرة)، تغيرت لتصبح uçak (أوتشاق)، وهي مشتقة من الفعل: uçmak ، ومعناه: يطير.

وبعد نجاح (الانقلاب اللغوي)، و(فرض) الأبجدية اللاتينية؛ التي قيل في ذلك الوقت إنها جاءت لمحاربة الأمية في تركيا.. عانت الأجيال الكبيرة من صعوبة تعلم اللغة الجديدة، فتوسَّعت الهوة بين الجيل الجديد والقديم، وسُجِّل العزوف الشديد عن شراء الصحف التي اعتمدت فورًا الأبجدية اللاتينية، وكانت نسبة من يجيدون القراءة والكتابة بين عامي ١٩٢٨م-١٩٣٥م لا تتجاوز عشرة ونصف بالمئة وفق المؤرخ "عثمان أوزسوي".

وبعد أن أرغم "أتاتورك" الناس على كتابة اللغة التركية بالحروف اللاتينية، حظر التحدث بالعربية، واستمرأ ذلك الطاغوت سكوت الناس، فأمرهم بتغيير أسمائهم وكُناهم إذا كانت عربية، لتحل محلها أسماء وكُنى طورانية..!! وويل للمغلوب إذا غزاه الغالب.

ثم أصدر تعليماته بألا تُمارس الشعائر في المساجد إلا باللغة التركية بما فيها الأذان، وحتى القرآن أمر بكتابته باللغة التركية وحروفها اللاتينية، ولم يأت عام ١٩٣٢م إلا والأذان يرفع باللغة التركية.

وبعد قرابة تسعين عامًا، ترسّخت اللغة التي استحدثها أتاتورك بوصفها "اللغة التركية"، وبقيت لغة الأتراك القديمة وراءهم وأصبحت تسمى "العثمانية" نسبة إلى حقبة ما قبل الجمهورية، وندر من يتقنها اليوم من الباحثين أو كبار السن.

وقد فجَّرت نية حزب "العدالة والتنمية"، التصويت في المجلس النيابي على إدخال اللغة العثمانية درسًا اختياريًا في الثانويات التركية، وإجباريًّا في الثانويات الدينية (الأئمة والخطباء)، عاصفة من الجدل داخل الأوساط السياسية والمجتمعية التركية، بين

فريق رأى بالخطوة تقدمًا على طريق إتقان الأجيال للغة أجدادهم وحضارتهم السابقة، وبين من اعتبرها ارتكاسة إلى الوراء ورِدة عن إرث "أتاتورك" والجمهورية الحديثة.

وتساءل الرئيس التركي "رجب طيب أردوغان"[١]: هل هناك شعب في العالم لا يستطيع أبناؤه أن يقرؤوا لغة أجدادهم التي كُتبت قبل مائة عام فقط؟ مشيرًا إلى أن الأمة التركية باتت عاجزة عن قراءة ملايين الوثائق الموجودة في دور المحفوظات الضخمة بالبلاد؛ وذلك لانقطاعها عن اللغة التي كُتبت بها.

وتابع قائلا: **عندما تسلبون اللغة من مجتمع ما، تكونون قد سلبتموه حضارته وذاكرته. أقول هذا باعتبارنا أمة دفعت الثمن غاليًا لسلبنا لغتنا. فالاعتداء على لغة مجتمع ما، يعني الاعتداء على دين هذا المجتمع وثقافته وفنونه وآدابه.ا.هـ**

وبات يُنظر في تركيا إلى أن إعادة إحياء اللغة العثمانية، باتت جزءًا من الطرح الثقافي والحضاري الذي يتبناه حزب "العدالة والتنمية"، ضمن رؤيته لمشروع "الجمهورية الثانية" عام ٢٠٢٣م، في محاولة لإعادة صلة الأتراك بتاريخهم المدون بالحرف العربي، وصلتهم بمحيطهم وتاريخهم الإسلامي، وصلتهم بالقرآن الكريم.[١]

الكردية:

كانت إحدى الطامات الكبرى التي ألحقها العلماني الأول "مصطفى كمال أتاتورك" في ثلاثينيات القرن العشرين أمره بإلغاء كتابة اللغة العثمانية (التركية) بالأبجدية العربية، واستبدالها بالحروف اللاتينية..

---

[١] ديسمبر ٢٠١٤م.

[١] الموسوعة الحرة – محاولة تركيا إحياء الأبجدية العربية عبر التاريخ والحاضر: مقال لولاء خضير ترك برس– تركيا.. إحياء اللغة العثمانية إرث ثقيل في ميزان السياسة: مقال لأماني السنوار/الخليج أون لاين – نظرات في منازلة النوازل: د. عبد العزيز كامل/ مجلة البيان (١٩٤/ ١٨) (باختصار وتصرف)

وفي ذات السياق بدأ بعض المثقفين الأكراد من ذوي الاتجاهات العلمانية (الماركسية والليبرالية) تطبيق فكرة "أتاتورك" آنفة الذكر، وإنزالها في عالم الواقع في محاولة كتابة اللغة الكردية بالأبجدية اللاتينية عوضًا عن الأبجدية العربية التي هي سائدة الآن في (كردستان العراق وإيران) دون (كردستان تركيا وسوريا)؛ حيث طغت هناك اللاتينية بواسطة التأثير التركي. ولا ننسى أن **الأدب الكردي من شعر ونثر تراثي إنما دُوِّن بالحرف العربي، وكذلك الصحافة الكردية؛ فقد استعملت في غالبيتها الحرف العربي على مدى مائة عام تقريبًا.**

وكانت هذه الفكرة قد راودت بعضًا من أبناء الكرد منذ عدة عقود بتأثير الموجة الأتاتوركية، ولكن قلة عدد هؤلاء اللاتينيين وسيطرة علماء الدين الإسلامي على الساحة العلمية والثقافية في كردستان خلال النصف الأول من القرن العشرين حالت دون استطاعتهم الجهر بفكرتهم هذه. ولكن القشة التي قصمت ظهر البعير هي تغلغل الفكر (البلشفي)[١] الماركسي في "كردستان" في ثلاثينيات القرن العشرين، **والاقتداء بالاتحاد السوفييتي الذي قام باستبدال الأبجدية العربية السائدة عند مسلمي (القوقاز وآسيا الوسطى) بالأبجدية الروسية.**

وكانت حُجة هؤلاء هي انتماء اللغة الكردية إلى عائلة اللغات الهند أوروبية بعكس العربية التي تنتمي إلى عائلة اللغات السامية، ولأن العربية قاصرة عن التعبير عن كل الأصوات والأحرف الكردية.

---

[١] أول ثورة (شيوعية) في القرن العشرين، وهي المرحلة الثانية من الثورة الروسية عام ١٩١٧م، قادها (البلاشفة) تحت إمرة "فلاديمير لينين" ويده اليمنى "جوزيف ستالين" وكامل (الحزب البلشفي) والجماهير العمالية؛ بناءً على أفكار "كارل ماركس" وتطوير "فلاديمير لينين"؛ لإقامة دولة (اشتراكية). [الموسوعة الحرة]

وانتماء لغةٍ ما إلى عائلة لغوية لا يعني بالضرورة استخدام أبجديتها، وإلا لكان من الطبيعي استخدام الأتراك للأبجدية الألتية (Altaic)؛ على أساس انتماء لغتهم إلى عائلة الأورال تاي.

وعلى أي حال فقد **بدأ بعض المثقفين الكرد من المنتمين إلى التيارات الفكرية المتنوعة من (ماركسية) و(اشتراكية) و(ليبرالية) بالكتابة الأبجدية اللاتينية في الآونة الأخيرة في بعض الصحف والمجلات العائدة لأحزابهم وجمعياتهم العاملة في كردستان العراق، بقصد جس نبض القراء الكرد، ومعرفة ردود فعلهم الأولية على هذا المشروع، ومدى محاولة المضي فيه حتى النهاية في حالة عدم وجود ردود فعل سلبية تجاههم؛ حيث لا يخيفهم شيء سوى ردة فعل الاتجاهات الإسلامية والمحافظة التي تريد البقاء على التراث الكردي القديم بصورته الحالية.**

ولكن مع الأسف فإن الاتجاهات الأخيرة قد خَفَتَ صوتها في الآونة الأخيرة نتيجة اتهامها بـ(العمالة للفكر الإسلامي)، أو وصمها بـ(التعصب والانغلاق) وعدم الانفتاح على الفكر العالمي.

والهدف الأخير لهؤلاء العلمانيين ليس إخراج اللغة الكردية من بعض الإشكاليات التي تعانيها مثل بقية اللغات؛ بقدر ما هو قطع كل صلة للكرد بماضيهم الإسلامي المجيد، ومحاولة دفع الكرد شيئًا فشيئًا نحو بوتقة التغريب والعلمنة، علمًا بأن للعلماء الأكراد باعًا طويلاً في الدفاع عن حياض اللغة العربية.

والحقيقة أن كتابة الكردية باللاتينية أصبحت موضة شائعة بسبب التقليد الأعمى للغرب في كل حركاته وسكناته؛ مثل تقليده في المظاهر الأخرى كالأزياء وشرب الخمر، إلى غير ذلك من هذه المظاهر المستنكرة التي تدل على استلاب الشخصية المسلمة، وتبعيتها لأعداء دينها وعقيدتها.

ويُعد الدكتور **"عبد الله جودت"** من أوائل دعاة استبدال الحرف العربي بالحرف اللاتيني؛ ففي عام ١٩١٣م كتب في مجلة "رزي كرد-Rojê Kurd" **داعيًا الأكراد إلى تغيير أبجديتهم؛ لأن الأبجدية العربية لا تستجيب للصوتيات الكردية اللغوية.**

وفي تلك الأيام جرت بحوث ومحاورات مطولة بين أعضاء "جمعية الأمل لطلبة الأكراد" (هيفي) (Kurd Talebeyî Hêvî Cemiyetî) بصدد هذا الموضوع. يقول "صالح بدرخان" (أحد دعاة الكتابة بالحرف اللاتيني): إن الأبجدية المؤلفة من اثنين وثلاثين حرفًا التي تكتب بها التركية العثمانية ليست كافية للكتابة الكردية.

لذلك فقد أضاف "صالح بدرخان" إلى هذه الحروف ثمانية حروف أخرى، لتصبح الأبجدية العثمانية أربعين حرفًا، وبها كتبت كتابات في مجلة "روزي كرد". وكان المعنيون بمجلة "روزي كرد" يسعون إلى إنجاز أبجدية قريبة من الأحرف اللاتينية، إلا أن الحرب العالمية الأولى لم تدعهم يكملون صنيعهم.

وبعد أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها استغل الكرد أحوال البلاد المضطربة وضعف الدولة؛ فأسسوا جمعية "تقدم (ازدهار) كردستان".

ونُشرتْ بحوث في بعض الأعداد من مجلة "jîn- الحياة" (١٩١٨م-١٩١٩م) لـ"جمعية تقدم (ازدهار) كردستان" غير الرسمية، عن الصعوبات والمعوقات في كتابة اللغة الكردية بالحروف العربية. ويقول أحد الكُتَّاب في هذا الصدد: **"ماذا يسعنا أن نفعل إزاء لغة آرية ترتدي ثياب أبجدية سامية"؟!**

وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى وضع **الميجور**[١] **أ.ب. سوان** أبجدية توافق اللغة الكردية، ونشر كتابين بهذه الأبجدية.[٢] ولم تلقَ هذه الأبجدية رواجًا بين الأكراد.

---

[١] **major** رتبة عسكرية فوق رتبة النقيب.

وجاء دور الأمير **"جلادت بدرخان" الذي يُعَد صاحب ابتكار الأبجدية اللاتينية الكردية.** وقد كتب في أمر هذه المسألة قائلاً: في عام ١٩١٩م كنا نسير بين شعاب الجبال حتى وصلنا إلى ديار عشيرة "رشوان".. وكان الميجور "نويل" الإنكليزي مرافقًا لنا، وكان يتقن اللغة الكردية بإحدى اللهجات، فرغب أن يتعلم لهجة "الشمال"، وكان يسعى إلى ذلك ويدوِّن كل ما يتعلمه. أما أنا فكنت أجمع القصص والحكم والأمثال التي أسمعها من أفواه الأفراد، وأسجلها على الورق بالخط العربي. **وكنت أنا و"نويل" نعيد النظر إلى ما كتبناه ونقرأ ما كتبنا؛ فكان هذا الرجل الإنكليزي يتلو ما كتبه بكل يسر.. أما أنا فقد كانت قراءتي عسيرة بطيئة، وكنت أجد مشقة في التفريق بين (û) و(o) و (î) و(ê) فما علة ذلك؟ لقد كان الميجور يستخدم الحروف اللاتينية، أما أنا فكنت أستعمل الحروف العربية.. عندئذ اتخذت قرارًا بإنشاء أبجدية لاتينية تستجيب لجميع الألفاظ الموجودة في اللغة الكردية.**

وانطلاقًا مما تقدم يبدو أن هناك عدة عوامل تصب في نجاح المشروع اللاتيني في كردستان العراق، ولعل من أبرزها **كثرة وجود المنظمات الغربية (التنصيرية) التي تتخذ من الإنسانية مظهرًا، والتي ليس لها هدف محقق في واقع الأمر إلا تغريب الكرد ومحاولة إخراجهم من دينهم، ومحاولة قطْع كل رابطة لهم بأشقائهم العرب المسلمين أو باللغة العربية؛** ولا سيما أن الكرد تعرضوا إلى صنوف شتى من الظلم والقهر على أيدي بعض المحسوبين على العرب!

---

(٢) والكتابان هما: "**Elemantary Kurmanjî Grammar**" بغداد،١٩١٩، و " **Kitabi Awwalamini Qiraati Kurdi**"، 1920م.

بجانب محاولة الغرب تغريب الجيل الكردي الحالي من خلال السماح له بالهجرة المنظمة وغير المنظمة إلى الغرب، ومنحه التسهيلات المادية والمعنوية من خلال السماح لهم بالحصول على اللجوء السياسي أو الإنساني على أقل تقدير.

والشعب الكردي يعاني منذ أمد أزمة خطيرة؛ تعرَّض خلالها إلى أشد صنوف التنكيل والعذاب والضرب بالأسلحة الكيمياوية، وغيرها من أعتى وسائل الإجرام على يد بعض الأنظمة التي لا ترقب في مؤمن إلاًّ ولا ذمة.

وهذا كان أحد الدواعي التي استند إليها هؤلاء المتغربون اللاتينيون لإخراج الكرد من دينهم؛ على أساس أن ظالميهم أو الذين وضعوهم في معسكرات التعذيب والاعتقال كانوا ينتمون اسمًا إلى الإسلام! لذا فلا مناص بزعمهم من الالتجاء إلى الغرب والاحتماء به، والإذعان لكافة عاداته وتقاليده؛ وإن تطلَّب الأمر معتقداته؛ والعياذ بالله.[1]

الأمازيغية:

كان للمغرب العربي نصيب من هذه الدعوة؛ فقد أصبحت اللغة العربية لغة ثانية بعد الفرنسية لغة المستعمر، وجاء في تقرير أعدته لجنة العمل المغربية الفرنسية: إنَّ أول واجبٍ في هذه السبيل هو التقليل من أهمية اللغة العربية، وصرف الناس عنها، بإحياء اللهجات المحلية واللغات العامية في شمال إفريقيا.

وقد وضع علماء الاستعمار من المستشرقين كتبًا في قواعد اللهجات (الأمازيغية) لتزاحم العربية، يقول "شحادة الخوري": شعر المستعمر باستحالة اقتلاع اللغة العربية من أرض الجزائر وغرس اللغة الفرنسية مكانها، فلجأوا إلى وسيلة مُساعدة

---

[1] الغزو اللاتيني في كردستان العراق: فرست مرعي الدهوكي/ مجلة البيان (١٥٢/ ١٠٠) – الأبجدية الكردية اللاتينية.. تاريخها: حسام سالم.

أخرى وهي الإيحاء لأكبر عدد من أبناء الجزائر بأن اللغة العربية ليست لغة أصلية في الجزائر، وإنما اللغة الأصلية لسكان الجزائر هي اللغة (البَرْبريَّة) لغة (الأمازيغ)، وقد تطوع الفرنسيون لوضع أبجدية لها كيما يمكن كتابتها.

واللغة الأمازيغية لغة محدودة الانتشار، ضحلة الأدب والفنون، قليلة الفائدة، ولو أن أهلها نظروا بعين إنصاف لكانت لغة القرآن، ولغة قومهم المسلمين، ولغة دولهم، خيرًا لهم من هذه اللغة التي تحاصرهم في أضيق الخنادق الحضارية.

وتوجد بالجزائر عشر فئات (بربرية)، وعلى رأس هذه الفئات (الشاوية) الذين يمثلون أكبر تجمع بربري، وهناك فئة (القبائل). وأبناء هذه الفئات العشر عدا القبائل يرون أن لغتهم هي العربية، وأن الأمازيغية لهجة شفوية يتحدث بها الأميون منهم.

ومن الغريب أن فروقًا كبيرة توجد بين لهجات هذه الفئات العشر؛ إذ يختلف بعضها عن بعض لدرجة يصعب التفاهم فيما بينها. ولا توجد لغة بربرية أمٌّ منظمة تُعَلَّم. أما فئة (القبائل) فبسبب التأثير الاستعماري (الفرانكفوني)[1] حديثًا يطالبون باعتماد اللغة الأمازيغية لغة رسمية ووطنية في مستوى واحد مع العربية.

وتبدأ القصة عندما تعرضت الجزائر للاستعمار الفرنسي في ٥ يوليو/تموز ١٨٣٠م وكان أول من رفع لواء المقاومة ضد المستعمر الفرنسي هم الأمازيغ، أو الأمازيغ المسلمون. ومن الثورات التي تصدَّت للاستعمار الفرنسي ثورة المقراني. و(المقران) لفظة بربرية تعني (الكبير)، **وكان شعار ثورة المقراني الدفاع عن (إسلامية) الجزائر، ولم يقاوم المقراني من أجل استرجاع الهُوية الأمازيغية للجزائر.**

---

[1] مذهب (فكري) فرنسي؛ يهدف إلى تخليد قيم فرنسا الأم، وتوحيد لغتها مع جميع (مستعمراتها) القديمة. وهذا هو الشكل الثاني من الاستعمار يعتمد قفازا حريريا؛ وبذلك يتمكن من التسلل خفية، ويحقق أهدافه الاستراتيجية بكل أمان؛ بل بمساعدة من المستعمَر نفسه. وقد تبلور مصطلح (الفرانكفونية) بهدف تحويل الخطة؛ من استعمار عسكري إلى استعمار ثقافي؛ يمر عبر الاختراق اللغوي. لكن الاستراتيجية ظلت هي نفسها؛ الخروج من الباب والدخول من النافذة. [الفرانكفونية أيديولوجية استعمارية بغطاء ثقافي ولغوي: د. إدريس جنداري (بتصرف)]

وقد أدركت فرنسا خطورة هذه (العقيدة)، فراحت تنبش في الذاكرة الجزائرية إلى أن اهتدى استراتيجيوها إلى مبدأ (التشكيك) في الهُوية الجزائرية، وبدأت حملة التشكيك من خلال تكوين (نخبة) جزائرية مثقفة مشبعة بالفكر (الفرانكفوني)، وقد لعبت هذه النخبة المعروفة جيدًا لدى الشعب الجزائري أكبر الأدوار في (تمزيق) صفوف الحركة الوطنية؛ حيث تمَّ البدء في تصنيف الجزائري بأنه (عربي)، و(بربري)، و(شاوي)، وما إلى ذلك.

وكانت النخبة المذكورة ترى في إرهاصات الثورة الجزائرية على فرنسا انحرافًا خطيرًا باعتبار أن الثورة في مضمونها دعوة للانفصال عن الوطن الأم فرنسا.

ومع اندلا ع الثورة الجزائرية فكرت السلطات الفرنسية في مختلف الطرق التي تؤدي إلى تمزيق الثورة الجزائرية التي تبناها الجزائريون بمختلف مشاربهم وانتماءاتهم العرقية، فوصلت إلى أمرين لتمزيق الثورة الجزائرية من الداخل:

الورقة الأمازيغية – الورقة الجهوية.

فعلى الصعيد الجهوي نجحت فرنسا في إثارة (النعرات الجهوية)؛ فبات يسود آنذاك بين الجزائريين بأن هذا من الغرب، وذاك من الشرق، هذا وهراني وقسنطيني وقبائلي وهلمَّ جرا.

وما زالت (الجهوية) تلعب دورًا كبيرًا في التعيينات الوزارية والرسمية، بل إن التوازن الجهوي يُعدُّ أساس الحكم في الجزائر.

وعلى صعيد الورقة (الأمازيغية) فقد نجحت فرنسا في إثارتها عبر آلياتها ووسائلها؛ وذلك باتباع وسائل أهمها:

* **مضاعفة النشاط التبشيري بين الأمازيغ**، وتقديم الخدمات الصحية والتعليمية وإقامة الكنائس في مناطق تواجدهم الكثيف مقابل منع العلماء المسلمين من الوصول إليهم لتدريس القرآن الكريم واللغة العربية.

ويذكر المراقبون أن هناك ما يقرب من عشرين منظمة تنصيرية في منطقة القبائل تقريبًا، وزعماء الحركة الأمازيغية لا ينكرون أن الذي أوجد التيار الأمازيغي هم المنصرون المسيحيون الفرنسيون؛ فقد صرح "معطوب الوناس"، وهو مطرب من أقطاب حركة الثقافة الأمازيغية بأن **الذي علمني (هُويتي الأمازيغية) هو الأب (شارل ديكيرس)** الذي اغتيل من طرف الإسلاميين مع رفاقه الثلاثة في "تيزي أوزو"، مع العلم أن الراهب المذكور (بلجيكي) الجنسية متمرس في العمل ببلاد القبائل؛ فهو يحسن التحدث بالقبائلية، **وسبق أن ضبطه مفتش شرطة قبائل بمدينة "تيزي أوزو" في سنة ١٩٧٦م وهو يجمع في بيته (مراهقين ومراهقات) ويمرنهم على ممارسة الجنس تحت عنوان التربية الجنسية.** وقد قامت السلطات بطرده مع عدد من رفاقه في عهد هواري بومدين، ومن الغريب أنه كان مستشارًا في التأهيل المهني بوزارة العمل الجزائري التي كان يسيطر عليها الشيوعيون، وكان مزدوج الجنسية إذ يتمتع بالجنسيتين الجزائرية والبلجيكية. ثم جاء "الشاذلي بن جديد"، وفي إحدى زياراته إلى "بلجيكا" توسط ملكها لديه للراهب المذكور، فسمح له بالعودة إلى "الجزائر"؛ حيث بقي فيها إلى أن اغتيل، وهذا "الوناس" هو الذي وقف خطيبًا أمام الجماهير في مسيرة نظمت بمناسبة ذكرى ما يسمى بـ (الربيع الأمازيغي)، وإلى جانبه زوجة السيد "سعيد سعدي" رئيس حزب (التجمع من أجل الثقافة والديموقراطية)، حيث قال بالحرف الواحد: **لو بقيت اللغة الفرنسية رسمية بالجزائر بعد الاستقلال مثلما كانت قبله، لما وصلنا إلى ما وصلنا إليه.**

* **تزييف التاريخ لتعميق الهوة بين العرب والأمازيغ.**

* **محاولة إضفاء الصبغة العلمية الأكاديمية على دعاوى عنصرية من قبيل (لاتينية) الأمازيغ**، وتمايزهم تمامًا: عرقيًّا، حضاريًّا، لغويًّا، وتاريخيًّا عن العرب؛ وصولاً إلى تبني

اجتهادات فرنسية/ أمريكية لكتابة مفردات اللغة الأمازيغية (الشفهية) بحروف لاتينية، في سياق محاولة ربط الأمازيغ بالثقافة اللاتينية المسيحية.

* **توفير حاجة الدعوة الأمازيغية من المؤسسات الثقافية لتكون ممارسة هذه المؤسسات خارج الدولة الجزائرية**، وبذلك يصعب التحكم في مخرجاتها ومنطلقاتها؛ **فقد أسست فرنسا في عاصمتها باريس الأكاديمية الأمازيغية التي تولت وضع معجم للغة الأمازيغية، وتشجيع نتاج الأدباء الأمازيغيين بهذه اللغة، ورعاية الثقافة الأمازيغية بكل مفرداتها:** الأغنية والموسيقى (موسيقى الراي)، العادات والتقاليد، وفنون الأدب الأخرى.

* **دعم العناصر (المتفرنسة) في سعيها لإقامة العقبات أمام مسيرة التعريب بعد استقلال الجزائر عام ١٩٦٢م**، سواء بدفعهم طابورًا خامسًا داخل مراكز صناعة القرار، أو المؤسسات التعليمية، **والتركيز على دعم سياسة (الإحياء الأمازيغي) التي تنظر إلى اللغة العربية باعتبارها لغة (أجنبية).**

* **التبني الدعائي لأحداث العنف التي اندلعت في مناطق الأمازيغ منذ بداية الثمانينيات**، ومحاولة الضغط على الجزائر الدولة، باتجاه الاعتراف بحق الأمازيغ في التمايز الثقافي واللغوي من جهة، ودعم العناصر المعارضة ذات الأصل الأمازيغي المقيمة في فرنسا من جهة أخرى خاصة عبر توفير المنابر الإعلامية ووسائل الاتصال بالداخل.

* **دعم يهود فرنسا والمنظمات اليهودية فيها كما ذكر البروفيسور "رفائيل يسرائيل" في ورقة أمام ندوة لمركز "بارايلان" بالتعاون مع الخارجية الإسرائيلية لمطالب الأمازيغ**، وتقديم العون المادي والمعنوي لمنظماتهم النشطة في فرنسا، ويشير (يسرائيل) إلى أن أكثر من نصف مليون بربري يعيشون في فرنسا، مما ساعد على ظهور، وتشكيل جماعات وهيئات تتولى رعاية قضاياهم، وتؤيدهم في ذلك المنظمات

والمؤسسات اليهودية الأكثر التصاقًا واهتمامًا بقضيتهم، ورعاية مصالحهم وتبني طموحاتهم.

ويتحرك (العلمانيون) الأمازيغ في الجزائر عبر عدة واجهات منها: السياسية؛ ممثلة أساسًا في الأحزاب الأمازيغية، ومنها الاجتماعية؛ مثل الحركة الثقافية الأمازيغية، ومنها التيار المسلح للفصيل الأمازيغي:

مثل الحركة المسلحة الأمازيغية التي أُعلن عن تأسيسها يوم ٢ يوليو ١٩٩٨م، والتي تهدف حسب بيانها إلى قتل كل من يطبق اللغة العربية، وكذا كل من يحارب المد الأمازيغي. (!!)

كما أن التيار الأمازيغي يتحرك بالمقابل في واجهة حكومية هي المحافظة السامية للبربرية، والتي نُصِّبت كهيئة استشارية للرئيس "زروال" عقب اتفاق مبدئي مع ممثلي الرئيس في ٢٢ إبريل ١٩٩٥م بعد إضراب المحافظة في المدارس بمنطقة القبائل، والذي دام أكثر من ٦ أشهر والتي خولت لها مهمة الإسراع بترقية الأمازيغية.

هذه الهيئة الرسمية أبدت هي الأخرى على لسان ناطقها الرسمي "جمال فرج الله" استياءها، ودعت الجمعيات الأمازيغية النشطة والمقدر عددها بست آلاف جمعية، والتي تُعنى كلها بتطوير المسألة الأمازيغية وترقيتها والدفاع عنها من مجموع اثنتي عشرة ألف جمعية معتمدة في الجزائر إلى التجند لدراسة أشكال جديدة من النضال لفرض الأمازيغية، التي تنشط منذ بروز (الظهير الأمازيغي) أو ما سُمي بـ(البيان الأمازيغي للسلطات الفرنسية) في ١٩١٤م تحت رعاية السلطات الفرنسية، وقد كللت هذه الرعاية بعقد أول مؤتمر للمكتب العالمي الأمازيغي في المركز العالمي "بيير مونيسي" بقرية "سان روم دولان" جنوب فرنسا في الفترة بين ١ و٣ سبتمبر ١٩٩٥م، بحضور أربعين جمعية بربرية من (ليبيا، المغرب، الجزائر، إسبانيا، ودول إفريقية وأوربية)، وخلال

المؤتمر وُزّع على الحضور لأول مرة النشيد الوطني الأمازيغي، ويحمل اسم: "تورارت ن تيللي"! وكان مكتوبًا بالحرف الآرامي، واللاتيني، ورددّه الجميع أثناء حفل عشاء.

وتسعى الآن الحركة الأمازيغية إلى ترسيم اللغة الأمازيغية من خلال النص على أنها لغة رسمية في الدستور الجزائري.

ويبدو أن أكبر حزبين في هذه المنطقة: (التجمع من أجل الثقافة والديمقراطية) و (جبهة القوى الاشتراكية) بزعامة المعارض حسين آيت أحمد يؤثران بشكل ما على الأحداث.

لقد شجع هذان الحزبان مناضليهم على محو الحرف العربي من الشوارع والطرق، وعناوين المحلات التجارية، ولم يُترك سوى الحرف الفرنسي، وصار هؤلاء يمنعون استعمال اللغة العربية في التظاهرات الثقافية، ويجبرون المتحدثين على استعمال الفرنسية، فكم من محاضر مغاربي أو جزائري زار ولايتهم طُلب منه أن يتحدث بالفرنسية أو يسكت.[1]

ولا تزال رحى الحرب دائرة:

تزامنًا مع احتفالات "الفرانكفونية" في عيدها الأربعين؛ تم الإعلان عن مشروع إنجاز **(قاموس العامية السورية)** **الذي يعمل عليه بحماسة "جيروم لانتان" أستاذ (اللغة العربية العامية) في المعهد الوطني للغات والحضارات الشرقية في "باريس"؛ الملحق حاليا بالمعهد الفرنسي للشرق الأدنى بـ"دمشق"، بالاشتراك مع زميله (السوري) "كلود سلامة" منذ سنوات..!!**

---

[1] الهَجْمة على اللغة العربية: إبراهيم بن سعد الحقيل/ مجلة البيان (١٤٧/ ٤٦) – العولمة اللغوية: هيثم الحداد/ مجلة البيان (١٧٠/ ٥٩) – الأمازيغ بين تآمر الحكم والهيمنة الفرنكفوانية: حسن الرشيدي/ مجلة البيان (١٦٤/ ٧٨)

وللتعريف بالمشروع ومراحل عمله و(متعة ومصاعب تأليف قاموس العامية السورية) ألقى "لانتان" محاضرة نظمها مؤخرًا المركز الثقافي الفرنسي بدمشق تحدث فيها عن المشروع/ القاموس، وعن الهدف الأساسي من المعجم، وعن (العامية السورية)، وعن (جهود) يبدو أن السيد "لانتان" أنفق سنوات من عمره لتكلل (بنجاح)..!!

الإعلان عن المشروع وبهذه الحماسة والتوقيت أثار حفيظة اللغويين والمجمعيين والمهتمين باللغة العربية وتمكينها والغيورين عليها، ومن بينهم د. "مازن المبارك" أستاذ العربية الذي يقول: في الوقت الذي تتداعى المراكز الثقافية السورية لإقامة المحاضرات والندوات لتمكين العربية، وفي أوج هذا النشاط العربي اللغوي القومي؛ **يفاجئنا المركز الثقافي الفرنسي بانطلاقة مشروع قاموس العامية السورية!!**

ويعد د. المبارك هذا المشروع عملاً مشجعًا ليس فقط للعامية السورية؛ بل للعاميات في البلدان العربية الممزقة للشعوب العربية! ويتساءل: **كم معجمًا للهجات المحلية ألَّف (العلامة اللغوي) لوطنه ولأمته الفرنسية..؟! وهل تسمح الحكومة الفرنسية لمواطنيها باستعمال اللهجات المحلية..؟!**

ويبدي عضو مجمع اللغة العربية استغرابه **كيف أن العامية في فرنسا (جريمة) يعاقب عليها القانون؛ بينما هي في البلدان العربية والإسلامية (علم ولغة وإبداع)!!** متعجبًا: من أين جاء (هذا العلامة اللغوي) بنظرية (أن دراسة اللغة العامية تسبق دراسة اللغة الفصحى)؟!

ويعقب د. المبارك: في "دمشق" مدرسة فرنسية افتتحها مؤخرًا رئيس الجمهورية الفرنسية؛ فهل يبدؤون بتعليم اللهجات الفرنسية المحلية فيها قبل الفرنسية الفصيحة؟! وهل المليون سوري الذين يتقنون الفرنسية يعرفون لهجاتها أم لغتها الفصيحة؟!

ويرى د. المبارك أن العامية واقع لا يمكن إنكاره، لكن.. ثمة فرق كبير بين هذا الواقع وبين أن نجعله (قانونًا) ونضع له (القواعد والمعاجم).[١]

يا ليلَ أمتِنا الطويلَ متى نرى ... فجـــرًا تغردُ فوقَهُ الأمجـادُ

ومتى نـــرى بـوابـــةً مفتـــوحـةً ... للحقِّ تقصرُ عندَهـا الآمـــادُ

دعنـا نســافـرُ في دروبِ إبائنـا ... ولنـا مِنَ الهممِ العظيـمةِ زادُ

ميعادُنا النصرُ المبينُ فإنْ يكنْ ... مـوتٌ فعنـــدَ إلهنـــا الـميعـادُ[١]

عز اللغة من عز أهلها؛ فإن هان الأصل هان الفرع:

في العالم العربي غزو جديد تعرضت له اللغة العربية، إنه غزو متنها بالمفردات الكثيرة الدخيلة من اللغات الأجنبية؛ الشرقية أو الغربية، مع إمكان ترجمة هذه المفردات بما يفهمه الناطق العربي من لغته.

وقد نَفَّذ هذا الغزو . بقصد أو بدون قصد . مترجمو الكتب والبحوث الأجنبية، وفي مقدمتهم مستوردو الأفكار التي يريدون لها أن تغزو المعاقل الإسلامية، وتكسر أسوار الحصون الفكرية عند المسلمين. وقد تعمد هؤلاء أن يبقوا لهذه الألفاظ ظلها الغامض؛ حتى يكون لغموضها إشعاع سحري يجعل لها تأثيرًا على نفوس أمثال الببغاوات؛ من البسطاء الذين تعلموا صناعة الكتابة والقراءة، فهؤلاء يرددونها دون أن يفقهوا معانيها وما ترمي إليه.

كما يُسمح لها أن تهيمن على عقول العامة الذين يستسلمون للذين يرددونها، كما استسلموا من قبل لموجة العلوم المادية الحديثة ومصطلحاتها، واضطروا أن يقبلوا بها في مجالات كثيرة؛ وأهمها المجال الطبي الذين يسمعون فيه حشدًا لا حصر له من أسماء

---

[١] جريدة "الوطن" السورية، ٥/٤/٢٠١٠م (باختصار وتصرف).

[١] من قصيدة "عندما يعزف الرصاص" للمبدع/ عبد الرحمن العشماوي.

الأدوية المستوردة؛ التي لا حيلة في ترجمتها؛ وهم يظنون أن كل ما يأتي به العلم الحديث ينبغي أن يكون بلغة لا يفهمونها.

وامتلأت الكتب الحديثة والصحف والمجلات والخطابات والمحاضرات في الأندية والإذاعات وسائر وسائل الإعلام بهذا السيل المخيف المتدفق على متن اللغة العربية من المفردات الدخيلة؛ الشرقية والغربية.

وما حاجة اللغة العربية إلى إدخال مثل كلمة "بيولوجي" في متنها؛ مع إمكان ترجمتها بما يساوي معناها المراد، وهو "علم الحياة". أو إدخال مثل كلمة "فيزيولوجي" مع إمكان ترجمتها بما يساوي معناها؛ وهو "علم وظائف الأعضاء". أو إدخال مثل كلمة "سيكولوجي" مع إمكان ترجمتها بما يساوي معناها؛ وهو "علم النفس".
ونظيرها كلمات كثيرة؛ مثل: (جيولوجي – أيديولوجي – سيسيولوجي – آنثروبولوجي – ديماغوجي – ديكتاتوري – ديمقراطي – أوتوقراطي – أورستقراطي – بروليتاريا – راديكالي – فولكلور – كوكتيل).. إلى آخر هذا الحشد من المفردات الدخيلة التي بدأت تغزو متن اللغة العربية من غير حاجة إليها؛ لإمكان ترجمتها بما يدل على معناها من اللغة العربية الفصيحة.

أما الأعلام الأجنبية كأسماء الأشخاص، وأسماء الأدوية، وأسماء البلدان؛ فهذه لا مندوحة من قبولها بألفاظها، ولا مجال للاعتراض عليها؛ لعدم إمكان ترجمتها. وقد قبلت اللغة العربية منذ القديم هذا النوع، ولكننا نقصد ألفاظ المعاني التي يمكن ترجمتها إلى ألفاظ عربية، أو يمكن وضع مصطلحات عربية لها.

يقول فضيلة الشيخ/ محمد الغزالي رحمه الله: [لاحظت أن اللغة العربية تسير من تسعين سنة في منحدر، فالمفردات الدخيلة تطارد الكلمات الفصحى في كل ميدان.

عندما أكون في دار الإذاعة أسمع "الاستوديو"، و"تيست"، و"ستاندباى".. وعندما أرى مباريات الكرة أسمع "الجول"، و"الكورنر".. وعندما أكون في البيت أسمع

"بوتيك"، و"سوبر ماركت".. أما في عالم الفنادق فاللغة العربية مزدراة، كذلك في عالم الدواء والصيدليات.

وفي مصر اختيرت كلمة (المسرة) للتليفون، وفي الشام والجزيرة شاعت كلمة (الهاتف)، **ولا تزال كلمة (التليفون) أشيع!** واختيرت كلمة (كابح) للفرملة، و(مِقود) أو (زمام) للدركسيون، ومع ذلك فإن الكلمات الأجنبية لا تزال تجرى على الألسنة! وتكاد كلمة (مِذياع) تموت ليبقى اسم (الراديو) هو الأشيع، وقد نُحتت كلمة (تِلفاز) عن وزن سِروال وقِسطاس، وحرصنا على نشرها، ولكن مستقبل الكلمة لم يستقر بعد.

والغريب أن علماء الأزهر آثروا كلمات "ماجستير" و"دكتوراة" على غيرها، وما أبدع أن يقال: دكتور في الفقه، ودكتور في النحو..!

ومن قبل هذا البلاء المتنامي كان قد صدر حكم بطرد العربية من ميادين الطب والهندسة وسائر المعاهد العلمية.. كما أن ألفاظ الحضارة تفد كل يوم وتزيد حاملة طابعها الأجنبي؛ لايكاد ينفك عنها، فارضة الوحشة على لغتنا.

ويزعم نفر من القاصرين أن ترجمة الطب والهندسة وغيرهما صعبة، أو متعسرة، وهذا ستر للعجز العلمي والخلقي.

وقد قرأت كتابًا عن الحميات بالعربية للدكتور "إبراهيم حسن"، وكتابًا عن الأمراض الجلدية والتناسلية للدكتور "حبيب موسى"؛ وهما في عصرهما من أعلام الطب، وما عجزت لغتنا عن استيعاب المعانى كلها..

إننى أحتقر أي امرئ يطعن العربية دون غيرها من اللغات الأوربية أو الآسيوية، وهي لغات انتقل إليها الطب ولم تنتقل هي إلى الطب..] ا.هـ (بتصرف)

إن قبولنا بتحدي هذه الكلمات الأجنبية في غزوها للغتنا العربية استخذاء وخنوع لا يرضى به مسلم حريص على لغة الكتاب المجيد. وقد كان من الواجب أن لا يرضى به عربي يرى أنه يناصر قوميته.. فما بال جمهورٍ كبير من مثقفينا العرب يفتحون صدورهم لتقبل هذا الغزو الأجنبي للغتهم، ويتولونه بأنفسهم، ثم يتنطعون بين العامة والخاصة بترديد هذه الألفاظ الدخيلة؛ التي يوهمون بها أنهم أصحاب معرفة واسعة بالعلوم الحديثة.. لذلك فما على الجماهير إلا أن تستسلم لقيادتهم وتخضع لإرادتهم.

والمحذور الخطير في الأمر ما يفعله ترديد المفردات الدخيلة في المكتوبات العربية، وتداولها على الأسماع؛ من تهيئة الجو المناسب لها كيما تنتشر وتتمكن بين الجماهير العربية؛ حتى تكون هي الكلمات المحفوظة، وبعد حقبة من الزمن تُنسى ترجمتها العربية، ويصير الدخيل هو الأصيل صاحب الدار؛ إذ تتقبله الألسن، وتنسجم معه الأفكار.

ومن شأن هذا الأمر أن يعبِّد الطريق أمام موجات جديدة من المفردات الأجنبية العديدة؛ التي يراد لها أن تغزو لغتنا العربية. وحينما يكثر الدخيل الذي يزاحم المفردات العربية ويحل محلها؛ تصبح مهمة حَمَلَة لواء عزل العربية الفصحى عن ميادين الكتابة والعلم أسهل من ذي قبل.

إن التأثر الخسيس بالاستعمار الثقافي مِن وراء التدريس بالروسية، ولو انتصرت إسرائيل فسيكون التدريس بالعبرية..!

وظاهر أن الغزو الثقافي يصادف نصرًا بعد نصر، وأن الانحلال القومي يلف العامة والخاصة في ردائه المهين.

وقد حاول بعض (الموارنة)[١] أن يخدموا العربية بطريقة مريبة؛ فألفوا (قاموسًا)[٢] حرصوا على تجريده من كل أثارة للكتاب والسنة! ثم ألحقوا به فهرسًا للأعلام؛ ثلاثة أرباعه من أعلام أوروبا ومعالمها! وتلك محاولة متعمدة لمحو شخصيتنا؛ خطوة.. خطوة..

ويرى د. عبد الوهاب المسيري أن **اللغة العربية في مصر تتعرض لموجة من الهوس التغريبي. ووصف ما رصده على واجهات المحال التجارية واللافتات والشركات والأحياء السكنية والقرى السياحية التي كتبت بلغات أجنبية؛ بأنه استهانة باللغة العربية، وتعبير عن عقدة نفسية، واستلاب إلى الغرب.**

ويرى أن العجز ليس في اللغة؛ بل في أهلها وإرادتهم وتواطؤهم على إعلاء اللغة أو وأدها. فإن حماية اللغة اختبار حقيقي للإيمان بقدرة أهلها وقدرتها على أن تظل وعاءً للثقافة والتفكير والتعبير.

---

[١] مجموعة دينية تقطن في سواحل بلاد الشام؛ وخاصة في لبنان، وتتبع الكنيسة المارونية. تعود تسميتهم إلى (مار مارون) الراهب السرياني الذي عاش في شمال سوريا خلال القرن الرابع، وانتقل أتباعه لاحقا إلى جبل لبنان؛ ليقترن اسمهم به منذ القرن العاشر الميلادي؛ مؤسسين بذلك الكنيسة المارونية. تمكن الموارنة من الحفاظ على كيان شبه مستقل في خلال فترتي الخلافة الأموية والعباسية؛ محافظين بذلك على ديانتهم المسيحية ولغتهم السريانية حتى القرن الثالث عشر عندما تمكن المماليك من إخضاعهم. هيمن الموارنة لاحقا على كل من متصرفية جبل لبنان العثمانية بالقرن التاسع عشر وجمهورية لبنان الكبير برعاية دول أوربية. غير أن هجرة أعداد كبيرة منهم إلى الأمريكيتين، ونشوب الحرب الأهلية اللبنانية أدى إلى تقلص أعدادهم بشكل حاد؛ حيث يشكلون حاليا حوالي ربع عدد سكان لبنان. [الموسوعة الحرة]

[٢] قاموس "المنجد" وضعه (الراهب) الأب "لويس معلوف" عام ١٩٠٨م، وكان يقتصر في ذلك الوقت على اللغة، ثم أضيف إليه قسم (الأعلام) اعتبارا من عام١٩٥٦، وقام بوضعه (راهب) آخر هو الأب "فرنارد توتل". وهو أحد أكثر المعاجم العربية توزيعًا؛ حيث صدر منه (إحدى وأربعون) طبعة. وقد اشتهر بجودة طباعته، ودعمه بوسائل الإيضاح، وسهولة استعماله، و(رخص ثمنه). ويطبع هذا القاموس ويتم إخراجه في المطبعة (الكاثوليكية) في لبنان. واحتج على "المنجد" عدد من الكتاب المسلمين كونه لا ينصف التعريفات الإسلامية. وقد صدر عدة كتب ومقالات حول هذا الموضوع منها: كتاب "عثرات المنجد في الأدب والعلوم والأعلام": للأستاذ إبراهيم القطان – كتاب "النزعة النصرانية في قاموس المنجد": للدكتور إبراهيم عوض – سلسلة مقالات للأستاذ منير العمادي، نشرت في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق – مجموعة مقالات لعلامة المغرب الشيخ عبد الله كنون، منشورة في مجلة دعوة الحق. [الموسوعة الحرة]

إن الهمج أتباع لكل ناعق، وأذيال لكل غالب، والآن نرى فلاحين من أعماق القرى، أو أعرابًا من سكان الصحراء يرسلون إلى الإذاعات في لندن وواشنطن يطلبون سماع أغانٍ أجنبية، ويهدونها إلى آبائهم أو أمهاتهم الجالسين على الأكوام أو تحت الخيام!!

نحن ما تقدمنا خطوة فى طريق شرفنا، وصون تراثنا؛ بل **تأخرنا خطوات، وحاصرتنا الرطانات الأعجمية والكلمات العامية..**[١]

وفي الآونة الأخيرة انتشرت **(ظاهرة لغوية)** بين الشبان العرب انتشار النار في الهشيم، وتعدُّ امتدادًا لدعوة كتابة العربية بالعامية المختلطة بالأجنبية وبالأحرف اللاتينية، ومن أسمائها **"لغة الإنترنت" أو "لغة الشات" أو "الفرانكو أراب"**، وهي لغة هجينَة مُكوَّنة مِن كلمات عربية عامية، وأخرى إنجليزية، مكتوبة بأحرف إنجليزية وأرقامٍ تعبر عن أصوات عربية لا وجود لها في الإنجليزية.

وتُنطق هذه اللغة مثل العربية تمامًا، إلا أن الأحرف المستخدمة في الكتابة هي الأحرف والأرقام اللاتينية بطريقة تُشبه الشَّفرة!

والرموز المقصودة من الأرقام هي الأحرف الآتية: (٢:أ)، (٣:ع)، (٥:خ)، (٦:ط)، (٧:ح)، (٨:غ)

وحقيقة الأمر أن المشكلة مرتبطة بأمرَين هما: كون اللغة الإنجليزية اليوم هي اللغة الأولى في مواقع الشبكة العنكبوتية وبرامج الحاسب، وأنها لغة العلم والثقافة.. فهذا قضى بأن يكون استعمال الشبان الحرف اللاتيني أكثر مِن استعمالهم الحرف العربي، **وهي مرتبطة أيضًا بأزمة الهُوية العربية والإسلامية عند الشبان**، وبحجَّة التقارب بين

---

[١] أجنحة المكر الثلاثة: د. عبد الرحمن حَبَنَّكة – مستقبل العربية وآدابها: فضيلة الشيخ/محمد الغزالي. (بتصرف)

الحضارات الغربية والشرقية والعربية، لاسيما أن أول ظهورها في البلاد العربية كان بين طلاب المدارس الأجنبية الذين لا يُتقنون الإنجليزية ولا العربية، فوجدوا فيها بديلاً عن الإنجليزية التي لم يتمكَّنوا من إتقان قواعدها وأساليبها، فاستكانوا إلى أحرُفِها فحسب، والمؤسف أن هذه اللغة الهجينة هي أسهل عند بعض الطلاب العرب مِن العربية؛ إذ وجدتُ – مِن خلال تجربتي مع الطلاب – مَن يكتب دروسه وملاحظاته، ويقدِّم امتحاناته بهذه اللغة، وكلُّه على حساب لغتهم الأصلية، وهي اللغة العربية.

وزاد الأمر سوءًا أن انتقلت هذه الظاهرة إلى الإعلام المرئي، فصارت بعض البرامج الترفيهيَّة والدينية ذات الجمهور الشبابي تخطُّ عناوينها وأسماء القائمين عليها بهذه الأحرف، ومن أهمِّها برنامج الدكتور "عمرو خالد" المسمَّى "بكرة أحلى"، الذي يُعرَض على القناة المصرية الرسمية؛ فإنَّهم أضافوا أسفل الاسم العربي للبرنامج، اسمَه بأحرُف لغة الدردشة، فكتبوا: **"bokra a7la"**!!

وهذا مؤشر سيئ جدًّا؛ لأنه يرسخ هذه الظاهرة بين الشبان، ويَنقلها من الإعلام الإلكتروني إلى الإعلام المرئي ذي الجمهور الأوسع، ولأنه يَشي بعدم تنبُّه الإعلاميِّين إلى خطورة انتشار هذه الظاهرة وشيوعها بين الشبان، وما تَحمله مِن معاوِل لهدم العربية وأحرُفها وفصاحتها.

فالحرب على الفصحى لم يتغيَّر جَوهرُها وأهدافها؛

وإنما الذي تغيَّر هو أسلوبها ووسائلها.[1]

يـا ويحَكم! حتّى لسانُ نبيِّكم *** أضـحى غـريبًا دائـمَ الحسراتِ
ذاك اللسانُ لسانُ وحيِ إلهِكم *** لا تـهـجروه.. ففيهِ عـزُّ حياةِ
قـرآنُكم بلسانِكم مُـتَـنـزِّلٌ *** هـذا – لعمري – أعظمُ النَّفحاتِ

[1] لغة الدردشة.. ظاهرة تستحق التوعية: د.محمد أنس سرميني/شبكة الألوكة ٢٠١٣/٢/٢٧ (باختصار وتصرف يسير).

هـذا -لعمري- عزُّكم ونجاتُكم *** لا تـجعلـــوه ضـلّـةَ الـرَّغبـاتِ
فـعـدوُّكم مـتـربّـصٌ بفنـــائهِ *** قـد ذلَّ أقـوامٌ بـذلِّ لـغـــاتِ
عـربيةٌ صـفـحاتُ مـجدِ تُراثِكم *** هيّا احفظوها رَغمَ أنفِ دُعاةِ
مـا عـزَّ أقـوامٌ بـموتِ لسانِهم *** فلسانُهم رمـزٌ لـكلِّ ثبـــاتِ [1]

انتكاسات تثير العجب:

يتفق مع الدوائر الاستعمارية في محاربة العربية الفصحى جناحا التبشير والاستشراق، وتؤازر الأجنحة الثلاثة الدوائر الصهيونية والدوائر الماركسية، وأعوان جميع هؤلاء الأعداء، وأُجراؤهم، وأنصارهم، والسائرون في أفلاكهم.

وقد كان أول من استجاب للكتابة بالعاميات الإقليمية دور السينما العربية والمسارح، وكُتَّاب الأغاني، وبعض أصحاب المجلات الفكاهية والهزلية، ومروجو الفنون الشعبية.

وعلى الرغم من انطلاق هؤلاء في هذا المضمار؛ مع اختلاف الدوافع التي أملت عليهم ذلك؛ ومنها دوافع تتصل بمهماتهم الفنية والتجارية البحتة؛ فقد ظلت النسبة العظمى من هذه الكتابات أقوالاً تُسمع ولا تُقرأ، وما يُقرأ منها فهو ذو طابع زمني ينقرض بانقراض زمانه؛ شأنه كشأن معظم الأحاديث والقصص والفكاهات والأمثال العامية، التي تدور على ألسنة العامة في أوقاتها دون أن يجد فيها الجيل اللاحق الأثر الذي كان يجده فيها الجيل السابق.

وهذه التجارب التي تمر بها ميادين الفنون ستقدم الدليل القوي على أن العاميات الإقليمية ليس من شأنها أن يُكتب لها الخلود والبقاء؛ إذ ستنتصر عليها العربية

[1] قصيدة "عربيّة صفحاتُ مجدِ تراثِكم" للشاعر: صالح محمد جرار/موقع رابطة أدباء الشام.

الفصحى، وتثبت أنها هي الجديرة بالبقاء؛ لما تتمتع به من رقي لغوي وضبط تام يستطاع معه الطمأنينة على ضمان وسلامة المعاني، وحفظها من الميوعة والتحريف والبِلَى مع الزمن.

وآزر الدعوة إلى العامية وترك الكتابة بالحروف العربية منخدعون ومأجورون ومستغربون من أبناء اللغة العربية، وتحمس لها طائفة من رجال الكنيسة، وانتقلت هذه الدعوة من مصر إلى المغرب وإلى لبنان.

وانجرف في تيارها عدد من قادة الأدب العربي، ما بين مساير للمستشرقين مسايرة تامة، ومعتدل متوسط، ومتخذ بعض الخطوات التي أطلق عليها اسم الإصلاح.

فكان "لطفي سيد" من أوائل المصريين الذين حملوا لواء الدعوة إلى العامية بعد أن مهد لها دعاتها من المستشرقين: فمن أخطر الأعمال التي قام بها "لطفي السيد" حملته على اللغة العربية الفصحى، والتي دفعته بالتبعية لأن يواصل الخطة التي بدأها الاستعمار البريطاني بقيادة "ولكوكس". وقد كانت محاولته ماكرة خبيثة بدأها في (١٨٩٩م) في مجلة "الموسوعات"؛ حيث **ادعى أن اللغة العربية أصبح تعلمها أبعد منالاً من تعلم اللغات الأجنبية، ودعا إلى تسكين حروف الهجاء وفك الإدغام، وإهمال الشكل، وسخر من هذه الضوابط كلها..**

ثم وسع نطاق الدعوة عام (١٩١٣م) في جريدة "الجريدة" فكتب أكثر من سبع مقالات (إبريل-ومايو ١٩١٣م)، وكان في هذه الحملة خادعًا؛ فلم يفاجئ القارئ بآرائه الصادمة، ولم يَدْعُ إلى ترك الكتابة بالفصحى واستبدالها بالعامية، بل تسلل إلى ذلك بطريقة فيها كثير من المكر والمداورة، وكانت دعوته إلى إدخال الكلمات الأجنبية مثل: (الأتومبيل والبسكلت والجاكتة والبنطلون وغيرها) إلى اللغة العربية،

وقال: إنها دخلت اللغة فعلاً، وإننا لا نستطيع أن نضع لها ولا لغيرها من المسميات الجديدة أسماء جديدة. وقال: **الأسماء الجديدة مالها لو أخذناها (زي ماهية).**

وقال: إن اللغة ملك للأمة، وللكُتَّاب الحرية في الزيادة عليها بأساليب جديدة وألفاظ جديدة، وأنه لا حرج على الكاتب أو المترجم أن يستعمل من الألفاظ ما شاء لما شاء من المعاني.

وقال: نريد أن لا نذر (اللغة العامية) أو لغة الشعب تموت بإبعاد عربيتها وفصيحها عن عالم الكتابة والعلم، ونريد أن نرفع لغة العامة إلى الاستعمال الكتابي، وننزل بالضروري من اللغة المكتوبة إلى ميدان التخاطب والتعامل.

وقال: إن كل الحروف تكون ساكنة ولا تتحرك إلا بحروف العلة.

هذه هي المؤامرة التي حمل لواءها "لطفي السيد" الملقب زورًا بـ"أستاذ الجيل"؛ والذي اختير رئيسًا لمجمع اللغة العربية. وقد عاشت هذه الأفكار قائمة في حياته وفكره، بل عمل المجمع على تحقيقها بعد أن ضم إليه عدد من خصوم اللغة العربية؛ أمثال "طه حسين" و"عبد العزيز فهمي"، ومن بعد ذلك عدد كبير من (التغريبيين).

وقد وقف عبد الرحمن البرقوقي ومصطفى صادق الرافعي في مجلة "البيان" موقفًا حاسمًا جريئًا في الدفاع عن اللغة العربية، وقد حملا لواء الاتهام للطفي السيد؛ مؤمنين بأن القضاء على اللغة العربية هو قضاء على أقدس مقدسات الأمة الإسلامية.

وفي إطار الدعوة إلى كتابة العربية بالحروف اللاتينية، أو إصلاح الكتابة العربية، قدمت عشرات من المشروعات؛ أخطرها مشروع قدمه **"عبد العزيز فهمي" باشا** عضو مجمع اللغة العربية، حيث تقدم سنة (١٩٤٣م) باقتراح **لاستبدال الحروف**

اللاتينية بالحروف العربية، وشغل المجمع ببحث اقتراحه ثلاث سنوات حتى خصص المجمع جائزة مالية لمن يتقدم بأحسن اقتراح لتيسير الكتابة العربية.

وقد أثار "عبد العزيز فهمي" باشا بهذا المشروع فتنة شعواء، يحارب فيها لغة العرب، ويسعى لتمزيقها، ثم يحاول أن يَظهر للناس في ثوب نصيرها المدافع عنها. وما يدعو إليه استمرار لمحاولة قديمة من فئة معروفة كانت تدعو إلى اتخاذ اللهجات العامية لغة رسمية للقراءة والكتابة والتعليم..

وقد أراد الله أن يوفقه للإبانة عن ذات نفسه، والكشف عن خبيئة قلبه، ليوقن الناس أن **بدعة الحروف اللاتينية جزء من خطة مرسومة واضحة مدمِّرة، يظن أصحابها أن سيفلحون.**

وقوبل (مشروعه) بالسخط والنكير الشديدين من حماة اللغة العربية الذائدين عنها.

وكان من المتوسطين الذين دعوا إلى نشر اللغة الوسطى بين العامية والفصحى: **"فريد أبو حديد"، و"توفيق الحكيم" الذي دعا إلى قاعدة (سكِّن تَسلم)!، و"أمين الخولي".**

ثم دعا **"طه حسين"** إلى ما أسماه "تطوير اللغة" بتبديل الخط العربي أو إصلاحه وتهذيب قواعد "النحو والصرف".. **ولا يخفى ما في ذلك من مكر يقوم على أسلوب التدرج في التحويل، لتحقيق الهدف الذي دعا إليه المستشرقون.**

ثم حمل لواء الدعوة[1] التي دعا إليها المستشرقون الذين سبق ذكرهم عدد من أدباء العرب في لبنان وغيره، منهم: **"سعيد عقل" الذي قال في وقاحة عجيبة: من أراد لغة القرآن فليذهب إلى أرض القرآن..**

[1] استخدام اللغة العامية، والكتابة بالحروف اللاتينية.

"أنيس فريحة الخوري" الذي قبل اقتراح "عبد العزيز فهمي"؛ لأنه يَضبط لفظة اللغة مرةً واحدة لجميع الناس. ويرى أن الحرف العربي لا يصلح لتدوين اللهجة العامية.

و"لويس عوض" الصليبي الشيوعي، الذي صنف كتابًا أهداه إلى "كريستوفر سكيف" الجاسوس الإنجليزي، وكتب ديوانه (بلوتو لاند) عام ١٩٤٧م، ودعا فيه إلى كسر رقبة البلاغة العربية، وإلى الكتابة بالعامية.

وقد لا نعجب كثيرًا إذا وجدنا معظم المتحمسين للفكرة من (النصارى)؛ لأنهم يعبرون في ذلك عن كراهيتهم للإسلام ولغة القرآن، ولكن نعجب أشد العجب إذا رأينا من أحفاد السلالات العربية الإسلامية من يُستأجر للدعوة إليها.

وعلى الرغم من أن الدعوة لم يُكتب لها النجاح في العالم العربي، إلا أن الغزاة المقنَّعين لم ييأسوا من تكرار محاولاتهم، وتحريك أجهزتهم، لعلهم يحققون بعض أهدافهم الرامية إلى طعن العربية الفصحى، وطعن الإسلام من وراء ذلك، وتمزيق وحدة الأمة العربية المسلمة.

ففي يونيو سنة (١٩٧٣م) انعقد مؤتمر في "برمّانا"[١] بلبنان، وفي هذا المؤتمر تقدمت بعض الهيئات الأجنبية بمشروع "العربية الأساسية"، ويشتمل هذا المشروع على عناصر هدم لمعالم اللغة العربية، ولما علم شيخ الأزهر يومئذ الدكتور الشيخ "عبد الحليم محمود" بما جاء في هذا المشروع أعلن استنكاره، ووجه التحذير منه.

وكشف الدكتور "عمر فروخ" -في تقريره عما دار في المؤتمر- خيوط المكيدة المدبرة ضد اللغة العربية والإسلام، إذ قال في تقريره: "وفي أثناء الجلسات الرسمية للمؤتمر، وفي الفترات المتعددة بين الجلسات، جرت بحوث واقتراحات وملاحظات؛ جعلتني أوجس خيفة شديدة من المشروع.. إن كل ما دار في مؤتمر "برمّانا" كان يولد

[١] قرية لبنانية من قرى قضاء المتن في محافظة جبل لبنان. تبعد عن العاصمة بيروت عشرين كيلومترًا.

فيَّ شعورًا بأن الغاية الأولى والأخيرة من المؤتمر الاهتمام بالعامية. لقد حضر هذا المؤتمر عدد قليل من اللبنانيين، ونفر من العرب غير اللبنانيين، (وكثرة) من الأجانب، لفت نظري أن جلَّهم من الرهبان اليسوعيين.."![1]

ويعلق على هذه الانتكاسات المريبة اللواء الركن محمود شيت خطاب قائلا: [في سنة ١٩١٧م صدر (وعد بلفور) الذي عزز الأطماع الصهيونية وبعث آمالها، فاشتدت عزائم الصهيونية والاستعمار لتحقيق أهدافها في التشكيك بجدوى القرآن الكريم لغة وعقيدة وتشريعًا.

في هذا الوقت بالذات، ظهرت أصوات عربية ناشزة، تدعو إلى العامية تارة، وتدعو إلى كتابة العربية بالأحرف اللاتينية، ليصبح هذا القرآن مهجورًا ولتصبح اللغة العربية التي تربط العرب من المحيط إلى الخليج بإخوانهم المسلمين من الخليج إلى المحيط، لغة المقابر والكهوف، كما عبر عنها أحد المريبين من العرب المسلمين ومن العرب غير المسلمين أيضًا مع الأسف الشديد.

وأتساءل والأسى يذيب قلبي: **هل كانت صدفة من الصدف، أن تُطرح فكرة بعث التوراة لغة وعقيدة بإماتة القرآن لغة وعقيدة وتشريعًا؟!**

الذين يدعون بأن الصدفة عملت عملها، لا بد أن يكونوا قد ألغوا عقولهم، والذين يصدقون هذا الادعاء لا بد أن يكونوا من المغرر بهم كل التغرير، أو من الجهلاء كل الجهل، أو من العملاء كل العمالة.

إن وراء إماتة القرآن الكريم لغة وعقيدة وتشريعًا، الاستعمار أولا، ووسيلتهم بذلك نفوذهم وعملاؤهم. والصهيونية العالمية ثانيًا، ووسيلتها في ذلك (الماسونية) والمال الصهيوني والدعاية الصهيونية. فلا تعجبوا بعد ذلك أن يصبح "سلامة موسى" من

---

[1] حُكْم الجاهلية: أحمد شاكر– أجنحة المكر الثلاثة: عبد الرحمن حَبَنَّكة– أعلام وأقزام في ميزان الإسلام: د.سيد العفاني– الهَجْمة على اللغة العربية: مقال لإبراهيم بن سعد الحقيل/ مجلة "البيان".

قادة الفكر العربي، وأن يمسي الذي شارك في افتتاح الجامعة العبرية في القدس سنة ١٩٣٩م عميد الأدب العربي.

لقد اكتشفت أن الذين دعوا إلى اللغة العامية وإلى كتابة العربية بالحروف اللاتينية من (الماسون)، وأن الذي رفع ذكرهم بين الناس هم الماسون والاستعمار.

ودليلي على ذلك هو وجود أسمائهم في "معجم المحافل الماسونية في الشرق"، وهو كتاب مطبوع في بيروت.

إن أصابع الماسونية وراء هؤلاء الإمعات الخونة الذين لم يدخلوا في حياتهم مسجدًا، ولم يؤدوا صلاة فيه أبدًا.] [١]

والفضل ما شهدت به الأعداء:

قال المبشر الأمريكي "جورج بوست": **لغة العرب تفوق كل لغة في الانتشار إذا نظرنا إلى اتساع الأقطار التي لها فيها سلطان. وهي تفوق أيضًا كل لغة إذا نظرنا على التأثير في مستقبل الأعمال البشرية، ولا نستثني من كل تلك اللغات إلا لغتنا الإنجليزية.**

وقال أحد علماء الإنجليز المتمكنين من علوم العرب يصف لسانهم؛ نقلاً عن المبشر "زويمر": **إنه خالص من شوائب الدخيل، غني بنفسه عن غيره. وفيه مقدرة عجيبة على إيضاح المعاني وإظهار الأفكار، ومفرداته لا تحصى ولا تعد، وقواعده النحوية في غاية المتانة، وبالاختصار به يسهل عرض الموضوعات الدينية والفلسفية والعلمية، بطريقة لا تفوقها لغة إلا الإنجليزية وبعض لغات أخرى قليلة رقاها الدين النصراني في أوربا الوسطى.**

---

[١] التربية الاستعمارية: مقال لمحمود شيت خطاب/ مجلة البحوث الإسلامية (٢/ ٤٧٠).

وقال المستشرق الفرنسي "إرنست رينان": **من أغرب ما وقع في تاريخ البشر انتشار اللغة العربية فقد كانت غير معروفة؛ فبدأت فجأة في غاية الكمال؛ سلسة غنية كاملة؛ فليس لها طفولة ولا شيخوخة. تلك اللغة التي فاقت أخواتها بكثرة مفرداتها ودقة معانيها وحسن نظام مبانيها.**

وقال المستشرق الألماني "فريتاج": **اللغة العربية أغنى لغات العالم.**

وقال "وليم ورك": **إن للعربية لينًا ومرونةً يمكنانها من التكيف وفقًا لمقتضيات العصر.**

وقال الفرنسي "وليم مرسيه": **العبارة العربية كالعود إذا نقرت على أحد أوتاره رنت لديك جميع الأوتار وخفقت، ثم تحرك اللغة في أعماق النفس من وراء حدود المعنى المباشر موكبًا من العواطف والصور.**

وقال الفرنسي "لويس ماسينيون": **اللغة العربية هي التي أدخلت في الغرب طريقة التعبير العلمي، والعربية من أنقى اللغات؛ فقد تفردت في طرق التعبير العلمي والفني والأدبي.**

وقال الألماني "يوهان فك": **لقد برهن جبروت التراث العربي الخالد على أنه أقوى من كل محاولة**[1].

وقال البلجيكي "جورج سارتون": **إن اللغة العربية أسهل لغات العالم وأوضحها، فمن العبث إجهاد النفس في ابتكار طريقة جديدة لتسهيل السهل وتوضيح الواضح، فإذا فتحت أي خطاب فلن تجد صعوبة في قراءة أردأ خط به، وهذه هي طبيعة الكتابة العربية التي تتسم بالسهولة والوضوح.**

---

[1] يقصد بها زحزحة العربية الفصحى عن مقامها المسيطر.

وقال الإيطالي "كارلو نلينو": **اللغة العربية تفوق سائر اللغات رونقًا، ويعجز اللسان عن وصف محاسنها.**

وقال الإسباني "فيلا سبازا": **اللغة العربية من أغنى لغات العالم، بل هي أرقى من لغات أوروبا؛ لأنها تتضمن كل أدوات التعبير في أصولها، في حين الفرنسية والإنجليزية والإيطالية وسواها قد تحدرت من لغات ميتة. وإني لأعجب لفئة كثيرة من أبناء الشرق العربي يتظاهر أفرادها بتفهم الثقافات الغربية، ويخدعون أنفسهم؛ ليقال عنهم إنهم متمدنون.**

وقال الألماني "كارل بروكلمان": **بلغت العربية بفضل القرآن من الاتساع مدىً لا تكاد تعرفه أي لغة أخرى من لغات الدنيا.**

ويذكر د. مازن المبارك أنه سمع المستشرق الفرنسي "جاك بيرل" في جامعة قطر منتصف السبعينات يقول: **لقد كتبت أن اللغة العربية الكلاسيكية، نعم الكلاسيكية بالذات، أعني الفصحى؛ هي التي بلورت الشعب الجزائري وكانت من أقوى أسلحة المقاومة التي حررت الشعوب المغربية.**

ومن أطرف ما قيل في مدح المعارف الدنيوية: **استوى الكمال على ثلاثة أشياء: مخ الإفرنج، وأيدي أهل الصين، ولسان العرب.**[1]

يطالبوننا بالتخلي عن لغتنا وهم أشد الناس تمسكًا بلغاتهم:

تحرص كل الشعوب على لغاتها، وتحاول الاحتفاظ بها ونشرها بين الناس، كما يفعل الاستعماريون وغيرهم من ذوي النزعات القومية.

---

[1] عليكم باللغة العربية سيدة اللغات: مقال لمحمود بك سالم رئيس جماعة الدعوة والإرشاد/ مجلة المنار (١٤/ ٤٤١) – العربية بين التعريب والتهويد:د.فهد خليل زايد.

ولا ينقضي العجب حينما نرى الغربيين على وجه الخصوص الذين كانوا وما زالوا يطالبوننا بفتح الأبواب للغاتهم سواء إنجليزية أو فرنسية والتخلي عن لغتنا؛ هم أشد الناس تمسكًا بلغاتهم..!

ومن سافر إلى بعض بلاد الغرب، مثل "فرنسا" أو "ألمانيا"؛ لا يجد للغة الإنجليزية ذلك الحضور الذي يجده لها في بلادنا العربية والإسلامية..! فلا أسماء المحلات تكتب بالإنجليزية، ولا اللوحات الإرشادية أو التوجيهات الصوتية في المطارات أو في غيرها؛ بخلاف الأوراق الرسمية للاتحاد الأوروبي كتبت بالإنجليزية.

وعناية الإنجليز بالغة بضبط لغتهم ونشرها، وما في لغتهم إلا ما يكسب المهارة في بعض العلوم الحديثة، ولا أدرى ماذا أعمى العرب عن عشرات الدروب ينشرون فيها لغة القرآن، ويبصرون الدنيا بمعالم الوحي الأعلى.

والفرنسيون شديدو الاعتزاز بلغتهم، ويرفضون استخدام تعبيرات أمريكية، أو أسماء إنجليزية للدلالة على ما يريدون؛ ففي ذلك اتهام للغة الفرنسية، وإهانة لها..!

وذهب الفرنسيون إلى أبعد من ذلك.. أبعد من مجرد الرفض والاستنكار إلى فرض (عقوبات) على من يستعمل كلمات إنجليزية وأمريكية في حديثه.. ولا تسمح الدولة بالترخيص لأى محل أو شركة أو مؤسسة لا تحمل اسمًا فرنسيًّا.

وجاء في بيان الثورة الفرنسية: **أيها المواطنون.. ليدفع كلاًّ منكم تسابقٌ مقدس للقضاء على اللهجات في جميع أقطار فرنسا؛ لأن تلك اللهجات رواسب من بقايا عهود الإقطاع والاستعباد.. يجب أن تُعالَج هذه المشكلة معالجة جدية؛ وذلك بمحاربة اللهجات المحلية، ونشر اللغة الفرنسية الفصيحة بين جميع المواطنين.**

وقال الراهب الفرنسي "غريغوار": إن مبدأ المساواة الذي أقرته الثورة يقضي بفتح أبواب التوظف أمام جميع المواطنين، ولكن تسليم زمام الإدارة إلى أشخاص لا يحسنون اللغة القومية يؤدي إلى محاذير كبيرة، وأما ترك هؤلاء خارج ميادين الحكم والإدارة فيخالف مبدأ المساواة، فيترتب على الثورة – والحالة هذه – أن تعالج هذه المشكلة معالجة جدية؛ **وذلك (بمحاربة اللهجات المحلية)، ونشر اللغة الفرنسية (الفصيحة) بين جميع المواطنين..!!**

وفي هذا الصدد **قال الرئيس الفرنسي السابق "فرانسوا ميتران" في مواجهة زحف اللغة الإنجليزية على بلاده: إن العالم لن يسمع لأمة تتحدث بلسانِ غيرِها.**

وقال الرافعي: هل أعجب من أن المجمع العلمي الفرنسي يُؤْذِن في قومه بإبطال كلمة إنجليزية كانت في الألسنة من أثر الحرب الكبرى، ويوجب إسقاطها من اللغة جملة؛ وهي كلمة "نظام الحصر البحري"، وكانت مما جاءت مع نكبات فرنسا في الحرب العظمى، فلما ذهبت تلك النكبات **رأى المجمع العلمي أن الكلمة وحدها (نكبة) على اللغة؛ كأنها جندي دولة أجنبية في أرض دولة مستقلة بشارَتِه وسلاحِه وعَلَمه يُعلن عن قهر أو غلبة أو استعباد. ا.هـ**

والألمان يشعرون بالانزعاج لمن يحدثهم بغير لغتهم، ويرفضون الإجابة عنه حتى وإن كانوا يحسنون الحديث بها..!! وهم من أكثر الشعوب اعتزازًا بلغتهم، فقد كان لهم نصيب من هذا القلق المتزايد؛ حيث اتسع في ألمانيا نطاق المناداة بسن قوانين لحماية اللغة الألمانية من تأثير اللغات الأخرى؛ وعلى رأسها اللغة الإنجليزية التي يعتقد اللغويون الألمان أن مصطلحاتها بدأت تشكل خطورة على سلامة لغتهم.

فالألمان الذين هدموا قبل عقد مضى جدار برلين الشهير، في ثورة سلمية أعادت الوحدة إلى شطري بلدهم؛ يحاولون الآن بناء جدار حديدي من نوع آخر للحفاظ على هُويتهم الثقافية واللغوية من طغيان الغزو الثقافي واللغوي القادم من

"الولايات المتحدة" و"بريطانيا" متخفيًا برداء اللغة الإنجليزية، والمصطلحات التي تقض مضجع اللغويين الألمان.

ويطالب هؤلاء بأن تحذو بلادهم حذو "فرنسا" بسن تشريعات تمنع استخدام المصطلحات الأجنبية في الإعلانات ووسائل الإعلام. ويعترف وزير الثقافة الألماني بوجود المشكلة، لكنه يرفض فكرة سن قوانين قد تؤدي إلى استحداث شرطة للغة؛ لأن هذا سيكون فيه نوع من القسوة غير المسوغة. ويتفق مع رأي الوزير عدد من اللغويين الألمان غير أنهم **يؤكدون ضرورة اتخاذ إجراء ما لحماية اللغة التي يعتبرونها أغلى ما تملكه أي أمة للحفاظ على وجودها.**

والصين ينتابها القلق من هذا الانتشار الواسع أو العولمة للغة الإنجليزية في بلادهم من خلال الأفلام الأمريكية التي يحرص الشباب على متابعتها ثم التأثر بها، مما دفع الحكومة الصينية إلى إصدار أول قانون للغة من أجل الوقوف أمام الخطر الذي يتهدد اللغة الصينية. ويلزم القانون الذي بدأ العمل به اعتبارًا من مطلع شهر يناير ٢٠٠١م وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة بضرورة الالتزام بالأسس المتعارف عليها في اللغة الصينية المعتمدة على الكتابة المبسطة في الصين الأم بعيدًا عن الكتابة المعقدة المتبعة في المستعمرة البريطانية السابقة "هونج كونج".

وهذا "شوان لاي" الوزير الصيني المشهور (١٨٩٨ - ١٩٧٦) كان يلتزم اللغة الصينية في لقائه مع السياسيين الأجانب أفرادًا ووفودًا؛ مع أنه كان يتقن الإنجليزية والفرنسية! وعلل ذلك بأن **اللغة القومية قطعة مهمة من الوطن وتاريخه وتراثه. وهي بالنسبة لنا (روح) يجب ألا ينقطع أو يتوقف.**

أما اليهود فيتمسكون بـ(العِبرية) تمسكًا شديدًا ضمن دوافع دينية وعِرقية قومية؛ ولو نشأ ناشئوهم بين شعب لا يتكلَّم العبرية مطلقًا، وقد يصل التعصب ببعضهم إلى رفض تعلم لغة أخرى.

ومن المفارقات العجيبة أن "السادات" عندما ألقى خطابًا بالإنجليزية (الثقيلة البطيئة) في مدينة "بير سبع" التي اغتصبها الصهاينة من أرض فلسطين، قام بعده عُمدة "بير سبع" الإسرائيلي وألقى خطبته بالعربية الفصحى! وهذا يُعد لطمة لرئيس الجمهورية "السادات"؛ كأنما يريد هذا الإسرائيلي أن يقول بلسان الحال: نحن أولى بالعربية منكم..! وتزداد الإهانة بشاعة؛ إذ يقول العُمدة الإسرائيلي بالعربية الفصحى: "وحرصًا منا يا سيادة الرئيس على السلام منحناكم أرضًا (يقصد سيناء) مساحتها ثلاثة أمثال مساحة إسرائيل". ولم يعلق "السادات" بكلمة واحدة، بل ظل يبتسم وهو يدخن..![1]

الإقبال على تفهم اللغة العربية من الديانة:

أمة العرب التي كرمها الله ورفع شأنها باصطفاء عبده الأكرم من بين أشراف أشرافها؛ ليكون خاتم النبيين، فقد جعلت لغتها آلة تحمل شريعتها التي ستدوم ما دامت الأفلاك؛ إذ لا نبي بعده ولا دين بعد هذا الدين. فاكتسبت تلك اللغة المشرفة بين لهجات البشر مركزًا لا يباريها فيه لسان، من وقت أن صارت منطق الملائكة أنفسهم في السماء، وامتزجت بالكتاب المجيد امتزاج الروح بالجسد.

وقد أوتيت الأمة العربية أرقى هبات البلاغة، وأجمل صفات الفصاحة؛ لتتهيأ لقبول تلك المعجزة الباقية المستمرة ما دامت الصحف والكتب. تلك المعجزة التي ظهرت على يد نبي أمي لا يعرف قراءة ولا كتابة، وكانت لأئمة البيان والكلام حدًّا يقف أمامه العاقل باحترام، ويبهت أمامه المعاند بخذلان.

---

[1] تحت راية القرآن: مصطفى صادق الرافعي– مستقبل العربية وآدابها: محمد الغزالي – العولمة اللغوية: مقال لهيثم بن جواد الحداد/مجلة البيان (٥٩/١٧٠)

فالعربية هى لسان الوحى، وهى اللغة الرسمية للإسلام، وفرض على العرب أن ينشروها.. والحق أن عالمية الرسالة تقتضى عالمية اللغة، ومن هنا أقبل المسلمون الأوائل على نشر العربية مع الإسلام، وبذلوا فى ذلك جهدًا مشكورًا.

يقول "أبو منصور الثعالبي" في مقدمة كتابه: "فقه اللغة وسر العربية": [فإن مَن أحب الله تعالى أحب رسوله محمدًا صلى الله عليه وسلم، ومَن أحبَّ الرسول العربي أحبَّ العرب، ومَن أحبَّ العرب أحبَّ العربية التي بها نزل أفضل الكتب على أفضل العجم والعرب، ومَن أحبَّ العربية عُنِيَ بها وثابر عليها وصرف همَّته إليها. ومَن هداه الله للإسلام، وشرح صدره للإيمان، وآتاه حسن سريرة فيه اعتقد أن محمدًا صلى الله عليه وسلم خير الرسل، والإسلام خير الملل، والعرب خير الأمم، والعربية خير اللغات والألسنة.

والإقبال على تفهمها من الديانة؛ إذ هي أداة العلم، ومفتاح التفقه في الدين، وسبب إصلاح المعاش والمعاد.. ثم هي لإحراز الفضائل، والاحتواء على المروءة، وسائر أنواع المناقب؛ كالينبوع للماء، والزند للنار.]ا.هـ

ومن يخدم اللغة العربية فإنه يخدم الإسلام، وخدمة الإسلام تؤدي إلى ترقية بني الإنسان كلهم أجمعين.

وبرقي اللغة العربية يسود القرآن، وتنتشر علومه، وتزيد الشعوب العربية ارتباطًا؛ فتقوى وتترعرع، وفي آنٍ واحد يقوى ويترعرع المجموع الإسلامي كله.

تلك المكانة الخطيرة التي تشبه أن تكون (رقابة أدبية عالية)؛ شرطها الأول خدمة لسان النبي القرشي عليه أفضل الصلاة والسلام؛ لأجل فهم كتاب الله المجيد على وجه يوصل إلى سعادة العالم بالعمل به.

إن تعلم العربية فريضة على أمة رسالتها عالمية، وتفريطها فى ذلك خيانة فاضحة! ويوجد فى هذه الأيام المهزولة المهتزة قادة للعرب إذا تكلموا كانوا أطفالا

لا رجالا، وكانوا نماذج للهزل لا للجد..!

هذا حال (حكامنا) اليوم، بينما كان عموم الناس فيما مضى يستنكرون (اللحن)[١] في اللغة، ويعدونه من كبائر الآثام!

عن أبي عبيدة البصري، قال: مرَّ أبو عمرو بن العلاء بالبصرة، فإذا أعدالٌ[٢] مطروحة مكتوب عليها (لأبو فلان)، فقال أبو عمرو: **يا ربِّ.. يَلحنونَ ويُرزقونَ؟!**

كأنه يرى أنهم يستحقون العقاب بقطع أرزاقهم لإهانتهم لغة القرآن.

قال ابن القيم: إنما يعرف فضل القرآن من عرف كلام العرب.

وقال ابن تيمية: اعلم أن اعتياد اللغة يؤثر في العقل والخُلق تأثيرا بَيِّنًا، ويؤثِّر أيضا في مشابهة صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين. ومشابهتهم تزيد العقل والدين والخُلق.

وجدير بالأمة العربية أن تفخر بالشرف العظيم الذي منحها الله إياه؛ إذ أنزل بلغتها العربية الفصحى القرآن المجيد آخر الكتب الربانية للناس وخاتمها. وقد امتن الله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وعلى الأمة العربية بهذا التشريف إذ قال تعالى: **(فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ)** [الزخرف:٤٣-٤٤]

أي: وإن القرآن لشرف عظيم لك ولقومك؛ إذ أُنزل باللغة العربية التي تنطقون بها، فتوّج ذخائر علومكم وآدابكم بتاج المجد الخالد الذي لا يطاوله مجد آخر؛ لما يتمتع به من حكمة وحق وإعجاز في لفظه ومعناه.

---

[١] الخطأ في الإعراب، أي الخطأ النحويّ، بما في ذلك ما قد يعتور الألفاظ من خَللٍ في ضبطها أو استعمالٍ لها في غير ما وُضِعت له. وقد كان العرب في جاهليتهم يتكلمون بالعربية سليمة خالية من اللحن، مستقيمة الأساليب، بعيدة من الخطأ، يصدرون في ذلك عن سليقة وجبلّة فُطِروا عليها.

[٢] جمع (عِدْل) وهو الكيس الكبير.

وإذا اختار الله اللغة العربية الفصحى لإنزال آخر كتبه للناس بها؛ الجامع لزبدة ما في الكتب السابقة من هداية وحكمة، والذي أعدّه الله للخلود، وتعهد بصيانته وحفظه من التحريف والتبديل والنسيان والضياع في لفظه ومعناه.. فمن المؤكد أن يكون لهذا الاختيار حكمة تتصل بجوهر هذه اللغة وخصائصها.

قال الله تعالى: **(نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ * وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ)** [الشعراء:١٩٣-١٩٦]

فالقرآن بلسان عربي مبين، وظاهر في وصف اللسان العربي بالإبانة المدح له بالدقة والضبط في تأدية ألفاظه وتراكيبه وقواعده وأساليبه البلاغية للمعاني التي يقصد إليها البليغ؛ حينما يستخدم هذا اللسان للتعبير عما يريد الإبانة عنه. واللسان العربي هو اللغة العربية الفصحى التي أنزل الله بها القرآن.

وقال تعالى: **(إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)** [يوسف: ٢] - **(إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ)** [الزخرف: ٣-٤]

نستطيع أن نفهم من قول الله تعالى في هذين النصين: **(قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)** أن في اختيار إنزاله قرآنًا عربيًّا حكمة عبَّر عنها سبحانه بقوله: **(لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)**.. أي رجاء أن تعقلوا ما فيه من معانٍ؛ لأن اللغة العربية لغة فيها من القواعد الرصينة والأساليب البلاغية ما يضبط الدلالة على المعاني الكثيرة المرادة، ولا يسمح لها أن تكون مائجة مائعة رجراجة. أو **رجاء أن تعقلوا هذا التشريف الربّاني للغتكم؛ فتحافظوا على هذا الكتاب، وتحافظوا على هذه اللغة التي اختارها الله من بين لغات الأرض لغة خاتم كتبه للناس؛ مع أن من آياته جلَّ وعلا اختلاف ألسنة الناس وألوانهم.**

لغةٌ إذا وقعتْ على أسماعِنا كانتْ لنا بردًا على الأكبادِ

ستظـلُّ رابطـةً تـؤلِّف بيننـا فهيَ الرجـاءُ لناطقٍ بالضّادِ

ومن ثَم يجب إشعار الجماهير أن ترك العربية الفصحى في مهب الريح (كبيرة) من الكبائر، وأن الأمة التى تفقد لغتها كالفتاة التى تفقد عِرضها، وأن المسلمين . من بين أمم الأرض خاصة . (مكلفون) بالدفاع عن العربية ضد كل هجوم، لأن الهجوم في مراحله الأخيرة يتجه إلى وحي الله.. !![1]

[1] أجنحة المكر الثلاثة: عبد الرحمن حَبَنَّكة – مستقبل العربية وآدابها: الشيخ/ محمد الغزالي – فقه اللغة وسر العربية: أبو منصور الثعالبي – عليكم باللغة العربية سيدة اللغات: مقال لمحمود بك سالم رئيس جماعة الدعوة والإرشاد/مجلة المنار (١٤/ ٤٤١) (باختصار وتصرف).

ولو كان سهمًا واحدًا لاتقيتُه ولكنه.. سهمٌ، وثانٍ، وثالثُ..

(٤) علمنة التعليم

اتفق (المبشرون) على أن يقتربوا من المسلمين بطريقة (غير مباشرة).

والكل متفقون على أن (التعليم) أفضل هذه الطرق غير المباشرة.

ومن ثَم لجأوا إلى وسائل عدة، منها:

* فتح المدارس الأجنبية في سائر ديار المسلمين وتكثيرها وتنويعها.. ففتحوا المدارس التي كمن التبشير والاستعمار في طيات كتبها المسمومة.

* إرسال البعوث وتكثير (الإرساليات التبشيرية)[1]؛ لتنشر مكامن التبشير في كل مكان، وتشكك الشباب المسلم في دينه وعقيدته، وتحيطه بسياج من أوهامها وضلالاتها.

* إرسال أكبر قدر ممكن من شباب المسلمين إلى ديار الغرب لينهلوا من ثقافته المسمومة هناك.

* نشر الكتب المفسدة العابثة المضللة التي تشغل الشباب عن ثقافتهم الأصيلة، وتلهيهم بالعبث والخيال الماجن الذي سيجرهم إلى الفساد.

* (السيطرة) قدر المستطاع على (برامج التعليم) في الديار الإسلامية، وتوجيه التعليم توجيهًا علمانيًّا؛ لا يؤمن بدين، ولا يصدق برسول، وينطلق نحو الإلحاد والفساد.

---

[1] الإرساليات التبشيرية هي (بعثات) مسيحية ترسلها (الكنيسة الغربية) إلى بلاد المسلمين بهدف (التبشير)، وتنتشر عبر وسائل مختلفة؛ مثل المدارس والمعاهد والجامعات، والمستشفيات والمطبعة ونشر الكتب.. وتعتمد في تمويلها على المؤسسات الدينية المسيحية، وعلى الدول الاستعمارية، وعلى شبكات المخابرات الأجنبية، وشركات النفط الاحتكارية، والبيوت المالية الكبرى، وعلى الصهيونية العنصرية ودولة العدو الصهيوني. والغريب أن هذه الإرساليات التبشيرية ترسلها حكومات قد تكافح الدين في بلادها، ولكنها ترسلهم إلى أفريقيا وغيرها، حتى يكونوا عملاء لها! وقد ثبت أن قسمًا من المبشرين عملاء للمخابرات، ودعاة للاستعمار الجديد الذي تفرضه بلادهم على الدول النامية. [أهمية الدعوة: محمود شيت خطاب (باختصار وتصرف)]

مشاعر الضغينة لا تزيدها الليالي إلا ضِرامًا:

تنحصر السياسة التعليمية عند المبشرين بأنها سياسة تهدف إلى استخدام العلم وسيلة لأغراض التبشير من جهة، ولأغراض الدول الاستعمارية من جهة أخرى.

وبمقدار ما يحقق التعليم لهم من هذه الأغراض يوسعون فيه ويضيّقون منه، ويوجِّهون مناهجه وخططه الدراسية، والكتب المصنفة له، والوسائل المستخدمة فيها، والعناصر التعليمية التي تمارسه وتشرف عليه.

ونجد في أقوال المبشرين حشدًا كبيرًا من النصوص الدالة على أن **التعليم عندهم لم يكن إلا وسيلة لتحقيق أغراض المبشرين:**

هذا خطاب المبشر "زويمر" في مؤتمر المبشرين المنعقد في جبل الزيتون بالقدس في عام (١٩٣٥م-١٣٢٧هـ)، وقد كان ردًّا على كلمة (مُقَرر) المؤتمر التي قال فيها:

"إن جهود المبشرين فشلت فشلاً ذريعًا في العالم الإسلامي لأنه لم ينْتَقل من الإسلام إلى المسيحية إلَّا واحد من اثنَيْن: إمَّا (قَاصِر) خضع بوسائل الإغراء أو بالإكراه، أو (مُعدَم) تقطعت به أسباب الرزق فجاءنا مُكْرَهًا ليعيش".ا.هـ

فرد عليه "زويمر" كاشفًا عن خطة المعسكر الصليبي في العالم الإسلامي: قال:

" إن هذا الكلام يدل على أن المبشرين لا يعرفون حقيقة مهمتهم في العالم الإسلامي.. إنه ليس من مهمتنا أن نخرج المسلمين من الإسلام إلى المسيحية، كلا.. إنما كل مهمتنا أن نخرجهم من الإسلام فحسب، وأن نجعلهم ذلولين لتعاليمنا ونفوذنا وأفكارنا.. ولقد نجحنا في هذا نجاحًا كاملا، فكل مَن تخرج من هذه المدارس لا مدارس الإرساليات التبشيرية فحسب، ولكن المدارس الحكومة والأهلية التي تتبع المناهج التي وضعناها بأيدينا وأيدي مَن ربيناهم من رجال التعليم.. كل مَن تخرج من هذه المدارس خرج من الإسلام بالفعل وإن لم يخرج بالاسم، وأصبح عونًا لنا في

سياستنا دون أن يشعر، أو أصبح مأمونًا علينا.. ولا خطر علينا منه..لقد نجحنا نجاحًا منقطع النظير..".

ثم قال: "**لقد قبضنا أيها الإخوان في هذه الحقبة من الدهر من ثلث القرن التاسع عشر إلى يومنا هذا على جميع برامج التعليم في الممالك الإسلامية، ونشرنا في تلك الربوع مكامن التبشير والكنائس والجمعيات والمدارس المسيحية الكثيرة التي تهيمن عليها الدول الأوروبية والأمريكية والفضل إليكم وحدكم أيها الزملاء.** إنكم أعددتم بوسائلكم جميع العقول في الممالك الإسلامية إلى قبول السير في الطريق الذي مهدتم له كل التمهيد.. إنكم أعددتم نَشْئًا في ديار المسلمين لا يعرف الصلة بالله ولا يريد أن يعرفها، وأخرجتم المسلم من إسلامه ولم تدخلوه في المسيحية. وبالتالي جاء النشء الإسلامي طبقًا لما أراده الاستعمار المسيحي لا يهتم بعظائم الأمور، ويحب الراحة والكسل ولا يصرف همه في دنياه إلا في الشهوات، فإذا تعلم فللشهوات، وإذا جمع المال فللشهوات، وإذا تبوأ أسمى المراكز ففي سبيل الشهوات يجود بكل شيء".

"إن مهمتكم تمت على أكمل الوجوه وانتهيتم إلى خير النتائج، وباركتكم المسيحية، ورضي عنكم الاستعمار؛ فاستمروا في أداء رسالتكم فقد أصبحتم بفضل جهادكم المبارك موضع بركات الرب". ا.هـ

إذن.. فليس بمستغرب أن أكثر مدارس البنين والبنات –والمدارس الأمريكية خاصة– لا تزال مرتبطة بـ(الإرساليات). ومع أن الإرساليات التبشيرية تحاول النفوذ إلى الطوائف المسيحية المتعددة في الشرق، كأن يكتسب البروتستانت مثلا نفرًا من الأرثوذكس، **فإن المقصود الأول بالتبشير من طريق التعليم هم المسلمون**، وخصوصًا بعد أن تبدلت الأحوال والعقليات بعد الحرب العالمية الأولى.

وقد سبق "زويمر" اللورد "ماكولي"[١] في خطابه للبرلمان البريطاني في يوم ٢ فبراير من سنة ١٨٣٥م: "**لقد سافرت في الهند طولها وعرضها، فلم أجد متسولا أو نشالا، فمستوى الرخاء ومستوى الروح المعنوية العالية وأناس من هذا الطراز من البشر جعلني أرى: استحالة استعمارنا لهذا البلد إذا لم ندمر العمود الفقري لهذه الأمة، والذي يتمثل في قيمها الروحية والثقافية. وعليه فإنني أقترح استبدال نظامها التعليمي القديم وثقافتها.. وعلى الهنود بعد ذلك أن يقتنعوا بأن كل ما هو أجنبي أو بريطاني جيد وأفضل مما لديهم.. وبهذا سيفقدون الاعتزاز بأنفسهم وثقافتهم ويتحولون كما نريدهم إلى أمة مهزومة حقيقة.**"

وقد استطاع "ماكولي" تطبيق فلسفته؛ حيث تم في نفس العام تحويل التعليم في المدارس الهندية إلى نظام إنجليزي خالص.

يقول د. "فتحي رجب العكاري": [والذي لم يذكره هذا اللورد أن "الهند" كانت دولة إسلامية ولعدة قرون، حيث حكمها المسلمون دون أن يدمروا هُويتها الهندية، ولكنهم وفروا لها الرخاء والعدل والأمان بالرغم من أن عدد المسلمين من الهنود كان يمثل حوالي سُدس عدد السكان الإجمالي. وكانت حدودها مفتوحة للتجارة مع جيرانها من بلاد المسلمين، وكلنا يذكر طريق تجارة التوابل.

والمهم في هذه الوثيقة هو **تخطيط الإنجليز والغرب بصفة عامة لتدمير عُرى الهُوية الإسلامية للعالم الإسلامي**، ولا أستبعد دورًا للبابا والكنيسة في مثل هذا الأمر، فقد سبق وأصدر البابا في العصور الوسطى قرارًا بمنع بيع الخشب والمسامير الكبيرة للمسلمين كي لا يبنوا سفنًا ضخمة تنافس النصارى في البحار! وكلنا يذكر الدمار

---

[١] "توماس بابنجتون ماكولي" المعروف بـ اللورد ماكولي (١٨٠٠م– ١٨٥٩م) سياسي ومؤرخ وشاعر بريطاني. يشتهر بخطابه الذي ألقاه في البرلمان الإنجليزي في الثاني من فبراير/شباط ١٨٣٥م.(المشار إليه).

الثقافي والفكري الذي ألحقته "فرنسا" ببلاد المغرب العربي وبلاد جنوب الصحراء وبلاد الشام، ولا يزال أثرها بارزًا في مجرى الأحداث في هذه الديار.]ا.هـ

وقال نفر من المبشرين:

"إن أهداف المدارس والكليات التي تشرف عليها الإرساليات في جميع البلاد كانت دائما متشابهة. إن المدارس والكليات كانت تعتبر في الدرجة الأولى واسطة لتمرين قسس للكنيسة.. حتى أن الموضوعات العلمانية التي تعلم من كتب غربية وعلى يد مدرسين غربيين، تحمل معها الآراء النصرانية"ا.هـ

وعلى هذا (الأساس) كتب المبشر "هنري هريس جسب" إلى المحترم "و. ستوارت دودج" في الخامس من ديسمبر/كانون الأول عام ١٨٧٠م: "لنبتهل إلى الله في سبيل (تعميد) نفوس أولئك الشبان الذين يترددون على الكليات."ا.هـ

ويرى "هنري جسب" نفسه أن: "التعليم في (مدارس) الإرساليات المسيحية إنما هو (واسطة إلى غاية) فقط. هذه الغاية هي قيادة الناس إلى المسيح، وتعليمهم حتى يصبحوا أفرادًا مسيحيين وشعوبًا مسيحية. ولكن حينما يخطو التعليم وراء هذه الحدود ليصبح غاية في نفسه وليخرج لنا خيرة علماء الفلك وطبقات الأرض وعلماء النبات وخير الجراحين والأطباء في سبيل الزهو العلمي.. فإننا لا نتردد حينئذ في أن نقول: إن رسالة مثل هذه قد خرجت عن المدى التبشيري المسيحي إلى مدى علماني محض، إلى مدى علمي دنيوي. مثل هذا العمل يمكن أن تقوم به جامعات هايدنبرغ وكمبردج وهارفرد وشيفيلد، لا الجمعيات التبشيرية التي تسعى إلى أهداف روحية فحسب".ا.هـ

ومن أقوال "جسب" أيضًا: "إن المدارس شرط أساسي لنجاح التبشير، وهي بعد هذا واسطة لا غاية في نفسها. لقد كانت المدارس تسمى بالإضافة إلى التبشير (دق

الإسفين)، وكانت على الحقيقة كذلك في إدخال الإنجيل إلى مناطق كثيرة، لم يكن بالإمكان أن يصل إليها الإنجيل أو المبشرون من طريق آخر".ا.هـ

ويرى بعضهم أن: **"المدارس قوة لجعل الناشئين تحت تأثير التعليم المسيحي أكثر من كل قوة أخرى. ثم إن هذا التأثير يستمر حتى يشمل أولئك الذين سيصبحون يومًا ما قادة في أوطانهم"**.

وكان المبشرون الفرنسيون يستغلون الفقر والحاجة في بعض بلاد المسلمين، فيختارون الأطفال دون سن الخامسة لقاء مبلغ من المال، ويرسلون بعضهم –بعد تدريسهم في مدارس التبشير– إلى "فرنسا"، كما حصل في "السنغال"؛ إذ يعود الصبي مسيحيًّا إلى بلاده، ويُمنح حق المواطن الفرنسي في المستعمرات من حيث المستوى الاجتماعي والوظائف. ومن أمثلة هؤلاء: "سنجور سان جورج" رئيس جمهورية "السنغال" السابق؛ فهو مسيحي، لكنَّ أبويه وإخوته مسلمون.

لقد خرَّجت المدارس والجامعات التبشيرية كثيرًا من قادة الفكر والسياسة في بلاد المسلمين، ومعظمهم من النصارى والموتورين، ومن أبرزهم: "ميشيل عفلق"، و"جورج حبش"، و"قسطنطين زريق"، و"أنطون سعادة".

ونلمح (الغرض السياسي) الذي ظهرت آثاره فيما بعد؛ إذ تسلَّم القيادة السياسية في كثير من بلاد المسلمين مَن تخرَّجوا على أيدي المبشرين، وحملوا في نفوسهم ما أراد المبشرون أن يحملوه، وأخذوا يطبقون المناهج والخطط الدراسية التي تخدم ما حملوه في نفوسهم من نفثات أعداء الإسلام والمسلمين.

ولم يكن في استطاعة السياسة التعليمية عند المبشرين أن تتسامح في أمر يمس هدف التبشير، فلم يكن في استطاعتها أن تقبل في مدارسها معلمين من المسلمين لأبناء المسلمين الذين يفدون إليها، مهما كانت قدرتهم العلمية وكفاءتهم التعليمية؛ لأن قبول مثل هؤلاء المعلمين يعتبر من وجهة نظر المبشرين مؤثرًا على الأهداف

التبشيرية، ولئن قبلت بعض المعلمين من المسلمين فلغرض التمويه، وإخفاء التعصب ضدهم.

وقد عهد مؤتمر القدس التبشيري الذي انعقد في أبريل/نيسان سنة (١٩٣٥م) إلى المبشر "هـ. دانبي" بأن يضع كتابًا توجيهيًّا، يتضمن ما وصل إليه المؤتمرون من الملاحظات والآراء، فوضع هذا الكتاب الذي عُهد به إليه، وقد جاء فيه ما يلي:

"ثم يتسع الشك على كل حال حينما نأتي إلى استخدام معلم غير مسيحي ليعلم موضوعات لا نجد لتعليمها معلمًا مسيحيًّا. أجل.. إن البراعة في التعليم لا صلة لها بدين المعلم، ومما لا ريب فيه أن معلمًا مسلمًا ذا خبرة بمهنته وذا كفاءة، يمكن أن يكون له من الجاذب الشخصي وقوة الخلق والشعور بالواجب ما يجعل منه معلمًا يبعث الحياة في طلابه، أو مربيًا صالحًا، ثم هو يمكن أن يؤثر في طلابه أكثر من المعلم المسيحي المجرَّد من الصفات التي يتصف بها ذلك المعلم المسلم. ولكن.. **إذا كانت الغاية من التعليم في المدارس التبشيرية ـ كما يجب أن تكون ـ إنما هي تزويد الطلاب باستشراف مسيحي للحياة، وتمرين لهم على ممارسة المبادئ المسيحية، وتقريبهم من اختبار شخصي للإيمان المسيحي، فكيف للمسلم الأمين أن يعاوننا على بلوغ هذه الغاية؟ ثم إذا كان هو يعتقد بهذه الغاية، ولكنه لا يخطو خطوة يصبح بها مسيحيًّا، أفلا يكون له حينئذٍ على تلاميذه تأثير سلبي، فيستنتجون من سلوكه أن الدين ليس موضوعًا ذا أهمية حاسمة؟**".

ويفرق "هـ. دانبي" في كتابه بين المدارس (المسيحية) و(التبشيرية) بقوله: "إن المدارس (التبشيرية) تحاول أن تنقل الطلاب من مذاهب مختلفة إلى مذهبها هي. أما المدارس (المسيحية) فإنها تحاول أن تهيئ للطالب –من أي مذهب كان– جوًّا مسيحيًّا، وتحمله فيه على ممارسة التقوى المسيحية وسلوك المسيحي، وخصوصًا ما دام طفلا. وهكذا ينشأ الطالب وتنشأ معه فلسفة مسيحية للحياة".ا.هـ

وذكر المبشر المشهور "جون رالي موط" كلامًا أكثر وضوحًا فيما يتعلق بتعليم الصغار خاصة: "يجب أن نؤكد في جميع ميادين (التبشير) جانب العمل بين الصغار وللصغار. وترانا مقتنعين لأسباب مختلفة بأن نجعله (عمدة) عملنا في البلاد الإسلامية. **إن الأثر المفسد في الإسلام يبدأ باكرًا جدًّا. من أجل ذلك يجب أن يُحمل الأطفال الصغار إلى المسيح قبل بلوغهم الرشد، وقبل أن تأخذ طبائعهم أشكالها الإسلامية.** إن اختبار الإرساليات في (الجزائر)، فيما يتعلق بهذا الأمر، وكما ظهر من بحوث مؤتمر شمال أفريقيا، اختبار جديد ومقنع.. **وهكذا نجد أن وجود التعليم في يد المسيحيين لا يزال وسيلة من أحسن الوسائل للوصول إلى المسلمين**".ا.هـ

ورأي المبشرين في ذلك لم يتغير قط، حتى المستر "بنروز" الذي جاء في عام ١٩٤٨م ليتسلم زمام الرئاسة في جامعة (بيروت الأمريكية) كان أيضًا خاضعًا لهذه الفكرة.. يقول: **"لقد أدى البرهان إلى أن (التعليم) أثمن وسيلة استغلها المبشرون الأمريكيون في سعيهم (لتنصير) سورية ولبنان.. ومن أجل ذلك تقرر أن يُختار رئيس الكلية البروتستانتية الإنجيلية (الجامعة الأمريكية اليوم) من مبشري الإرسالية السورية".ا.هـ**[1]

إن المبشر الأول هو المدرسة:

فتن المترفون من المسلمين بمظاهر العناية التعليمية والتربوية التي تقدمها المدارس الأجنبية والتبشيرية للتلاميذ الذين يتعلمون ويتربون فيها، وفتنوا بما فيها من تعليم جيد

---

[1] التبشير والاستعمار في البلاد العربية: د. مصطفى خالدي ود. عمر فروخ – المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام: محمد محمود الصواف – علاقة المعسكر النصراني الصليبي بالمسلمين عبر التاريخ ومنطلقاتها الأساسية: زهير الخالد – أجنحة المكر الثلاثة: عبد الرحمن حَبَنَّكة – محو الهوية الإسلامية: مقال لـ د. فتحي رجب العكاري/جريدة "ليبيا اليوم" ٢٠٠٩/٦/٩م – الواقع المرير والأمل المنشود: مقال لمحمد الناصر/ مجلة البيان (٤٧/ ٣٨).

للتكلم باللغات الأجنبية، فصاروا يتسابقون إلى دفع أبنائهم وبناتهم إليها، ويبذلون لأصحابها الأجور الشهرية أو السنوية الكبيرة، ثمن قبول أبنائهم تلاميذ فيها.

وتقبل هذه المدارس أبناء أثرياء المسلمين وبناتهم بصلف ظاهر، وزهد متصنع في بعض الأحيان، مع لهفة شديدة مكتومة إلى قبولهم؛ لأن المشرفين على هذه المدارس يعلمون أنهم كلما قبلوا وافدًا جديدًا من أبناء المسلمين وبناتهم فقد ظفروا بصيد جديد، وسرقوا من ذرياتهم عجينة لينة بِكرًا؛ يطبعونها كما يشاؤون، ويصورونها كما يريدون، ويخرجونها من الإسلام إخراجًا سهلاً، وهم يأخذون من أوليائها الأجر الباهظ على ذلك.

ويعيش هؤلاء الأبناء ضمن هذه المدارس (غرباء) في كل شيء.. غرباء في الدين، وغرباء في اللغة، وغرباء في التقاليد والعادات، ثم تلجئهم الضرورة إلى التكيف مع الواقع الذي يعيشون فيه، وتقليد كل ما يشاهدونه، ومحاكاة الأوضاع الاجتماعية التي تُفرَض عليهم. وبعد فترة من الزمن تصبح هذه الأمور التي اقتبسوها بالمحاكاة والتقليد ومحاولة التكيف مع الواقع جزءًا من حياتهم وأسلوبًا محببًا. فإذا رجعوا إلى أهليهم نفروا من واقعهم واستنكروه، وشعروا بأنهم غرباء، ووقعوا في صراع عنيف بين الحياة التي نشأوا عليها في مدارسهم، وبين الحياة التي يشعرون بأنها حياة أهلهم وقومهم، ولكن تأثير الحياة التي عاشوها في هذه المدارس (المتحررة) من القيود الدينية وقيود المجتمعات الإسلامية، والمزينة بمظاهر الأناقة والترتيب والنظام؛ تظل أقرب إلى أهوائهم ونفوسهم وما يشتهون.

لذلك فهم يحاولون بكل وسيلة أن يعملوا على تحويل واقع أسرهم وواقع مجتمعهم؛ حتى يكونوا صورة للحياة التي عاشوها في هذه المدارس؛ يهودية كانت أو نصرانية أو ملحدة كافرة بكل الأديان الربانية.

وبعد سنوات التعليم ذات العدد، يخرج الأبناء والبنات بزاد واسع من اللغات الأجنبية، وبجهل كبير باللغة العربية؛ لغة قومهم ودينهم، وبجهل بتاريخ أمتهم وتشويه له، وبجهل تام بالإسلام وبمصادره من قرآن وسنة.. يضاف إلى ذلك ما يحملون من ميل إلى أساليب الحياة غير الإسلامية، وطرائق السلوك المجافية لأخلاق المسلمين وآدابهم.

وهم حريصون كل الحرص على (التوسع) في هذا المجال (التعليمي) للناشئة، ويفتخر "جسب" بأن مجموع عدد التلاميذ في المدارس الأمريكية البروتستانتية كان في عام ١٨٩١م يبلغ سبعة آلاف ومائة وسبعة عشر تلميذًا، فإذا أضيف إليهم عدد الطلاب في سائر المدارس البروتستانتية كان ثمة خمسة عشر ألف طفل في قبضة التعليم الإنجيلي. وبعد ثماني عشرة سنة، أي عام ١٩٠٩م، كان للأمريكان وحدهم مائة وأربع وسبعون مدرسة في "سورية" وحدها منثورة في المدن والقرى.

وفي عام ١٩١٢م كان في "سورية" كلها ثمان وثلاثون مؤسسة تبشيرية ما بين إنجليزية وإسكوتلندية وأيرلندية وألمانية وسويدية ودانماركية وأمريكية، لها مدارس كثيرة. وقد كانت هذه المؤسسات، مع تضارب سياساتها، ومع كل ما بينها من التنافس؛ متفقة على وضع التوراة في العربية بين أيدي الطلاب على أنه كتاب تدريس أساسي. ولقد اتفقت المؤتمرات المحلية التي عقدت عام ١٩٢٤ في (القدس)، وبرمانا (لبنان) وقسنطينة (الجزائر)، وحلوان (مصر)، وفي (بغداد).. على التعاون بين المبشرين كلهم للوصول إلى أهدافهم في العالم الإسلامي. والتبشير من طريق التعليم مقصود به المسلمون خاصة.

إذن.. فقد وُلدت **(المدرسة الحديثة)، والتى ستصبح النموذج (الأهم) للتعليم في ظل ظروف صعبة؛ إما ولاة يطمعون بالقوة والسلطة وأوكلوا أمرها للأجانب، أو مدارس الإرساليات وطلائع الاستعمار بإدارة أجنبية مستقلة تمامًا.**

النموذج الأول: مشروع طموح للحصول على السلطة، وليس مشروع إنقاذ أمة.
والثاني: مشروع (تنصير) أو احتلال يرغب في (اختراق) الأمة عبر التعليم؛ ليهيئها لقبول دين آخر، أو قبول سلطة أخرى.

فلا يُستغرب في مثل هذه الظروف أن تقدم العلوم العصرية بصورة سلبية، وبما يتلاءم مع أهداف مؤسسيها.

عاشت (المدرسة الحديثة) -بعد ولادتها- أطوارًا مختلفة، ففي طورها الأول كان **(الأجنبي) يتحكم بإدارتها والتدريس فيها**، ويزرع ما يريد فيها في ظل ضعفنا في تجارب الولاة العثمانيين.

وفي طور لاحق كانت **المدرسة تحت إدارة المستعمر مباشرة** -بعد الاحتلال الواسع لبلاد المسلمين- ووضَعَ المستعمر أشخاصًا على هرم السلطة التعليمية لتوجيه المدرسة وما يتبعها وفق أغراضه.

وعندما انقشع الاستعمار عن بلاد المسلمين نشأت خلفه **تيارات (فكرية) استولت على السلطة ذات توجه (تغريبي) واضح**؛ نحو الشرق الشيوعي أو الغرب الرأسمالي، ووجهت تبعًا لذلك المدرسة.

فكانت المدرسة في جميع هذه الأطوار مشتتة المسار بين تحقيق رسالتها الشريفة وبين تحقيق أهواء موجهيها.

أشهر المؤسسات التعليمة في الشرق العربي:

١- جامعة القديس يوسف في لبنان: وهي جامعة بابوية كاثوليكية، وتعرف الآن بالجامعة اليسوعية.

٢- الجامعة الأمريكية ببيروت: وهي التي كانت من قبل تسمى الكلية السورية الإنجلية ثم كلية بيروت، وقد أنشئت في عام ١٨٦٥م، وهي جامعة بروتستانتية.

٣- الجامعة الأمريكية بالقاهرة: وكانت تعرف بالكلية الأمريكية بالقاهرة، ثم أصبحت الجامعة الأمريكية، وقد كان القصد من إنشائها أن تكون قريبة من المركز الإسلامي الكبير وهو الجامع الأزهر.

٤- الجامعة الأمريكية باستانبول: وهي كلية روبرت في استانبول، التي أصبحت تسمى بالجامعة الأمريكية هناك.

٥- الكلية الفرنسية في لاهور: وقد أُسست في لاهور باعتبار أن هذا البلد يكاد يكون البلد الإسلامي في تكوينه في شبه القارة الهندية.

ولقد أبانت هذه الكليات عن أغراضها السافرة التبشيرية كما جاء في منشور الجامعة الأمريكية ببيروت. [١]

المناهج الدراسية واستلاب العقيدة:

الأشد من كل ذلك ما يتعلمه هؤلاء التلاميذ في هذه المدارس من أكاذيب وأضاليل وتشويهات (متعمدة) للحقائق عن القرآن الكريم، وعن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وعن الحديث الشريف، وعن التاريخ الإسلامي، وعن مقاصد الشريعة، وعن أحكامها، وعن كل ما يتعلق بالإسلام والمسلمين.. فقد لجأت تلك المدارس إلى سياسة (الدس) على الإسلام والتاريخ الإسلامي.

وإذا تدبرنا في الغاية التي أُسست هذه المدارس من أجلها لم يخفَ علينا أنها أبعد المؤسسات التعليمية عن العلم الصحيح، والنزاهة العلمية، لأنها في جميع ما تقدمه إلى طلابها من أبناء المسلمين تهدف إلى محاربة الإسلام في الصميم، وهدم كيان جماعة المسلمين.

---

[١] التبشير والاستعمار في البلاد العربية: د. مصطفى الخالدي ود. عمر فروخ – أجنحة المكر الثلاثة: عبد الرحمن حَبَنَّكة – النظريات العلمية الحديثة مسيرتها الفكرية وأسلوب الفكر التغريبي العربي في التعامل معها: حسن بن محمد حسن الأسمري – المستشرقون والمبشرون في العالم العربي والإسلامي: إبراهيم خليل أحمد (من كبار علماء النصارى، وقد مَنَّ الله عليه بالإسلام).

ولنستعرض بعض آرائهم في الكتب التي يقررونها في مدارسهم:

على سبيل المثال: كتاب "البحث عن الدين الحقيقي"، وهو محاضرات في التعليم الديني، تأليف المونسنيور "كولي". وقد صدر عن اتحاد مؤسسات التعليم المسيحي في باريس (طبعة ١٩٢٨م). هذا الكتاب قد نال رضا (البابا ليون الثالث عشر) في عام ١٨٨٧م، ثم عاش في المدارس المسيحية في الشرق والغرب إلى اليوم يطوي الصدور على الأحقاد نحو العرب والمسلمين، ويستفز شعور المسلمين استفزازًا شديدًا.

جاء على الصفحة ٢٢٠ من هذا الكتاب ما يلي:

[في القرن السابع برز في الشرق (عدو) جديد، ذلك هو (الإسلام) الذي أُسس على القوة، وقام على أشد أنواع (التعصب). لقد وضع محمد (السيف) في أيدي الذين اتبعوه، وتساهل في أقدس قوانين الأخلاق، ثم سمح لأتباعه بالفجور والسلب. ووعد الذين يهلكون في القتال بالاستمتاع الدائم بالملذات. وبعد قليل أصبحت آسيا الصغرى وأفريقيا وإسبانيا فريسة له، حتى إيطاليا هددها بالخطر، وتناول الاجتياح نصف فرنسا. لقد أصيبت المدنية. ولكن هياج هؤلاء الأشياع (المسلمين) تناول في الأكثر كلاب النصارى.. ولكن، انظر.. ها هي النصرانية تضع بسيف "شارل مارتل"[١] سدًّا في وجه سير الإسلام المنتصر عند بواتيه (٧٥٢م). ثم تعمل الحروب الصليبية في مدى قرنين تقريبا (١٠٩٩م- ١٢٥٤م) في سبيل الدين، فتدجج أوروبا بالسلاح، وتنجي النصرانية. وهكذا تقهقرت قوة الهلال أمام راية الصليب، وانتصر الإنجيل على القرآن، وعلى ما فيه من قوانين الأخلاق السهلة..]ا.هـ

---

[١] الحاكم الفعلي للفرنجة في "فرنسا". ومن شهادات المنصفين في الغرب، يقول "جوزيف مارتن مكابي": لا يزال المدرسون في مدارسنا العالية يقولون للأطفال الأغرار؛ ناقلين من مختصرات كتيبات التاريخ غير النزيهة، ويطنبون في مدح (شارل مارتل) الظافر قُدِّس سره؛ حين لقي العرب في سهول فرنسا وصدهم عنها، وحفظ العالم من المدنية.. إذ لا يوجد في الدنيا مدرس في جامعة أو مدرسة يتجرأ أن يقول لتلامذته إن العرب أقاموا مدنية من أعظم مدنيات العالم، وإن "شارل مارتل" وجنده كانوا (لصوصًا خُرَّابًا متوحشين بربريين).. وأن عرب إسبانيا لو تجمعوا في فتح أوروبا وبقوا فيها قرنين، وأقاموا فيها مدنيتهم كما فعلوا في إسبانيا لكنا متقدمين خمسة قرون أكثر مما نحن عليه اليوم".ا.هـ

هذا نوع من الكتب التي تؤلف في الغرب عن الشرق، بل إن هذا النوع هو الغالب على أهل الغرب حينما يكتبون عن الشرق العربي أو الشرق المسلم؛ تعصب ذميم، وتشويه للحقائق، وإيقاد للأحقاد. ثم هم يأتون بهذه الكتب ويُدَرِّسونها في الشرق العربي والشرق المسلم.

ويظهر أن هذا الكتاب الذين نحن بصدده يُدَرَّس، أو كان يُدَرَّس على الأقل في مدارس (الإخوة المسيحية) "الفرير"[١] في "بيروت"، وفي جميع المدارس التابعة لهذه (الرهبنة) في غير بيروت.

ولا تزال أمثال هذا الكتاب تدرس في مدارس الإرساليات الأجنبية في "لبنان". وفي كل حين تضطر وزارة "المعارف اللبنانية" إلى منع كتاب أو أكثر!

وهذا كتاب آخر يُدَرَّس في المدرسة (البطريركية) في "بيروت"، ويُدَرَّس بلا ريب في مدارس أخرى كثيرة في "لبنان"، وفي غير لبنان. والاسم الكامل للكتاب هو: **"تاريخ محاضرات (ج. إيزاك). حررها (أ. ألبا) للشرق الأدنى"، لطلبة الصف الخامس (العصور الوسطى)، طبعته مطابع الآداب الفرنسية في بيروت.**

جاء في هذا الكتاب:

ص٣١: (واتُّفِق لمحمد في أثناء رحلته أن يعرف شيئًا قليلا من عقائد اليهود والنصارى. ولما أشرف على الأربعين أخذت تتراءى له رؤى أقنعته بأن الله اختاره رسولا).

ص٣٢: (والقرآن مجموع ملاحظات كان تلاميذه يدونونها بينما كان هو يتكلم، وقد أمر محمد أتباعه أن يحملوا العالم كله على الإسلام بالسيف إذا اقتضت الضرورة).

ص٣٦: (وبينما كان محمد يعظ كان المؤمنون به يدونون كلماته على عجل).

ص١٢٦: (ودخلت فلسطين في سلطان الكفرة منذ القرن السابع للميلاد).

---

[١] الفرير: كلمة فرنسية **Frères** وتعني الإخوة.

وهناك أيضا **كتاب "تاريخ فرنسا" تأليف "هـ. غيومان" و"ف. لوستير" (لصفوف الشهادة الابتدائية).** هذا الكتاب يدرس في مدرسة (القديس يوسف للبنات) في "بيروت"، وفي مدارس هذه الإرسالية في غير "بيروت" بلا ريب، **وقد جاء فيه مما نحن بصدده:**

ص٨٠-٨١: [إن محمدًا، مؤسس دين المسلمين، قد أمر أتباعه أن يُخضعوا العالم وأن يبدلوا جميع الأديان بدينه هو. ما أعظم الفرق بين هؤلاء (الوثنيين) وبين النصارى. **إن هؤلاء العرب قد فرضوا دينهم بالقوة وقالوا للناس: (أسلموا أو تموتوا..) بينما أتباع المسيح ربحوا النفوس ببرهم وإحسانهم.** ماذا كانت حال العالم لو أن العرب انتصروا علينا؟ إذن لكنا نحن اليوم مسلمين كالجزائريين والمراكشيين]. ا.هـ

ومعلوم أن المدرسة ليست مناهجَ أو معلمًا وحسب، ولكنها (نظام) يصبغ الطفل مع الوقت بصبغته؛ فإذا أخذنا في الاعتبار فساد الزمان وقلة الناصح ومحاربة سنن الهُدى؛ فكيف يمكن أن يفلح في الجمع بين صلاح دينه ونيل دنياه..؟!

وحتى نكتشف حجم (الخديعة) في هذه المدارس يمكن لأي منا أن يجري إحصاء سريعًا حول تعليم (النوابغ) في بلادنا؛ ليجد أنه لا صلة بين التعليم الأجنبي ونبوغ هؤلاء، بل إن غالبهم من التعليم النظامي.

قد ينال الطالب في هذه المدارس علمًا.. وليس هذا العلم في جانب ما يخسره من دينه، وما يفوته من الإخلاص لأمته بالشيء الذي يثقل وزنه، ولكنها الأهواء تأخذ القلوب، فتبعث الرجل على أن يأخذ بيد ابنه وهو كالمَلَك طُهرًا وطيبة، ويقوده إلى حيث يشهد ازدراء قومه، والطعن في الحنيفية السمحة، فلا يلبث أن ينقلب ذلك الطُهر رجسًا، وذلك الطيب خبثًا، وتكون العاقبة ما نسمعه عن كثير من المتخرجين في هذه المدارس وما نرى.

فبالله.. كيف يُسلِّم الأب ابنه إلى قسيس في ثياب معلم،

أو معلم بقلب زنديق.. ثم يرجو له السلامة ؟!

وعندما بدأ المسلمون ينتبهون إلى (المخاطر) التي يتعرض لها أبناؤهم في مدارس التبشير، وبَدَا تراجُعُ (الإقبالِ) عليها ملحوظًا.. شرع شياطينهم يخططون من جديد حتى لا تضيع جهودهم سُدى.. يقول المبشر "تاكلي": **يجب أن نشجع إنشاء المدارس على النمط الغربي العلماني؛ لأن المسلمين قد زُعزع اعتقادهم بالإسلام والقرآن حينما درسوا الكتب المدرسية الغربية، وتعلموا اللغات الأجنبية.**

ويقول "صموئيل زويمر": **ما دام المسلمون (ينفرون) من المدارس المسيحية، فلا بد أن ننشئ لهم المدارس (العلمانية)، و(نسهل) التحاقهم بها، وهذه المدارس التي تساعدنا على (القضاء) على الروح الإسلامية عند الطلاب.**

وقد استفادوا كثيرًا من نصائح "زويمر" التي مَفادها: **لم يعد مطلوبًا إدخال المسلمين إلى المسيحية، إنه يكفي إخراجهم من الإسلام.**

وعلى هذا تعمل المدارس الأجنبية حاليًّا في البلاد الإسلامية.

وأقل ضرر لها هو الازدراء باللغة العربية، وتمجيد اللغة الأجنبية؛ بما يترتب على الأمرين من آثار خطيرة في اللاشعور. وأيضًا الازدراء بالدين بعد أن تَعمَد إلى تقديم مُدَرِّسه متهدمًا في مظهر ومخبره، مثيرًا للسخرية والاشمئزاز من صغار الطلاب وكبارهم على السواء، بينما يظهر رجل الدين عندهم على نحو مخالفٍ؛ يولد الرهبة والاحترام، وقد يولد الحب والود والألفة.

ويجدر هنا أن نشير إلى شهادة "هاملتون جب" في كتابه: "وجهة الإسلام" **أن (التعليم) كان أكبر عامل في (تغريب) المجتمع المسلم**، وفيه يقول: "وفي أثناء الجزء الأخير من القرن التاسع عشر نفذت هذه الخطة إلى أبعد من ذلك بإنماء التعليم (العلماني) تحت الإشراف الإنجليزي في مصر والهند"، **ثم ذكر كيف (أضعفت) هذه (المدارس) النزعة الإسلامية عند التلاميذ**، قال: **"لقد استطاع نشاطنا التعليمي**

والثقافي عن طريق (المدارس العصرية) و(الصحافة) أن يترك في المسلمين، ولو من غير وعي منهم أثرًا يجعلهم في مظهرهم العام (لا دينيين) إلى حد بعيد".ا.هـ[١]

أرض الكنانة (تخضع) للهيمنة الثقافية (التغريبية):

تضافرت مجموعة من العوامل الداخلية والخارجية في أرض الكنانة جعلت منها أرضًا ممهدة أمام للتعليم الأجنبي، ومجالاً خصبًا للنفوذ والهيمنة الاستعمارية.

وقد بلغ عدد المدارس (الأجنبية) في عهد الخديوي "إسماعيل" (١٨٦٣م-١٨٧٩م) حوالي **سبعين مدرسة، وتخرج فيها عدد كبير من رجال الأعمال والمهن في مختلف النواحي الاجتماعية، ونال كثير منهم (الحماية) الأجنبية بواسطة القناصل فصاروا في حكم الأجانب في انتمائهم وميولهم.. وأمام هذه المغريات زاد عدد المدارس.**

وفي مارس سنة ١٨٩٧م عُين "دوجلاس دنلوب" سكرتيرًا عموميًا للمعارف، ثم مستشارًا في مارس سنة ١٩٠٦م، وقد كان في أول أمره (قسيسًا مبشرًا) عمل في وظيفة مدرس للغة الإنجليزية والخط الإفرنجي في مدرسة "رأس التين" الثانوية، ثم لفت نظر "كرومر"[٢] الحاكم الفعلي لمصر آنذاك، فدفع به إلى العمل في (نظارة المعارف)،

---

[١] التبشير والاستعمار في البلاد العربية: د. مصطفى الخالدي ود. عمر فروخ – أجنحة المكر الثلاثة: عبد الرحمن حَبَنَّكة – "التعليم الأجنبي.. مخاطر لا تنتهي": مقال لمهيمن عبد الجبار/مجلة البيان (١٧٥/ ٨)- موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين – النظريات العلمية الحديثة مسيرتها الفكرية وأسلوب الفكر التغريبي العربي في التعامل معها: حسن بن محمد حسن الأسمري.

[٢] رجل دولة ودبلوماسي بريطاني، وهو من كبار دعاة التغريب والاستعماريين في العالم الإسلامي، وواحد من الذين وضعوا مخطط السياسة التي جرى عليها الاستعمار ولا يزال. وتمثل كتاباته في تقاريره وفي كتابه (مصر الحديثة) خطة عمل كاملة وأيدلوجيا شاملة للقضاء على مقومات الفكر العربي الإسلامي وتمزيق وحدة العالم الإسلامي، ومقاومة القيم والمفاهيم العربية والإسلامية. وقد أمضى في مصر ما لا يقل عن ربع قرن قابضًا على زمام السلطات (١٨٨٢م-١٩٠٦م). [الموسوعة الحرة]

وما زال يترقى به حتى أصبح مسيطرًا سيطرة تامة على شئون التربية والتعليم عبر سنوات طويلة؛ امتدت حتى أوائل الحرب العالمية الأولى سنة (١٩١٤م)!

وقد أهَّله هذا العمل الضخم والفترة الطويلة التي قضاها في ذلك أن يحصل على إجماع من المؤرخين والباحثين أنه **(مؤسس الاستعمار التربوي والعقلي والتعليمي في مصر)**.. وظهرت مصطلحات تعبر عن هذا الأثر مثل: (التعليم الدنلوبي)، و(المناهج الدنلوبية)، و(المدارس الدنلوبية)..

وقد تولى "دنلوب" (مهمة) نزع الإسلام من حقل التعليم، وكذا التاريخ الإسلامي، وكل ما يُذكّر الطالب بإسلامه، ونجح فيها تحت قوة عسكرية تحميه، لدرجة أن كبير المنصرين "زويمر" في تلك المرحلة يعلن بكل وقاحة: **"إن السياسة الاستعمارية لما قضت من نصف قرن على برامج التعليم في المدارس الابتدائية أخرجت منها القرآن، ثم تاريخ الإسلام، وبذلك أخرجت ناشئة لا هي مسلمة، ولا هي مسيحية، ولا يهودية. ناشئة مضطربة، مادية الأغراض، لا تؤمن بعقيدة، ولا تعرف حقًّا.. فلا للدين كرامة، ولا للوطن حرمة".**

والوصف الحقيقي لـ"دنلوب" ذكرته جريدة "اللواء" في تلك المرحلة:

"دنلوب" هو أقوى آلة وضعها اللورد "كرومر" لتعطيل التعليم في مصر، وأكبر مقاوم لرقي البلاد في باب المعارف.

فقد (أبطل) "دنلوب" مختلف الكتب العربية الهامة التي كان قد ألفها "علي مبارك" و"عبد الله فكري" قبل الاحتلال؛ لأنها **تتحدث عن الإسلام والأخلاق الإسلامية**، كما رفع كتب "عبد العزيز جاويش" ونصوصه و(استبدلها) بكتب تحمل خرافات "لافونتين"[١].. كما (ألغى) الباب الوارد في مناهج التعليم تحت عنوان

[١] أشهر كاتب قصص (خرافية) في تاريخ الأدب الفرنسي.

"العقائد والعبادات الإسلامية"، ولما عورض في هذا العمل قال: **"إن كتب المطالعة يجب أن تكون مجردة خالية من كل ما له مساس بالدين"**..!!

لم يشأ "دنلوب" أن تخلو المدارس تمامًا من (الدين)؛ بل جعل مادة الدين (مادة ثانوية) في قيمتها الدراسية، ثم إن حصص (الدين) كانت في نهاية اليوم الدراسي؛ وقد كَلَّ الطلاب وملوا وحنوا إلى الانفلات والخروج من سجن المدرسة البغيض إلى فسحة الشارع أو رحب البيت، وكانت هذه الحصص توكل إلى (أسن) مدرس في المدرسة، وصورته تمثل في مخيلة التلاميذ ضعف الحياة الفانية المنهارة؛ فيرتبط في وجدانهم بالعجز والفناء والشيخوخة، كما يرتبط بالملل والضجر والنفور.

وكذلك مدرس مادة (اللغة العربية) لم يسلم من خبث الخطة "الدنلوبية"؛ ففي الوقت الذي كان مدرس (اللغة الإنجليزية) يتقاضى راتبًا شهريًّا اثني عشر جنيهًا كاملة، كان زميله مدرس (اللغة العربية) راتبه أربعة جنيهات!! مما جعل الفرق بينهما في المكانة الاجتماعية شاسعًا، **وجعل اللغة العربية في ذاتها موضع احتقار وازدراء**، والأخطر من ذلك أنه اتبع سياسة (أجلزة التعليم المصري) ليغرب الطالب المصري عن مجتمعه ولغته ودينه؛ **حتى إنه كان يتلقى قواعد اللغة العربية باللغة الإنجليزية!**

وليس أنكى من ذلك إلا **المناهج التي كانت مملوءة بالطعن والسموم فيما يتعلق بالإسلام وتاريخه وحضارته، ومفعمة بالتقدير والإكبار الذي يصل درجة التقديس فيما يتعلق بأوروبا وتاريخها وحضارتها.**

وبتوجيه من "كرومر" و"بريطانيا" عمل "دنلوب" على تنفيذ خطة واضحة المعالم للعمل على وقف انتشار التعليم، أو ترقيته. وسبيلهم في ذلك (تقليل) اعتمادات المعارف، وصرف أغلب المبالغ المعتمدة في بناء القصور واقتناء الأثاث الفاخر للمدارس. وقد سجل ذلك "كرومر" في تقريره سنة ١٩٠٧م: **"إن (إنجلترا) لا تريد نشر التعليم العالي في مصر، وإنها لا تريد إلا إعداد جمهور من طبقة**

(الأفندية)، ليشغلوا الوظائف (الثانوية) في الحكومة. وإن المصريين لا يصلحون للعلوم العالية، وإن زيادة التعليم تصرف عن فلاحة الأرض وتعود على مصر بالإفلاس".ا.هـ وكان "دنلوب" (يبرر) هذه السياسة بقوله: **"إن سياستي في التعليم هي الجودة لا الكثرة".**

لقد سلك "دنلوب" في سياسته طريقًا طويلا؛ فكسب قلوب الأطفال أولا، وانتظر ثلاثين عامًا يضع في رؤوس التلاميذ ما يريده، ويمنع عنها ما لا يريده إلى أن تخرَّج في وزارة المعارف الجيل الأول والجيل الثاني، فلما صارت مقاعد الوزارات وكراسي النيابة والحكم ممتلئة بالذين رباهم؛ انقلب إلى وطنه، واطمأن قلبه إلى أنه صار لأوروبا في كل بيت مصري من يكمل برنامجه..

وقام "دنلوب" بدور كبير في تعميق مخطط التغريب
وهدم مقومات الفكر الإسلامي.[1]

المفاهيم (الليبرالية) الأمريكية تغرس قدمها في أرض "المحروسة":

جاء في تقرير مجموعة من المبشرين: **(إن "القاهرة" تعتبر نقطة مهمة، وهي المدينة الثانية في الإمبراطورية التركية).**

وقد بدأت الإرسالية الأمريكية العمل في مصر مع بداية عام ١٨٥٠م تحت مسمى (الرسالة المشيخية الاتحادية الأمريكية)، **ومنذ اليوم الأول ترافق النشاط التعليمي مع النشاط التبشيري.**

---

[1] أعلام وأقزام في ميزان الإسلام: د. سيد العفاني – النظريات العلمية الحديثة؛ مسيرتها الفكرية، وأسلوب الفكر التغريبي العربي في التعامل معها: حسن بن محمد حسن الأسمري – مقدمات العلوم والمناهج: أنور الجندي – صور من كيد الكافرين لمحاربة الإسلام في مجال التعليم: د. حيدر بن أحمد الصافح - الحصاد العلماني في مجال التربية والتعليم: مقال بقلم محمد أحمد منصور/مجلة البيان (١٦١/٧٠) (باختصار وتصرف).

وقد أنشأ الأمريكيون تحت لواء "الهيئة المشيخية المتحدة" عددًا من المدارس على طول نهر النيل، كان من أشهرها كلية للرجال في مدينة "أسيوط" التي تُعد عاصمة إقليم الصعيد، وكلية للبنات في القاهرة كان لها دور تعليمي بين نساء مصر عامة والقاهرة خاصة.

وقد تحقق للمدارس الأمريكية عدد من الأهداف التي سعت إليها:

* نشر المذهب البروتستانتي بين الأقباط أولاً والمسلمين ثانيًا في مصر، وكان لنشر المذهب دوافع استعمارية كشف عنها "وليم هل" بقوله: "إن مصر مستودع للثروات التي لا تُعد ولا تُحصى".ا.هـ

* وقد كان لكلية "أسيوط"، وهي تعليم ثانوي؛ دور تنصيري كبير في صعيد مصر، ويؤكد هذا كلام "واطسن" أحد صناديد المنصرين في تلك الفترة: **"إن الاتحاد حقق غرضه بالفعل، وتنصر اثنان وستون طالبًا في عام واحد، وفي عام آخر تنصر خمسة وثلاثون آخرون، كما وهب سبعون من أعضاء الكلية أنفسهم للعمل التنصيري أيضًا".ا.هـ**

* كان التركيز في تلك الفترة على الطبقة الفقيرة من خلال تبني أفرادها واحتوائهم وتقديم التعليم المجاني لهم، ثم إيجاد فرص عمل مناسبة ضمن نشاطها، وكان الشرط الأساسي لذلك هو عضوية الشخص للكنيسة الإنجيلية وانتماؤه إليها، والدعوة إلى مذهبها بين أقرانه وذويه وأصدقائه، وفي نفس الوقت اتخذت الإرسالية من الطبقة الغنية سندًا لها بتقديمهم الدعم المادي والمعنوي لأنشطتها.

* وأدى انتشار الأفكار الغربية في العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر إلى تحولات واسعة في كافة المجالات؛ وبخاصة الأفكار المتصلة بالتعليم.

* وسعيًا في تطوير الآليات الموجودة **رأت الإرسالية القفز بمستوى التعليم من أجل إعداد جيل من القادة، وتم بالفعل إنشاء كليات مجهزة تجهيزًا جيدًا في كل من**

"القاهرة" و"بيروت" و"إستانبول" من أجل تسريب المبادئ النصرانية إلى الطبقة المثقفة على وجه الخصوص وإلى بقية الطبقات بالتبعية.

ثم **تم تأسيس (الجامعة الأمريكية) في الخامس عشر من أكتوبر ١٩٢٠م** بعد رحلة طويلة من المبادرات والنقاشات والرسائل المتبادلة واللقاءات وجمع المعلومات.

وقد أكد المؤسسون في لقاءاتهم ومراسلاتهم على أن تكون شخصية الجامعة مسيحية، وكان من بين المشاركين في وضع المعالم الرئيسية لشخصية الجامعة "زويمر" و"جون موط" السكرتير العام لجمعية الشبان المسيحيين الأمريكيين، **وبالفعل ولدت الجامعة نصرانية بروتستانتية تبشيرية بنسبة مائة بالمائة.**[١]

ومع الميلاد بدأت الجامعة في مد الصلات مع كل القوى التي يمكن أن تساندها، ونالت الجامعة تأييد لوردات الاحتلال على تتابعهم، كما رحبت الصحافة المصرية لسان حال الحكومة ترحيبًا حارًّا، **أما السلطان "فؤاد" فقد دعا "واطسن" رئيس الجامعة للعمل ضمن لجنة عامة لدراسة (برنامج التعليم القومي)، وكانت هذه الدعوة أقوى دعم يمكن أن تناله مؤسسة تعليمية في ذلك الوقت، بعد أن أقامت اتصالاً بينها وبين وزارة المعارف بما يعني مد نشاطها إلى خارج أسوارها.**

وكان التوجه الديني هو المقدم كما تؤكده وثائق الجامعة؛ حيث كان الهدف الأكبر هو ضمان الشخصية المسيحية وتأثيرها الواسع، **وتنمية الولاء المسيحي عبر التبشير البروتستانتي بين المسلمين عامة في مصر ومحيطها الديني والثقافي.**

أما التوجه الأكاديمي فقد كان مُسخرًا لإنشاء تعليم على مستوى عالٍ يمكِّن من إعداد (نخبة) يمكن أن توسد إليها الأمور في المستقبل القريب، وكانت الأقسام المقترحة: قسم التعليم العالي – كلية إعداد المعلمين – كلية لاهوتية – كلية الزراعة.

---

[١] في عام ١٩١٦م تقدم "تشارلز واطسن" أول رئيس للجامعة بطلب لسلطة (الاحتلال) وليس وزارة المعارف في مصر؛ حيث كانت (الامتيازات) الأجنبية تخول الأجانب فتح مدارس وإقامة أنشطة دون الرجوع إلى الحكومة!

كما افتتحت كليات لاحقًا في الطب والهندسة والصحافة إلى جانب كلية الخدمات التعليمية الممتدة التي تقدم دروسًا ليلية.

أما التوجه الاجتماعي فقد كان من بين الأهداف المعلنة التي تتعلق بتطوير المجتمع المصري؛ بحيث يصبح ذا خصائص ثقافية غربية بديلة للعقائد والتقاليد والخرافات السائدة في ذلك الوقت، كما اهتمت بقضية المرأة تحت مسمى التحرير، وبعبارة أوضح: **صبغ المجتمع بالصبغة الأمريكية من خلال تعليم أبناء الصفوة العقيدة المسيحية وتنمية العقلية المتحررة لديهم ثم تحركهم لتغريب المجتمع ككل في مرحلة لاحقة.**

وفي عام (١٩٢٤م) افتتح قسم (الدراسات الممتدة) للإسهام في فحص المجتمع المصري، وجمع أكبر قدر من المعلومات عنه، وبناء تصور لمشكلاته.

ومن أهداف هذا القسم: التأثير في الخلفية (الاجتماعية) لطلاب الجامعة الشرقيين، وفي الأقطار المسلمة التي تمثل أكبر عائق أمام (تغريب) الطلاب، والتأثير في طلاب الجامعة الذين سيُناط بهم قيادة المجتمع في المستقبل..

وقد كان القسم حريصًا على توصيل مفاهيمه لأكبر قطاع من المجتمع؛ ولذلك (استحدث) عددًا ضخمًا من الوسائل والأساليب التي يتمكن من خلالها الاتصال بأكبر قطاع ممكن من المجتمع، وقد وُظفت المحاضرات والنشرات الشهرية والفصلية والسينما التعليمية أسبوعيًّا، والأمسيات والمناقشات في العلوم الاجتماعية ومصلحة رعاية الطفل التي كانت تابعة للقسم، **وكانت بعض المحاضرات التي يقدمها القسم تعقد خارج الجامعة في بعض المدن والقرى لاجتذاب اهتمام أكبر عدد من الناس.**

وفي عام ١٩٢٦م تم افتتاح (كلية التربية)، وكانت تهدف إلى التأثير في التعليم المصري وفي البلاد المجاورة من خلال نقل طرق التعليم الحديث إلى مصر، وكانت الكلية تسعى لتحقيق أهداف الجامعة من خلال تأكيد المنظومة التربوية الغربية عمومًا

والأمريكية على وجه الخصوص. **وقد أصدرت الكلية صحيفة "التربية الحديثة" التي كان لها تأثير خطير في كل من مصر وسوريا والسودان والعراق وجاوا والحبشة وسنغافورة. ومع هذا الرواج حققت الجامعة من ورائها أرباحًا وفيرة، وقد كان من أهداف الصحيفة إقامة اتصال مباشر في مجال التربية بين العالم العربي والولايات المتحدة؛ ومع التوسع في التعليم المصري كانت هذه الصحيفة من أكبر المؤثرات الثقافية في مصر.**

وفي عام ١٩٥٣م تم إنشاء (مركز البحث الاجتماعي) بمنحة من مؤسسة "فورد" أحد أخطر واجهات المخابرات الأمريكية، وقد اهتم هذا المركز بجمع المعلومات وتحليلها من خلال توظيف الطلاب في مجال البحث الاجتماعي في المنطقة العربية، والعمل على تدريب الطلاب في مجال علم الاجتماع وأساليب البحث العلمي، وتشجيع الطلاب على مشروعات البحث الاجتماعي.

وفي عام ١٩٥٦م تم تأسيس (معهد اللغة الإنجليزية) لتعليم اللغة الإنجليزية للطلاب الراغبين في تحسين لغتهم الإنجليزية من أجل الالتحاق بالجامعة.

الأهداف المعلنة والممارسات من (١٩٢٠م) إلى (١٩٥٦م):

تم تحديد الهدف في البند الثاني من وثيقة الإنشاء، ويتضمن: (**تقديم التربية المسيحية لشباب مصر والأراضي المجاورة**، وذلك عن طريق إقامة معهد تعليمي على أعلى المستويات التربوية الفعالة، كي تظهر للعالم الإسلامي السمات الخلقية للسيد المسيح..).

ولم يتوقف هذا الهدف المعلن عن الظهور في لوائح الجامعة السنوية على مدار الأعوام وإن اختلفت الصياغة.

أما عن وسائل تحقيق الهدف الديني فقد تعددت بين:

* اجتماع ديني يومي في كنيسة صغيرة بالجامعة وبصورة إجبارية، تقام فيه الصلوات النصرانية، ويقرأ فيه الإنجيل، وتتلى خطب قصيرة في الأخلاق.. وكان الجميع يشاركون في إنشاد التراتيل (كان الطلاب المسلمون يمثلون ثلث الطلاب في البداية)، وقد انبثق عن هذه الاجتماعات (جمعية الشبان المسلمين المسيحيين) التي تعد امتدادًا في نشاطها لجمعية الشبان المسيحيين، والتي مارست نشاطًا تنصيريًّا خارج أسوار الجامعة.

* محاضرات عامة عبر قسم الدراسات الممتدة الذي يفتح الباب أمام الاحتكاك بالجماهير عبر المحاضرات والأنشطة الثقافية في الفترة المسائية لكن بصورة غير ملزمة.

وكانت القضايا تناقش دون تحفظ، وقد وجد أن أثر هذه الطريق بالغ مع مضي الوقت في تقبل الكثيرين للعقائد النصرانية، وتضمنت المحاضرات كثيرًا من الشبهات حول عقائد الإسلام مما اختلقه المستشرقون، كما مررت هذه المحاضرات العديد من الأفكار لقياس الرأي العام ودرجة الوعي، وكان من بينها محاضرة بعنوان "هل ستنال المرأة حقوقًا وواجبات مساوية للرجل؟"، والتي ثارت بسببها ثائرة الناس، وشنت الصحف حينها حملات قوية على الجامعة، وكانت الجامعة تطأطئ رأسها للموجة ثم تعاود الكرة من جديد.

كما عملت الجامعة على نشر أفكارها من خلال سلسلة أخرى من المحاضرات التي يتخفى فيها الهدف الديني، وتتحدث عن مواضيع من قبيل الرفاهية القومية والصحة العامة، والتاريخ والعلوم، والمشكلات القومية، والأمور السياسية وكل من هذه المجالات مرتبط بأهداف اجتماعية وثقافية ولكنها تحمل أفكارًا دينية لتأكيد الغرض التبشيري.

وكان الحضور منوعًا من كل الطبقات؛ أعضاء برلمان، وأساتذة وطلاب الأزهر، ونساء، وكبار رجال الدولة، وعامة الناس.. مما وضع الجامعة في أعلى مكانة على الخريطة الثقافية في مصر.

*كما كانت تُعرض أفلام مثل الفيلم التبشيري "KING OF KINGS" الذي يعرض العقيدة النصرانية في المسيح عليه السلام، وكان يعرض من عشرين إلى ثلاثين مرة كل عام قبل عيد القيامة.. **وقد قامت بالفعل بتنصير عدد من الطلبة المسلمين مما حرك نوازع الغيرة الدينية الشعبية ضد الجامعة**، وقد نفَّس العامة عن هذه المشاعر كلما أتيحت الفرصة، وقد تم اقتحام الجامعة وتحطيم مكوناتها مرات عدة على إثر كل غضبة شعبية ضد المستعمر، كما حدث في حريق القاهرة وبعد العدوان الثلاثي وبعد نكسة ١٩٦٧م.

المناهج الدراسية: يكفي هنا أن نستشهد بما نشرته (مجلة الاتحاد المشيخي) عن طبيعة المناهج: **"الجامعة الأمريكية بالقاهرة كانت تقدم المبادئ المسيحية، وهذا البرنامج كان بعيدًا عن أن يكون منهجًا تعليميًّا صرفًا، فالجامعة منظمة تبشيرية تستخدم التعليم للوصول إلى تحقيق غرضها التبشيري بين الناس".ا.هـ**

اختيار أعضاء هيئة التدريس: وقد نصت اللائحة الداخلية للجامعة عام ١٩٥٤م على أنه عند تعيين الجامعة لهيئة التدريس يوضع في الاعتبار توافر الشخصية المسيحية للشخص المراد تعيينه من أجل تحقيق الهدف التبشيري، والمدرسون الأمريكيون خدم أغلبهم في الكنائس والاتحادات الدينية العالمية مثل جمعية الشبان المسيحيين وجمعية الشابات المسيحيات اللتين كان لهما نشاط واسع داخل الجامعة.

الأنشطة الاجتماعية: والتي تمثلت في الأنشطة الرياضية والنشاط الثقافي واتحاد الطلاب.. وقد وفرت هذه الأنشطة جوًّا اجتماعيًّا وتربويًّا وثقافيًّا أسهم بشكل فاعل

في تعميق أفكار الجامعة لدى الطلاب، وامتداد نشاطها خارج أسوار الجامعة، وتدريب الطلاب على التأثير المطلوب في المجتمع.

المناخ الجامعي: حيث الروح الكنسية والجو الليبرالي بمفهومه الأمريكي حيث حرية التعبير والسلوك والعلاقة.. العلاقة التي تربط التلميذ بأستاذه ومحيطه الجديد، فقد كان الاحتكاك اليومي بين المدرس والطلاب أقوى من كل التأثيرات الدينية.

هدف إعداد النخبة الحاكمة وهو لا يقل أهمية عن الهدف الأول، وهو يبدو إنسانيًّا في ظاهره لكنه محمل بأبشع أنواع الاستعمار.

وقد أكدت جميع وثائق الجامعة على شعار: (التعليم الشامل للصفوة)، ولم يكن غريبًا عندما فتحت الجامعة أبوابها عام ١٩٢٥م أن نجد أن الطلبة المدرجين في قوائمها من الطبقات العليا في المجتمع ستون بالمائة منهم مسلمون، وقد كان الطلبة يتدربون على وسائل التأثير البعيد في الفكر والحياة في الشرق الأدنى وأجزاء أخرى من العالم، **وقد شغل معظم خريجي الجامعة الأمريكية بالقاهرة مناصب عليا في المجتمع في مجالات الإعلام والسياسة والاقتصاد.**

هدف نشر الثقافة الأمريكية فالجامعة كما قال "واطسن": جسر صداقة بين المجتمع الأمريكي والعالم الإسلامي، وهي تدار بإدارة أمريكية وأموال أمريكية بغرض نقل القيم النابعة من التجربة التربوية المسيحية التي تمارس في أمريكا إلى مصر، وتنمية التفكير على أسس من الثقافة الأمريكية.

وقد استخدمت في ذلك عدة وسائل هي:

* التعليم الحر.
* الحفلات الفنية والموسيقية، وكانت الإذاعة المصرية تنقلها إلى مستمعيها.
* المحاضرات والمنتديات الثقافية التي تعتمد على (العقلانية) في النقاش.

* السينما التعليمية، وهي وسيلة ناجعة لبسط الهيمنة الثقافية الغربية، وبناء مجتمع متغرب.

وأما هدف خدمة المجتمع المصري: فكان المراد من هذا الهدف نيل مصداقية عالية لدى الحكومة وعموم الشعب نتيجة إظهار الاهتمام بمشاكل المجتمع، وهي في نفس الوقت تعد وسيلة مهمة لفحص المجتمع المصري من حيث خصائصه النفسية والاجتماعية والدينية، ومشكلاته وأعراضه وأمراضه؛ حتى يسهل التأثير فيه.

وهي كذلك وسيلة لتدريب الطلبة على حل المشكلات، وتوصيفها وتصنيفها وفقًا (للمنظور الأمريكي بخلفيته النصرانية)..

وعلى سبيل المثال قام مائة وثلاثون شابًّا خلال صيف ١٩٣٢م بمناقشة الأوضاع الصحية في حوالي ثلاث عشرة مديرية من مديريات مصر، وقاموا بتوزيع حوالي مائة وخمسة وعشرين ألف بحث تنظيم، وحوالي ثلاثة آلاف ومائة وخمس وتسعين استمارة مقابلة.

كما ساهم (قسم الدراسات الممتدة) بفصول مسائية لأصحاب الوظائف الحكومية الدنيا، وآخرين ممن يريدون الحصول على درجات علمية في التعليم المسائي.

كما قام (مركز البحث الاجتماعي) بدور خطير في كشف دقائق الأمور، وتحليل المشاكل الاجتماعية في مصر ودول الشرق الأوسط..

وبهذا تتمكن "الولايات المتحدة" من ترسيخ الهيمنة الثقافية على المجتمع المصري.

الجامعة الأمريكية والنظام الجديد في أعقاب ثورة يوليو ١٩٥٢م حتى ١٩٦٣م:

على إثر الثورة ظهرت طبقة جديدة صعدت مع الثورة، فحرصت الجامعة على التقرب منها؛ **فاستثنت أبناء أعضاء مجلس قيادة الثورة من شروط القبول**، دون أن يعني ذلك تخليها عن علاقاتها مع الطبقة الرأسمالية التي ظلت تحافظ على تواجدها رغم الإجراءات التي اتُّخذت ضدها من أجل تقليص دورها.

وبدأت الجامعة إبراز خطاب جديد يناسب شعارات الثورة، كما ألغت الدراسة يوم الجمعة، وخفضت اليوم الدراسي في شهر رمضان، واختارت أعضاء هيئة التدريس من المصريين والأمريكيين على حد سواء بغض النظر عن العقيدة.

ومما لا ينبغي إغفاله أن الدعم الأمريكي لم ينقطع عن الجامعة حتى في هذه الفترة.

وكان للجامعة رجالها حتى في ظل حكم الثورة، وقد وسطت الجامعة "محمد حسنين هيكل" من أجل تخفيف بعض القيود وإزالة بعض المخاوف، وجاءت إجابة "عبد الناصر" فوق الإيجابية.(!!!)

والغريب أنه رغم صدور عدة قوانين على مدار عمر الجامعة تنظم شأن المؤسسات التعليمية الأجنبية؛ من حيث الإشراف والمناهج وهيئات التدريس.. إلا أن **الجامعة (نجحت في الإفلات) من جميع هذه القوانين، وظلت هي المؤسسة التربوية (الوحيدة) في مصر التي تدار فعليًّا دون إشراف من الحكومة المصرية.**

كما لعبت الجامعة دورًا (مكنها) من أن تكون (يد) الحكومة الأمريكية في مصر و(أداتها) في الحفاظ على مصالحها في منطقة الشرق الأوسط، وهو ما يثير التساؤل حول (نجاح) الجامعة في (اختراق جميع) مؤسسات الدولة.

وفي مرحلة التحول الاشتراكي (١٩٦٣م-١٩٧٠م) ظهرت براعة الجامعة في خدمة الأهداف الأمريكية في ظل التحول الاشتراكي، والعداء الأمريكي العلني لمصر خلال حرب ١٩٦٧م وانعكاساته على الساحة المصرية، وكيف تمكنت الجامعة أن تتعايش مع هذه البيئة.

وقد فرضت الحكومة المصرية الحراسة على الجامعة الأمريكية، ورحلت هيئة التدريس، وعينت حارسًا قضائيًّا، ولكن الحارس قام بدور خطير في إقناع الحكم المصري بإبقاء الجامعة أمريكية الهوية كما هي، وسهل إجراءات اعتراف الحكومة بالجامعة الأمريكية. (!!!)

وخلال هذه الفترة تولى "كريستوفر ثورون" إدارة الجامعة، وكان "ثورون" (عميلاً للمخابرات الأمريكية)، فعمل مع إدارته للجامعة لحساب المخابرات أيضًا، وقد سعى في توسيع صداقاته داخل مصر، وكوَّن علاقات حميمة مع موظفي الخارجية المصرية! وبهذا يظهر هدف آخر غير معلن للجامعة تسعى لخدمته من أجل رعاية المصالح الأمريكية.

وكانت الجامعة في هذه الفترة حريصة على نيل الاعتراف الرسمي الكامل بها كنشاط وكشهادات علمية؛ بما يضمن لها البقاء في ظل التغيرات العميقة التي تطرأ على الحالة المصرية بين آونة وأخرى.. وقد حققت الجامعة بعضًا من ذلك خلال هذه الفترة.

ومع موت "عبد الناصر" ومجيء "السادات" انفرجت الأمور، وبدأت مفاوضات للاعتراف بالدرجات العلمية للجامعة مقابل تعيين خمسة وأربعين بالمائة من الأساتذة من مصر مقابل نفس النسبة من الأمريكيين، والباقي يتم استكمالهم من باقي الجنسيات، وأن تكون الوظائف الإدارية للأمريكيين، وألا يقل عدد الطلاب المصريين عن خمسة وسبعين بالمائة، والأمريكيين عشرة بالمائة، والباقون من العرب، وطلبت الحكومة أن يتم تعيين مستشار للجامعة ومجلس استشاري لها من المصريين.

وبالفعل تم الاعتراف بالجامعة كما أرادت لنفسها من حيث (الهُوية والاستقلالية والدرجات العلمية) التي تمنحها وفق بروتوكول موقع عليه من وزير التعليم ورئيس الجمهورية شخصيًّا.

وقد استفادت الجامعة من هذه الإجراءات استفادة كبيرة؛ حيث عمقت اتصالها بجميع الأوساط، ونالت عن طريقهم ما لم تنل من قبل، بالإضافة إلى أن رواتب هؤلاء تبدو متواضعة، كما أنها لن تعدم من بين هؤلاء من ينفذ رغباتها خاصة بعد أن اطمأنت إلى أجيال من خريجي الجامعة ممن تبنوا فكر الجامعة، وربما كان الأمر مستحيلاً في بداية عمر الجامعة؛ لأنها كانت تريد بناء نسق معين يحتذى؛ وقد كان.

وبدت الجامعة في أنشطتها الثقافية والتعليمية متكاملة مع الجامعات الوطنية المصرية، ولذلك حرصت الجامعة على تقديم تعليم مكثف للطلاب يقابل حاجات المجتمع الجديد، كما حرصت أن يكون طلابها ممن لديهم القدرة على تلقي هذا النوع من التعليم.

أما الممارسات والأنشطة المتعلقة بتحقيق الأهداف المعلنة؛ فقد قدمت الجامعة خدماتها للمجتمع عبر (مركز البحث الاجتماعي) بتمويل من (مؤسسة فورد) ووكالة التنمية الدولية AID، وكانت الموضوعات: الزيادة السكانية، ووسائل منع الحمل.. كما تقدم المركز ببحوث حول المواد الخام الصلبة المتوفرة في مصر.

وإنْ كانت الجامعة قد خففت من الهدف الديني المباشر من أجل ضمان بقائها واستمراريتها؛ إلا أنها بقيت على أهدافها الأخرى:

الهدف الثقافي، وهدف خدمة المجتمع، وهدف إعداد القادة.. **والحاصل أن الجامعة ظلت حريصة على تحقيق (الهيمنة) على المجتمع المصري مباشرة، والمجتمعات العربية الأخرى بالتبعية، كما تبين وجود أهداف أخرى غير معلنة بدا بعضها وربما ما خفي أكثر..**

وقد أشاد اللورد "كرومر بالتعليم الأمريكي بقوله: "إنه ليس لدي أي تردد في إظهار نتيجة ما يزيد على ثلاثة وعشرين عامًا من الخبرة بأن مدارس التبشير الأمريكي وكلية أسيوط البارزة أحدثت إنجازًا كبيرًا وتقدمًا جيدًا للتعليم والحضارة في مصر".

وقد تكشف لنا من خلال هذه الدراسة القيمة **حقيقة (اختراق) الجامعة الأمريكية للمجتمع العربي من مفرق رأسه حتى أخمص قدميه، وبصورة محببة وجذابة تخطت بصورة مذهلة ما عجز عنه نظام "دنلوب".. فالاحتلال البريطاني ظل احتلالاً، وقد كان له أثره في الأمة، أما التجربة الأمريكية التي لم تنتهِ فصولها**

بعد؛ فتمثل نوعًا جديدًا من الاستعمار؛ هو (الاستعمار النفسي) الذي بدأ على عكس التجربة البريطانية بـ(التعليم) وانتهى بـ(العسكرة)!![١]

التدريس بالإنجليزية:

تعتبر مشكلة تعريب التعليم الجامعى والتدريس باللغات الأجنبية من **المشكلات التي تكاد تنفرد بها الجامعات المصرية والعربية عمومًا**؛ ذلك أنه باستثناء بعض الدول الأفريقية جنوب الصحراء التي خضعت للاستعمار، وبعض الدول التي كثرت فيها اللغات المحلية بحيث لا توجد لها لغة قومية كالهند.. **فإن التعليم الجامعي في دول العالم يتم باللغة القومية**، ففي "بريطانيا" و"الولايات المتحدة" و"أستراليا" يتم بالإنجليزية، وفي "الصين" باللغة الصينية، بل إن مقاطعة "كويبيك" في "كندا" سنَّت تشريعًا سنة ١٩٧٧م يجعل لغة التعليم بكل أشكاله باللغة الفرنسية (وهى اللغة القومية لسكان المقاطعة) حمايةً لجامعاتها من سيطرة الأغلبية الإنجليزية. وفي الجامعات "اليابانية" أيضًا لغة التدريس هي اليابانية، ولا توجد برامج للتدريس باللغة الأجنبية.

وفي الكيان الصهيوني على الرغم من أن **(بعث اللغة العِبرية)** فكرته الأساسية هي المساعدة على قيام دولة إسرائيل، إلا أنها أصبحت –بعدما كانت لغة دينية ميتة– لغة العلم من الروضة إلى الدكتوراة بالجامعة، تُدرس بها كل أنواع العلوم والتكنولوجيا والطب في مجتمع لا يتعدى تعداد سكانه سبعة ملايين! فقد قال المفكر اليهودي "إليعازر بن يهودا" في نهاية القرن التاسع عشر؛ على مشارف إعلان الدولة اليهودية: **"لا حياة لأمة دون لغة"**.

---

[١] أهداف الجامعة الأمريكية بالقاهرة ١٩٢٠ - ١٩٨٠م: د. سهير حسين البيلي/ عرض: وائل عبد الغني مجلة البيان (١٨٠/ ٥٠) (باختصار وتصرف).

وفي موقف رسمي حمَل رئيس أركان (الكيان الصهيوني) الجنرال "غابي أشكنازي" على نظام التعليم الذي لا يقدم للجيش مجندين يفقهون التاريخ، ويجلب له أناسًا يفضلون معاقرة الخمور. وأشار إلى تعاظم ظاهرة التهرب من الخدمة العسكرية؛ محذرًا من أن استمرارها سيقود إلى وضع لا يغدو فيه سوى قلة تلتحق بالجيش.

وجاءت هذه الحملة في خطاب ألقاه أمام (مدراء المدارس) الإعدادية في القدس؛ في ظل فضائح حول سوء سلوك ضباط الجيش؛ وبينهم أحد أفراد طاقم حماية "أشكنازي" نفسه.

وأضاف: إن ثلث الجنود وصلوا إلى القدس للمرة الأولى في حياتهم أثناء خدمتهم في الجيش. وهناك جنود يظنون أننا احتللنا قلعة "الماسادا" في حرب الأيام الستة.[١] **كما أن هناك جنودًا من الخارج لا يعرفون اللغة العبرية.[٢]**

وفي المجر التي لا يتعدى تعداد سكانها خمس عشرة مليون نسمة، فالتدريس باللغة المجرية من التحضيري إلى الدراسات العليا بالجامعة؛ إذ تُحرر الرسائل الجامعية باللغة الوطنية، وإتقان اللغة المجرية شرط ضروري على الأجانب لدخول كلية الطب لأن العلوم الطبية تدرس باللغة المجرية.

---

[١] قلعة مسعدة أو (ماسادا) كما ينطقها اليهود: منطقة تقابل منطقة اللسان من البحر الميت يقال لها مسعدة، وهي قلعة من القلاع الأثرية. ومن أساليب حرب الصهيونية ضد التاريخ وحقائقه ابتكار وصياغة أساطير جديدة تخدم الأهداف الصهيونية؛ هي نتاج بنات أفكارهم، فقد جرى خلق هذه الأسطورة بواسطة عمليات حذف دؤوبة لحقائق أساسية، وإضافة وتزييف حقائق لم تكن قائمة.. وخلاصة أسطورة الماسادا أن جماعة من المقاتلين اليهود الفارين من القدس بعد تدميرها على يد الجيش الروماني عام (٧٠)م إلى المسادا خاضوا معركتهم الأخيرة ضد الجيش الروماني، وعندما أوشك هذا الأخير على احتلال قلعة المسادا اختار المقاتلون اليهود الانتحار الجماعي بدلاً من الاستسلام أمام الرومان والتحول إلى عبيد، أو الموت ميتة فظيعة. وقد لعبت هذه الأسطورة لدى الصهاينة دورًا حاسمًا في بلورة الهوية الفردية والجمعية الجديدة لأجيال من اليهود بين مطلع الأربعينات وأواخر الستينات. أما حرب (حرب الأيام الستة) كما تسمى في الكيان الصهيوني؛ فهي حرب يونيو١٩٦٧م، وتُعرف في كل من "سوريا" و"الأردن" باسم "نكسة حزيران"، وفي مصر باسم "نكسة ٦٧". [لصهيونية ومحاولات اغتيال التاريخ الفلسطيني: عبد الله الحسن]

[٢] صحيفة "معاريف" ٢٠٠٩/١٢/٢.

وقد أثيرت في مصر قضية التدريس باللغات الأجنبية في إطار قضية "تعريب التعليم الجامعي" في الخمسينات كجزء من حركة الاستقلال الوطني وتأكيد الهُوية القومية. **فحينما نشأ التعليم الجامعى المعاصر تم اقتباس (النظم الغربية) سواء في مناهج التدريس، أو في لغة التدريس في كثير من الأحيان.**

ورغم أن حركة النهضة العلمية في عهد "محمد علي" اقتبست النظم التعليمية الأوروبية، إلا أنها حرصت على (تعريب) العلوم المنقولة، وكان الحكام يلزمون طلاب البعثات بنقل هذه العلوم إلى اللغة العربية، وأن تكون اللغة العربية هي لغة التدريس. فحينما أنشأ "كلوت بك"[١] مدرسة الطب التابعة للجيش في "أبي زعبل" عام ١٨٢٧م، **جعل المحاضرات باللغة العربية بواسطة مترجم، ثم تعلم هو وزملاؤه اللغة العربية، وألقوا بها محاضراتهم.**

كذلك قام طلاب البعثات بترجمة كتب الطب الفرنسية المشهورة إلى اللغة العربية، وبذلك صارت الدراسة في مدرسة الطب باللغة العربية ما عدا الدراسات العليا. **بيد أنه مع وقوع "مصر" تحت الاستعمار البريطانى تحولت (المدرسة) إلى اللغة الإنجليزية.**

أما المؤسسات التعليمية العالية التى نشأت في ظل الاحتلال فقد **استعملت لغة المستعمر كلغة التدريس.** فقد استعملت الجامعة الأهلية المصرية التي تأسست سنة ١٩٠٨م اللغة الإنجليزية، ففي كلية "العلوم" بجامعة القاهرة كان التدريس يتم حتى منتصف الستينات باللغة الإنجليزية، وفي كلية "الآداب" كان قسم كبير من الدراسة يتم بواسطة أساتذة أجانب وباللغات الأجنبية.

---

[١] طبيب فرنسي قضى معظم حياته في مصر، بعدما عهد إليه "محمد علي" باشا بتنظيم الإدارة الصحية للجيش المصري، وصار رئيس أطباء الجيش. منحه "محمد علي" باشا لقب "بك" تقديرًا لجهوده في النهضة الطبية التي أحدثها في مصر. أقنع "كلوت بك" "محمد علي" باشا بتأسيس "مدرسة الطب" في "أبي زعبل" عام ١٨٢٧م، وتولى إدارتها، وكانت أول مدرسة طبية حديثة في الدول العربية. [الموسوعة الحرة]

ومع استقلال الدول العربية، بدأ اتجاه بين الجامعيين للتخلص من التدريس باللغات الأجنبية، في إطار ما سمي "بتعريب التعليم الجامعى". سارت جهود الجامعات المصرية في ثلاثة محاور رئيسية.

المحور الأول هو المحور التشريعي: وقوامه إدخال نصوص في قانون الجامعات تجعل من اللغة العربية لغة التدريس.

المحور الثاني هو المحور العلمي: وقوامه أن تكون اللغة العربية هى لغة المراجع والمؤلفات الجامعية العربية، ففى جامعة القاهرة مثلاً صدرت العديد من المؤلفات الجامعية العربية عن الموضوعات العلمية الأجنبية، وبالذات في ميدان العلوم الاجتماعية والإنسانيات.

أما المحور الأخير فهو محور صياغة المصطلحات العلمية: ومن المدهش أن معظم المحاولات التى تمت في هذا الصدد تمت خارج إطار الجامعات؛ ذلك أنه باستثناء الجهود التي قامت بها جمعية خريجى كلية العلوم بجامعة القاهرة، ومجلة رسالة العلم، وبعض الجهود الفردية لأساتذة الجامعات.. فإن جهود تعريب المصطلحات العلمية تمت في إطار مجمع اللغة العربية في القاهرة، وجامعة الدول العربية وبالذات الإدارة الثقافية والمنظمات المتخصصة، والمجمع العلمي العراقي، والمجمع المصري للثقافة العلمية، ومجمع اللغة العربية الأردني، والاتحادات العربية المتخصصة، والاتحاد العلمي العربي.

وحتى أوائل الثمانينات اعتقد أنصار قضية تعريب التعليم الجامعي أن القضية حُسمت في التخصصات النظرية، وأنه لم يتبقَ إلا معالجة آثار قضية التدريس باللغات الأجنبية في بعض التخصصات العلمية كالطب والصيدلة والكيمياء.

ومن يراجع أعمال مؤتمر "تعريب التعليم العالي في الوطن العربي" المنعقد في بغداد سنة ١٩٧٨م، وندوة "التعريب وقضايا اللغة العربية في التعليم الجامعي" المنعقدة في

السودان سنة ١٩٧٩م يجد أن هذا الاعتقاد الذي كان راسخًا سرعان ما بدأ يتراجع مع **اتجاه بعض التخصصات النظرية إلى العودة إلى التدريس باللغات الأجنبية، بل تكليف الطلاب بدفع مصروفات خاصة في هذه الأقسام الجديدة التي سيتم التدريس فيها بلغة أجنبية!**

والأصل أن اللغة القومية هي المنطلق الأساسي الذي تنطلق منه الأمم في ثورتها العلمية، وذلك كما تثبته خبرة الجامعات اليابانية والصينية، وكما تثبته أيضًا الخبرة التاريخية لمدرسة الطب المصرية في النصف الأول من القرن التاسع عشر، فقد ازدهرت حركة التأليف والترجمة والبحث العلمي في هذه المدرسة حينما استعملت اللغة العربية كلغة للتعامل.

وفي هذا الصدد يؤكد الدكتور "عبد الحافظ حلمي" عميد كلية العلوم الأسبق بجامعة عين شمس، أنه قد ثبت من التجارب العملية أنه عند تدريس موضوع ما لجماعتين من الطلاب العرب متكافئتين على وجه العموم، تتلقاه إحداهما بالعربية، وتتلقاه الأخرى بالإنجليزية، كانت حصيلة الطالب من المجموعة الأولى أكبر، وفهمه للموضوع أتم وأعمق، في وقت أقصر وبجهد أقل.

كذلك يشير الدكتور "عبد الملك أبو عوف" الأستاذ السابق بكلية الصيدلة بجامعة القاهرة، إلى تجربته الشخصية حينما قام بالتدريس باللغة العربية في جامعة دمشق بعد أن قضى سنوات حياته يدرس باللغة الإنجليزية، فقد ساعده التدريس بالعربية على وضع مؤلف ضخم باللغة العربية في الكيمياء العضوية كإسهام عربي رائد، كما أن نتائج طلبته في جامعة دمشق كانت أفضل من نتائج طلبته في جامعة القاهرة نظرًا لاستيعاب طلبة جامعة دمشق لمحاضراته بشكل أعمق.

ويذكر الدكتور "عبد الوهاب عامر" الأستاذ بهندسة القاهرة، أن التدريس باللغة الإنجليزية في كليات الهندسة أدى إلى ارتباك الطالب وعدم قدرته على متابعة دروسه

حتى أصبح أمرًا طبيعيًّا مرور المتحنين في قاعات الامتحان لترجمة وتعريب ما استعصى على الطالب من كلمات.

ومن وحي التجربة التعليمية بالجامعة نستطيع أن نجزم أن الطلاب يكونون أكثر استيعابًا وفهمًا للمقاييس المدرسة باللغة العربية من المقاييس المدرسة باللغة الإنجليزية أو الفرنسية.. ولا غرابة في هذا؛ فاللغة لا تنفصل عن التفكير، ومن فكر بلغته الأم كان أقدر من غيره على الخلق والإبداع.

وقد أكدت إحدى الدراسات العلمية أن الدول التي سُجّل فيها أكبر عدد براءات اختراع هي الدول التي تدرس العلوم بلغتها.

وفي بلادنا العربية.. عشرات السنين والعلوم الطبية تستقطب نجباء "البكالوريا"، لكن المجال بقي (منكوبًا) في مفارقة عجيبة! والأكيد أن من بين الأسباب (لغة التدريس)..!

ونأتي للنتيجة الأكثر خطورة وهي أن التدريس باللغات الأجنبية قد كرس الولاء للثقافات الأجنبية لدى بعض الطلاب، وبالذات هؤلاء الذين أتوا إلى الجامعة من مدارس اللغات الأجنبية. فقد أصبح المستقبل العلمي للطالب بأكمله مرتبطًا بالثقافة الأجنبية. وأصبحت توجد داخل الجامعة مجموعات من الطلاب الذين يدينون بالولاء للثقافة الأمريكية أو الفرنسية ويدرسون في أقسام اللغة الإنجليزية أو اللغة الفرنسية.[١]

خطة تقليص ظل الأزهر:

[١] عار يا أمة الضاد: مقال للدكتور "إسماعيل بوجعدار"/صحيفة اللغة العربية صاحبة الجلالة – التدريس باللغات الأجنبية في الجامعات المصرية: بحث للدكتور "محمد السيد سليم" أستاذ العلوم السياسية/جامعة القاهرة (باختصار وتصرف).

ركز الاستعمار البريطاني عداءه على (الأزهر) والمعاهد الدينية التي كانت تغذي الأزهر بالطلاب، وبدأ السعي الحثيث للقضاء على التعليم الإسلامي والأوقاف الإسلامية؛ لقناعتهم أن أعظم وسيلة لإبعاد المسلمين عن دينهم هو أن يكونوا جهالاً به، واتعظوا بمصير "كليبر" الحاكم الفرنسي لمصر أيام احتلال "نابليون"؛ الذي قُتل على يد طالب الأزهر "سليمان الحلبي"، ثم بما لاقاه الاستعمار الإنجليزي من مقاومة جهادية في الهند وأفغانستان والمغرب وغيرها؛ فقد كان زعماء الحركات الجهادية هم علماء الشريعة..

فوضعوا المخططات الماكرة لتقليص التعليم الديني تدريجيًّا وإحلال التعليم (اللاديني) محله، وأشهر هذه المخططات الخبيثة التي أعدها "كرومر" وقام بتنفيذها "دنلوب"؛ **سياسة تعليمية بعيدة المدى دقيقة الخطى في القضاء على الأزهر ومعاهده وكتاتيب القرآن، ووضع نموذج خبيث للدس على الإسلام وتشويه تاريخه من خلال المناهج التعليمية..**

وتتضح ملامح المخطط الخبيث في تقرير "كرومر" لسنة ١٩٠٦م والذي جاء فيه:

[إن التعليم الوطني عندما قدم الإنجليز إلى مصر كان في قبضة الجامعة الأزهرية الشديدة التمسك بالدين، والتي كانت أساليبها الجافة القديمة تقف حاجزًا في طريق أي إصلاح تعليمي، وكان الطلبة الذين يتخرجون في هذه الجامعة يحملون معهم قدرًا عظيمًا من غرور التعصب الديني.. ولا يصيبون إلا قدرًا ضئيلاً من مرونة التفكير والتقدير، فلو أمكن تطوير الأزهر عن طريق حركة تنبعث من داخله لكانت هذه خطوة جليلة الخطر. ولكن إذا بدا أن مثل هذا الأمل غير متيسر تحقيقه فحينئذ يصبح الأمل محصورًا في إصلاح التعليم اللاديني الذي ينافس الأزهر حتى يتاح له الانتشار والنجاح، وعندئذ فسوف يجد الأزهر نفسه أمام أحد أمرين: فإما أن يتطور، وإما أن يموت ويختفي].ا.هـ

ولقد نفذوا ما صرحوا به، وعملوا على تضييق الخناق على التعليم الإسلامي والمدارس الإسلامية؛ ولا سيما الأزهر، **فقد ركزوا على شيئين:**

أحدهما: التطويق من الخارج: وذلك بالسخرية من الأزهريين المعممين والتندر بهم، وتسفيههم واتهامهم بالتحجر والجمود، وعدم فتح الفرص الوظيفية أمامهم، وغير ذلك..

وثانيهما: هو التطوير من الداخل: وذلك بتغيير مناهجه، ومصادرة أوقافه، والتدخل في تعيين شيوخه وقبول طلابه على أسس علمانية..!

ولقد نجح الأعداء إلى حد كبير وكان هذا أحد المحاور التي وضعها "كرومر" و"دنلوب".

وفي المقابل تم التوسع في فتح المدارس والكليات والجامعات الاستعمارية لتدريس العلوم المدنية باللغة الإنجليزية.. ويتخرج موظفون كتبة في الدواوين والوزارات التي يحتلها ويديرها الإنجليز، يقبضون رواتب مغرية تُعد بالجنيهات لا بالقروش، ولم يكن الأمر بحاجة إلى مزيد من الإغراء، فمن ذا الذي سيبعث بابنه بعد اليوم إلى الأزهر إلا الفقراء العاجزون عن دفع المصروفات؟! بينما الكُل يتطلع لمستقبل مضمون في وظيفة الحكومة؛ حيث يرطن بلغة السادة المستعمرين..!!

وفي اللاشعور يُرسب ذلك كله نفورًا من الدين، وإقبالًا على غير الدين؛ من حيث لا يدري الطالب الصغير أو الكبير، ومن حيث لا يشعر.

واستمر المستعمرون في توجيه أعتى ضرباتهم للأزهر بأخبث الأساليب.. فأخذوا يقللون من شأنه، ويصادرون أوقافه، ويتمادون في السخرية والازدراء بخريجي الأزهر، ويحاولون عزل مؤسسة الأزهر عن الحياة العامة، وتشويهها وتشويه ما تقوم على تدريسه وتعليمه في أذهان الناس، عن طريق الصحف المأجورة والأقلام الرخيصة المشتراة، وأدعياء العلم المسيطرين ممن يسارعون إلى كسب ولاء اليهود والنصارى.

وكان لابد للمستعمر أن يحقق للمسلمين جهالتهم بالدين؛
ليتحقق فيهم من بعد أنَّ مَنْ جَهِلَ شيئًا عاداه.

وفي أبريل سنة ١٩٠٦م عُقد بالقاهرة (مؤتمر المبشرين)، والذي اجتمع فيه معظم الإرساليات التبشيرية في المنطقة برئاسة "زويمر"، وكان عدد مندوبي الإرساليات التبشيرية قد بلغ اثنين وستين مندوبًا رجالا ونساءً، وتم انتخاب "زويمر" رئيسًا عامًّا للمؤتمر، وكان من أهم المسائل التي طُرحت:

١- إحصاء لعدد المسلمين في العالم.

٢- وضع التعامل مع المسلمين في شرق وجنوب شرق آسيا.

٣- منهج التعامل مع المسلمين المثقفين والمسلمين العوام.

٤- دور المرأة وشؤون النساء المسلمات.

وقد جمعت أعمال المؤتمر في كتاب مستقل نُشر باسم "وسائل التبشير بالنصرانية بين المسلمين"، جمعه القسيس الأمريكي "فلمنج"، وكُتب عليه من الخارج: "نشرة خاصة"؛ ليكون الكتاب قاصرًا في تداوله على فئة خاصة من المشتغلين بالتبشير.

وضُمِّن هذا الكتاب بعض التوصيات التي تم رفعها إلى الحكومات المعنية، **ومن أهم هذه الاقتراحات:**

محاولة الالتفاف حول الأزهر في مصر؛ لأنه مفتوح لكل الطلاب من العالم كله، وأنه لا يخضع في تمويله لأي حكومة؛ لأن أوقاف الأزهر تدر دخلًا كبيرًا يساعد العالِم والمتعلم فيه، ولا بد من العمل على تقليص دوره، ولنبدأ ذلك بإنشاء جامعة نصرانية تشارك في الإنفاق عليها جميع الكنائس المسيحية على اختلاف مذاهبها؛ لأن في التخلص منه مصلحة لجميع الكنائس بلا استثناء.

وتَعَرض (الأزهر) جامعًا وجامعة إلى حملات (متتابعة) أدت إلى (إضعافه) والعمل على تحويله إلى مؤسسة تعليمية (مدنية)..

كما تتعرض المؤسسات التعليمية الدينية الأخرى في مصر وفي غير مصر لمثل هذه الحملات التي يراد للمؤسسات التعليمية الغربية أن تحلَّ محلها في مناهجها وتخطيطها وطريقتها في التربية والتعليم.

وكان المبشرون يحرصون على نشر الكتب الدينية كالأناجيل الأربعة، وعلى نشر (نصوص) من (التوراة). ويطرقون في نشراتهم موضوعات مختلفة، ويفرغونها في قالب مسيحي ديني. ولكنهم حريصون على أن يتولى كتابة هذه الموضوعات أشخاص (وطنيون) لا مبشرون أجانب، أو أشخاص (صبأوا) إلى النصرانية حديثًا؛ لأن هؤلاء يكونون أقدر على فهم عقلية جماهيرهم، وعلى عرض تلك الموضوعات بصياغة قريبة من فهم تلك الجماهير.. وفي بعض الأحيان يختار المبشرون موضوعات إسلامية لها مقابل في الديانة النصرانية، ثم يموهون الحقائق ويقفزون فوق الفروق.

ومن ثَمَّ.. فلا بد أن تتجه الأنظار وتُعقد الأمال على (طلبة الأزهر) في مصر، على اعتبار أن الأزهر معقل الإسلام، وأن الصابئ الأزهري ـ إذا اتفق ذلك ـ يكون عونًا للمبشرين على زيادة التغلغل في العالم الإسلامي.

وعلى كلٍّ فالتبشير بين الأزهريين لا يزال تجربة فقط، وإن كان المبشرون ينتظرون أن يتسع، وأن يقوم في الدرجة الأولى على الجدال والوعظ.

وهم حريصون كل الحرص على تقليص دور الأزهر الرائد في نشر الإسلام؛ حتى لا يزاحمهم، ويترك لهم الساحة يعبثون بعقول الناس كما يشاءون.. **يقول"جاردنر" السكرتير العام لجمعية الطلبة النصارى: إن من سداد الرأي منع جامعة الأزهر أن تنشر الطلبة المتخرجين فيها في جنوب أفريقيا؛ اتباعًا لقرار مؤتمر التبشير العام؛ لأن الإسلام ينمو بلا انقطاع في كل أفريقيا.ا.هـ**

والخلاصة: إما أن يكون الأزهر له شبيه، وإلا.. فليكن هو شبيهًا بالآخرين. [١]

الابتعاث من أجل تحصيل العلوم والمعارف الجديدة في الغرب:

تأتي أغلب صور التأثر والتاثير من خلال الاتصال بين الحضارات والثقافات، وقد وقع تأثر من بعض المسلمين في عصر قوة الإسلام وضعف الحضارات الأخرى وظهرت فرق مختلفة بسبب ذلك الاتصال، والحال أكثر وضوحًا في زمن ضعف المسلمين وقوة الغرب المادية وتطوره الدنيوي الفاتن.

فقد جاء الاتصال وقت تقدم الغرب مع غليان ساحته الفكرية بتيارات جديدة، ومن صور الاتصال التي وقعت في البدايات:

أ- الرحلات الأولى الاستكشافية أو التجارية أو البعثات الدبلوماسية، إذ تولَّت هذه الشريحة الأولى وصف حال الغرب، وهو وصف لا يخلو من فتنة، وقد كان هذا من بدايات بروز أشخاص منبهرين بالحضارة الغربية.

ب- الابتعاث من أجل تحصيل العلوم والمعارف الجديدة في الغرب، **وُيعد الابتعاث أحد أبرز الظواهر الثقافية الخطيرة، وهو جديد على الأمة الإسلامية**، فقد كان الأمر مختلفًا في العصور الأولى، إذ غلب عليها مشروع الترجمة، ومن النادر ظهور حالات ذهاب إلى أمم أخرى لتحصيل العلوم إلا بشكل رحلات فردية.

أما في العصر الحديث فقد برز مشروع الابتعاث، بما يعنيه ذلك من ذهاب عدد من الشباب في وقت حماسهم من جهة وضعفهم من جهة، ولاسيَّما أنه إذا لم يتم الإعداد الجيد للشباب المبتعثين فسيكونون عرضة للافتتان بالحياة الفكرية والاجتماعية

---

[١] صور من كيد الكافرين لمحاربة الإسلام في مجال التعليم: د. حيدر بن أحمد الصافح – أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي: د. علي جريشة – الاستشراق والتبشير: د. محمد السيد الجليند – التنصير مفهومه وأهدافه ووسائله وسبل مواجهته: علي بن إبراهيم الحمد النملة – التبشير والاستعمار في البلاد العربية: د. صلاح خالدي ود. عمر فروخ. (باختصار وتصرف)

وبعموم الحضارة الغربية، فكيف إذا واجه هؤلاء الشباب مؤسسات وقوى غربية تحاول استثمارهم لمشروعات تغريبية أو مشروعات فكرية علمانية.

وقد نجح الغرب في جعل الابتعاث عملية مستمرة؛ فهو يكسب منها ماديًّا ويكسب منها معنويًّا، ومن الواضح أن العالم الإسلامي لم ينجح في الاستقلال المعرفي بعد كل هذه السنين من الابتعاث. وما يهم هنا أن **الابتعاث المستمر قد أصبح منفذًا خطيرًا للتغريب الفكري والاجتماعي، وقد كان أغلب رموز التغريب الفكري من المبتعثين، فقد تحولوا من نفع الأمة إلى تغريبها.**

والذي يظهر أن مثل هذا العمل (مشروع الابتعاث) لم يحدث في تاريخ الأمة الإسلامية، فالمعهود هو إرسال شخص أو أن يتحمس أحد الناس لطلب ما عند الأمم الأخرى من علوم فيذهب إليهم، أو طلب أحد الماهرين من أبناء تلك الأمم ليعلم بعض أبناء المسلمين مثل هذه العلوم، أو نقل كتبهم ودراستها دراسة ذاتية، أما أن يتم إرسال طلبة يدرسون في مدارس الأمم الأخرى، ثم يعودون لنقل ما درسوه؛ فما اشتهر إلا مع هذه التجربة التي قام بها "محمَّد علي"، وقد سار على هذه الطريقة فيما بعد مركز الخلافة، ثم أغلب ولاة المسلمين في ذلك القرن، واستمر هذا في القرن اللاحق بعد سقوط دولة الخلافة والوقوع في فخ الاستعمار، واستمر أيضًا مع ولادة دول ما بعد الاستعمار، حيث يُعد الابتعاث -وإلى الآن- السياسة المتبعة في تحصيل العلوم والصنائع والفنون من الغرب.

لقد أصبح مصطلح "الابتعاث" مكونًا من مكونات التعليم في العالم الإسلامي، ولا تجد إلى الآن مؤسسة تعليمية إلا وفيها إدارة خاصة للعناية بالابتعاث، ومع أننا لما يقرب من قرنين نبتعث؛ إلا أن ذلك لم يحقق لنا الاستقلال المعرفي، ربما لأننا لم نراجع مثل هذا المصطلح، ولم نبحث عن إمكانية التخلص منه والبحث عن طريق آخر للخروج من مأزق التبعية المعرفية.

بعد أربعة أعوام من تولي "محمَّد علي" السلطة أرسل البعثة الأولى إلى "إيطاليا" سنة ١٨٠٩م لدراسة العلوم العسكرية وبناء السفن والطباعة وفنون الهندسة. تحولت بعد ذلك البعثات إلى فرنسا، وكانت بعثة سنة ١٨٢٦م أشهرها بسبب شهرة واعظ البعثة الشيخ "رفاعة رافع الطهطاوي"، وتختلف التقديرات حول نوعية التخصصات؛ إلا أن العلوم العسكرية أخذت حصة الأسد، أما العلوم العصرية الحديثة فهي وإن كان أغلب المبتعثين يطلعون عليها إلا أن هناك قلة تخصصت فيها.

كان هؤلاء الشباب نواة المسلمين الأولى في التعرف على العلوم العصرية؛ لأن الأمر قبلهم كان محصورًا في الملِّيين من يهود ونصارى الذين يتولون أمور الطب والحساب والصنائع، وهذه المجموعة قد وصلت أوروبا ولاسيَّما فرنسا وهي تموج بأوضاع مثيرة؛ أخطرها تحديد الموقف من الدين.. إذ كانت آنذاك فترة القرار العلماني المتطرف النازع لرفض الدين تمامًا وتأسيس مستقبل جديد لا علاقة له بالدين، وغير المتطرف منهم يسمح بوجود الدين كمؤسسة على هامش المجتمع لبعض الأفراد الذين لا يستغنون عنها، **وأخطر ما في ذلك: التوجه إلى تأسيس العلوم منفصلة عن الدين، بل توظف كثيرًا في ضرب المفاهيم الدينية.**

في هذا الجو الصاخب رُمي بهؤلاء الشباب في أتون تلك المعركة التي حيرت أهلها فكيف بغيرهم؟!! فهل يستطيع هؤلاء الشباب استخلاص النافع من علوم الغرب وعدم التأثر بظاهرة العلمنة العلمية؟

وقد حقق (الابتعاث) نتائجه المقصودة.. فهو أولًا يزيد طالب التعليم العام جهالة بدينه وقيمه ومثله، ويزيده تعلقًا بقيم الغرب أو الشرق ومُثُله، وهو من ناحيةٍ أخرى يبدأ بتطبيعه بطباع غير إسلامية، ثم يصير التطبع مع الزمن طبعًا، وينسلخ الطالب من حيث لا يشعر حتى من تقاليده في الملبس والمأكل والمشرب وطريقة التعامل، ويغدو غربيًّا أو شرقيًّا ربما أكثر من الغربيّ أو من الشرقيّ.

فهؤلاء الشباب يُصنعون على عين قوى الاستعمار، ويعودون إلى بلدانهم ينعقون كالغربان بشعارات الأعداء وينفثون سمومهم في أوساط المسلمين، ويدعون إلى السير والاقتداء بأوروبا في كل شيء، والانسلاخ عن الإسلام والعروبة..

والملاحظ أنه يُمَكن لهؤلاء في بلدانهم، وتتدخل الدول الصليبية عن طريق سفاراتها في عواصم العروبة والإسلام لتعينهم في أعلى المناصب؛ ليقوموا بالواجبات المطلوبة منهم في تدمير المجتمعات، وتغيير هُويتها بشتى الوسائل والأساليب، وهذه السياسة قائمة ومستمرة حتى اللحظة.

هذا الشيخ "رفاعة الطهطاوي"؛ الذي بُعث إلى "باريس" خمس سنوات (١٨٢٦م-١٨٣١م)، **ليعود بعدها يحدث أبناء أمته عن نوادي ومراقص باريس، ثم ينادي بـ(الفرعونية) بديلًا عن الإسلام.**

ويحدد المستشرق "بي.جي.فاتيكيوتس" بوضوح الدور الذي قام به "الطهطاوي" بقوله: **"لقد كان "الطهطاوي" أول من قدم بطريقة منظمة وذكية المبادئ العامة للمؤسسات السياسية الأوروبية. قدم "الطهطاوي" أفكار عصر التنوير والثورة الفرنسية وهما عماد هذه المؤسسات، كان "الطهطاوي" معجبًا بعقلية التنوير الأوروبي، ولهذا: فقد فتح الطريق لتابعيه للهجوم المكثف على كل ما هو تقليدي.. أدخل "الطهطاوي" إلى قرائه وهو يصف الدستور الفرنسي والمؤسسات السياسية الفرنسية فكرة (السلطة العلمانية) ومفهوم (القانون الوضعي) المشتق من مصادر أخرى غير (المصادر الإلهية)".ا.هـ .**

ومن بعده كان "طه حسين" وكتاباته: "مستقبل الثقافة في مصر"، و"مرآة الإسلام"، و"في الشعر الجاهليّ".. لا تحتاج إلى تعليق لكل ذي بصر إسلاميّ.

ولكنه أشد ما يكون بروزًا ووضوحًا وحماسة في كتابه "مستقبل الثقافة في مصر" الذي ظهر عام ١٩٣٨م:

يقول الدكتور "محمد محمد حسين": "ترجع خطورة الكتاب إلى أن صاحبه قد شغل مناصب كبيرة في الدولة، مكنته من تنفيذ برامجه أو إرساء أسس تنفيذها على الأقل. فقد كان **عميدًا لكلية الآداب بالقاهرة، وكان مديرًا عامًّا للثقافة بوزارة التربية والتعليم ـ المعارف وقتذاك ـ وكان مستشارًا فنيًّا بها. وكان مديرًا لجامعة الإسكندرية. وكان آخر الأمر وزيرًا للتربية والتعليم**، ثم إن شهرته وكثرة المعجبين به وتأثر الكثرة الكبيرة من تلاميذه بآرائه ومناهجه وافتتانهم بها قد زاد في خطورة أثره".ا.هـ

يقول "طه حسين": **"إن سبيل النهضة واضحة مستقيمة ليس فيها عوج ولا التواء، وهي أن نسير سيرة الأوروبيين ونسلك طريقهم، لنكون لهم أندادًا، ولنكون لهم شركاء في الحضارة؛ خيرها وشرها، حلوها ومرها، وما يُحب منها وما يُكره وما يُحمد منها وما يُعاب."**

ويقول: "هذه الحضارة الإسلامية الرائعة لم يأتِ بها المسلمون من بلاد العرب، وإنما أتوا ببعضها من هذه البلاد، وببعضها الآخر من مجوس الفرس، وببعضها الآخر من نصارى الروم..(!!) وقد احتمل المسلمون راضين أو كارهين زندقة الزنادقة ومجون الماجنين؛ ذلك في الحدود المعقولة، ولكنهم لم يرفضوا الحضارة الأجنبية التي أنتجت تلك الزندقة وهذا المجون."

ويقول: **[لا بد من تطور طويل دقيق قبل أن يصل الأزهر إلى الملاءمة بين تفكيره وبين التفكير الحديث، والنتيجة الطبيعية لهذا أننا إذا تركنا الصبية والأحداث للتعليم الأزهري الخالص، ولم نشملهم بعناية الدولة ورعايتها وملاحظتها الدقيقة المتصلة؛ عرضناهم لأن يصاغوا صيغة قديمة، ويُكَونوا تكوينًا قديمًا، وباعدنا بينهم وبين الحياة الحديثة التي لا بد لهم من الاتصال بها والاشتراك فيها، وعرضناهم لطائفة غير قليلة من المصاعب التي تقوم في سبيلهم حين**

يرشدون، وحين ينهضون بأعباء الحياة العملية، فالمصلحة الوطنية العامة من جهة ومصلحة التلاميذ والطلاب الأزهريين من جهة أخرى، تقتضيان إشراف وزارة المعارف على التعليم الأولي والثانوي في الأزهر.]

وهكذا نلمس في فكر الرجل التأثير القوي الذي أحدثته حركة (التغريب) التي نهل منها أثناء ابتعاثه إلى "فرنسا"؛ ففي كل قول يهدم ركنًا من أركان الإسلام، وفي كل تعبير يهاجم شعيرة من شعائر الدين، وهو يكره الشرق لأنه متمسك بدينه، ويحب الغرب لأنه نبذ الدين.. ويدعو بصراحة دعوة مباشرة وغير مباشرة، علنية وسرية، مكشوفة أو مكتومة للتخلي عن الدين وعن كل ما يربطنا به من رباط، وأن نتخلى عن مقومات الحضارة الإسلامية، وعن كل ما يشدنا إلى الأخوة الإيمانية والرابطة الدينية.. ويتمنى من كل قلبه: أن يلبس الشرق المسلم لباس الغرب الملحد، وأن يأكل من أكله وأن ينهج نهجه وأن يتبع سبيله..

ومع "طه حسين"، "قاسم أمين" وهو من المبتعثين إلى "فرنسا" للدراسة، يقول عنه مؤرخ حياته: [ويعود "قاسم" إلى قاعة المحاضرات بجامعة "مونبلييه" وهو أشد رغبة في تعرف المزيد عن الحياة في أوروبا، وهناك يجد زميلته "سلافا".. فلا يتردد في سؤالها أن تصحبه إلى المجتمعات الفرنسية وتقبل هي في سرور بادٍ.. وصحبته فتاته إلى كثير من الحفلات، وتعرف إلى كثير من الأسر؛ **فوجد حياة اجتماعية تختلف عن الحياة في مصر، وجد السفور بدل الحجاب، والاختلاط بدل العزلة، والثقافة بدل الجهالة.]ا.هـ**

كل هؤلاء لم تكن ثقافتهم ولا ترتيبتهم محلية، ومن ثَمّ.. لم يكن غريبًا ما صرحوا به أو أذاعوه؛ بل كان ذلك جزءًا من مخطط رهيبٍ أثيمٍ؛ لهدم قيم الإسلام ومُثله.

ولا يزال الابتعاث رغم ما خَرَّج من أساتذة يقومون بنفس الدور.. لا يزال له دوره؛ وبخاصة في البلاد التي تُسمى "نامية"، والتي يُخشى أن تتجه بصدق إلى الإسلام..

لا يزال الابتعاث يولي أهمية كبيرة لهذه البلاد باعتبارها بكرًا، ويصل الاهتمام إلى حد نزول الابتعاث من مرحلة ما بعد الجامعة إلى مرحلة ما بعد الثانوية العامة؛ حيث سن المراهقة الخطير، ينتقل فيه الشباب من المجتمع المغلق إلى المجتمع المفتوح، والمفتوح جدًّا؛ فتنقلب موازين عقله بعد موازين قلبه، كما حدث في درس "رفاعة رافع الطهطاوي".

كما يصل الاهتمام حد الحرص على إيفاد المبعوث سنةً كاملةً كل خمس سنوات بعد عودته من بعثته، وتوليه أهم المناصب.. وهكذا يتولد ضمان استمرار (الولاء) و(الوفاء) أو ما هو أشد من الولاء والوفاء.[1]

مخاطر تجذر الهُوية المغايرة:

لا يخفى خطر هذه (المنظومة التعليمية) في إعادة تشكيل الهُوية للأجيال الناشئة.. ومكمن خطورتها في:

* منظومة القيم التي تحتكم إليها المدرسة نصرانية كانت أو علمانية في إدارتها وفي حكمها على الأمور وكأنها تعوِّده على الرجوع إليها، حتى إذا ما أصبح هذا الخريج في يوم من الأيام مفاوضًا عرفوا كيف يوظفون مواقفه لصالحهم، بل إن قناعته بكثير مما يطمح الغرب إليه يصبح أمرًا ذاتيًّا لديه.

---

[1] النظريات العلمية الحديثة مسيرتها الفكرية وأسلوب الفكر التغريبي العربي في التعامل معها: حسن بن محمد حسن الأسمري – أضواء على الثقافة الاسلامية: د. نادية شريف العمري – أساليب الغزو الفكري: د. علي جريشة – أعلام وأقزام في ميزان الإسلام: د. سيد العفاني – وقفة مع التنويريين الجدد: مقال بقلم: د. أحمد إبراهيم خضر/مجلة البيان(١٠٢/٩٢) (باختصار وتصرف).

* رسم خريطة الأحلام المستقبلية للطالب؛ بحيث يوضع في اعتباره القيمي مجموعة من الأهداف المستقبلية والطموحات التي ليس من بينها طبعًا العيش في بلاد الإسلام ولا خدمة مصالحها.

* توظيف مناهج هذه المدارس وهي وافدة تدرس بلغة بلدها الأصلي، وتعرض تاريخه وتطوره وثقافته ومشكلاته الاجتماعية والاقتصادية والثقافية؛ ومن ثم تتجذر قضية الهُوية المغايرة في شعور الطالب دون أن يستطيع فهم طبيعة مشكلات مجتمعه هو، ولا ينشغل بقضاياه.

وتصبح اللغة الأجنبية لديه لغة العلم والحضارة والتحدث، وتُجعل قالبًا للخبرة القيمية؛ لأن اللغة حين تنتقل بتعبيراتها ومضامينها إلى الطالب يتشرب تلك المضامين دون وعي منه.

* الجوانب الأدبية والتاريخية، وهي عنصر إلهام؛ فالتاريخ الذي يدرسه الطالب في هذه المدارس ليس هو تاريخ الإسلام، وإنما تاريخ القومية التي تتبعها المدرسة؛ وفي هذا ترسيخ لمفهوم الشعوبية والقومية؛ فعلى سبيل المثال تصور الحروب الصليبية على أنها حملات تنوير، أو أن أسبابها ليست عقيدية وإنما سياسية أو اقتصادية، وأنها نتيجة لخلاف سياسي ناتج عن تنازع المصالح أو عدم تقدير الجانب العربي لمصالح الجانب الغربي؛ **ومن هنا تتشكل معالم تذوق جديدة للخير والحق والجمال.**

* المعايشة. ومعلوم أثر المعايشة والجو التربوي في بناء الشخصية؛ لأن كثيرًا من المستعصيات يمكن أن تحل عن طريق المعايشة.

* تعويد الطالب على الفوضى الفكرية باسم التحرر الفكري والحوار؛ حتى يمكنه أن يغير أفكاره كما يغير ملابسه، ولو ذهبنا نتتبع الموضات الفكرية والسياسية المطلة علينا من الغرب لاكتشفنا الصلة المباشرة والقوية لها بالتعليم الأجنبي.

لقد زاد من اتساع الهوة بين الشباب وبين هُويته الأصلية أن هذه المدارس ربطت نفسها بمنظومة مستمرة لا تدع للإنسان قرارًا منذ أن يقرع بابها إلا على الموت؛ فهي بعد تنشئته تغرس فيه الطموح إلى السفر إلى الغرب لاستكمال التعليم، كما تضمن له غالبًا وظيفة مرموقة في شركة من الشركات الأجنبية براتب مرتفع لتزداد العلاقة بالمجتمع تصرمًا وانقطاعًا، ثم تفتح له باب الزواج من غربية، ثم تحيطه بإطار واسع ومتشعب من الصداقات والعلاقات الاجتماعية في إطار أعرافها الاجتماعية والثقافية.

الخطر الأمني:

يتسع مفهوم الأمن ليشمل إلى جانب أمن النظام كمظلة وأمن المجتمع كمحضن ليشمل أمرين سابقين مقدمين عليهما، وهما: **العقيدة** بوصفها أساسًا يقوم عليها النظام والمجتمع، **والولاء** باعتباره صلة تربط بين مكونات المجتمع والدولة. والمفترض أن تعريض واحد من هذين الأمرين للخطر حتى ولو على مستوى فرد يعني تعريض أمن الأمة للخطر. وللأسف فإن نظرية الأمن القومي الأمريكي قد راعت هاتين المسلَّمتين بينما أغفلت في الحس العربي ولكن بنظرتها المخالفة؛ لكنها تقيم لفكرها المنحرف وإنسانها مهما كان وأين كان هذا الاعتبار الأمني.

ومن ثم فإن خطر التعليم الأجنبي على أمن الأمة لا بد أن توضع فيه هذه الاعتبارات، ويوضع على رأس أولويات الأمن القومي للدولة؛ فمجرد ضعف أو إضعاف التعليم الوطني هو تهديد للأمن القومي، ومحاولة جهة ما السيطرة عليه أو التأثير فيه يمثل خطًّا أحمر لا يجوز السكوت عنه.

بل إن هذه المدارس في مسألة الأمن قد تخطت هذا إلى ما هو أخطر بكثير؛ إلى التأثير في إعادة صياغة وتشكيل مفهوم الأمن القومي حتى لا تثار ضدها أدنى حساسية؛ فالإعلام والثقافة مدرجان ضمن دائرة الأمن دون أن يُدرَج هذا النوع من التعليم مع أنه أهم وأخطر.

بل على العكس.. نجد **التعليم الإسلامي بكل صوره مُدرجًا ضمن مخاطر الأمن القومي في كثير من بلادنا؛ بينما لا نجد أي حساسية من وجود المدارس الأجنبية وانتشارها؛ وهي الدخيلة الزنيمة!** والسبب في ظني أن الاختراق التعليمي المبكر لعقل النخبة التي بيدها مقاليد الأمور قد نجح في إقصاء نشاط هذه المدارس من حس العقلية الأمنية ومن حساسيتها؛ وبهذا يقال: إن هذه المدارس قد نجحت في توجيه سهامها إلى مقومات الأمن الحقيقية للمجتمعات، ولنا أن نقارن بين دور خريج من خريجي الجامعات يعمل في علن على اختراق عقل الأمة أو تخريب اقتصادها، وبين متهم بالتخابر مع جهة أجنبية في نفس المجالات التي يعمل فيها الخريج: كيف ستكون النظرة إلى الطرفين؟

إن عشرات النماذج في طول بلادنا وعرضها لتخبرنا بما لم يكن متصورًا في حق هؤلاء، بل ربما قُدموا للأجيال على أنهم رواد فكر وحضارة دون أن تشعر الأجيال بالخطر الحقيقي الماثل في صنيع هؤلاء، بل لم تثر ضدهم أي شبهات.

أما إذا أضفنا بعدًا جليًّا ومحسوسًا دون كلفة منا؛ وهو الدور المعلوماتي والاستخباري الذي تقوم به كثير من هذه المدارس والمؤسسات التعليمية فإن الأمر يزداد ثقلاً.

إن إحدى كبريات المعضلات التي يخلفها التعليم الأجنبي هو غرس بذرة القابلية للاستعمار لدى نفوس أتباعه، **ولو أطلق الإنسان عين البحث في تاريخ هذه المدارس لأمكنه أن يمسك بحبل الصلة بين المدارس الأجنبية وبين الماسونية من خلال أنها تمثل سلطة كونية تعمل على إخضاع العالم لأدواتها.**

ولا يقف الخطر الأمني عند غرس مفاهيم بعينها ضمن النظرية الأمنية، بل يمتد إلى جوانب أخرى أشار إليها عدد من الباحثين في هذا المجال، والتي منها تمييع قضية الولاء والبراء، وتفتيت هذا الولاء بين ولاءات شتى كل حسب مشربه؛ فالذي تلقى

تعليمه في المدارس الفرنسية تجد عموم ولائه لفرنسا، ومن تعلم في مدارس أمريكية نجد أن أحلامه أمريكية، وهكذا.. وفي هذا إذهاب لريح الأمة وتبديد لطاقاتها بل استثمارها فيما يعود عليها بالضرر.

يقول اللورد "سالسبوري": "إن مدارس المبشرين أول خطوة من خطوات الاستعمار؛ فهي تحدث في البلاد التي تنشأ فيها انقسامًا وتفريقًا بين أهلها، يفقدون بها وحدتهم، فيكونون عونًا للمستعمر على أنفسهم. **وقد سجل بعض المؤرخين ملاحظة مهمة تخص هذا النوع من التعليم؛ وهي أنه لم يكن بين الوجود التعليمي البريطاني ١٨٨٠م والوجود العسكري البريطاني ١٨٨٢م في مصر سوى عامين فقط**".ا.هـ

لقد أشار عدد من الباحثين إلى نجاح التعليم الأجنبي في اختراق جميع مؤسسات الدولة من القمة إلى القاع؛ مرة بالفكر الذي لقنه دائرة واسعة من الناس، ومرة أخرى حين نجح في دعم مجموعة ممن تبناهم بعد تخرجهم وعمل على إبرازهم من خلال وسائل الإعلام؛ لأنه نجح في اختراق الفكر الذي يحكم حركة هذه المؤسسات؛ وذلك حين نجح في زلزلة معاني العقيدة الراسخة داخل المجتمع عن طريق طائفة رباها ثم نجح في تسليط الضوء عليها والسعي في التمكين لها داخل المؤسسات.

ومن هنا فإن **السماح بدخول أطراف خارجية إلى ساحة التعليم خاصة في المراحل الأولية يعني وجود خلل في إدراك النظرية الأمنية التي تحكم الاستراتيجية المستقبلية للدولة.** كما تعني وجود خطر كامن لا يمكن معرفة أبعاده لالتباسه بالحقيقة الداخلية للمواطن، والتي يصعب في كثير من الأحيان تقدير أثرها.

ولمحلل أو مدقق أن يجري مقارنة بين مسيرة ألف عام في تطور الشخصية الإسلامية على المستوى الفردي والجمعي؛ وبين مسيرة هذه الشخصية خلال مائة عام. وكلي ثقة أن الفارق بين منحنيي التسارع في التغير أجلَى من أن يُنبَّه عليه؛

بالإضافة إلى أن مجمل التغير خلال مائة عام فاق بكثير مجمل التغير على مدى ألف عام، سواء على مستوى الفرد أو على مستوى الأمة.

ترسيخ الطبقية وتفتيت المجتمعات:

ساهم التعليم الأجنبي في ترسيخ الطبقية داخل المجتمعات؛ حيث إن نظام الالتحاق به كان مبنيًّا على ذلك؛ فرسوم الالتحاق بهذه المدارس باهظ جدًّا، ولا يستطيعه إلا الأغنياء، وهم الطائفة التي تريدهم هذه المدارس، وتعطيهم الأولوية حتى يمكنها أن تقيم علاقة مع هذه الطبقة (وهي طبقة الصفوة الاقتصادية والسياسية، والاجتماعية تبعًا) لتحقق من وراء ذلك عدة أهداف:

- الاتصال بهذه الطبقة يسهل عمل هذه المدارس ويفتح لها مغاليق الأبواب.

- تربية أبناء هؤلاء مضمون العائد؛ نظرًا لأنهم هم الأقرب من امتلاك زمام الأمور سياسيًّا واقتصاديًّا وفكريًّا في المستقبل.

- هؤلاء الأولاد غالبًا ما يكون الترف قد أكل منهم وشرب؛ وعليه يسهل إقناعهم بأي شيء، **ولعلنا لا نمل إذا رددنا أن (عبدة الشياطين) كانوا من أبناء هذه المدارس ومن نفس الطبقة المستهدفة.**

- غالبًا ما تكون هذه الأسر في حال تفكك لانشغال الأبوين عن الأولاد؛ ومِن ثَمَّ فلا توجد سلطة تربوية أو رقابية يمكن أن تفسد ما تغرسه هذه المدارس.

- وجود هؤلاء الصفوة يفتح المجال أمام طبقات أخرى أقل في المستوى والمكانة، لكنها مصابة بداء المحاكاة وحب التقليد؛ فتسعى إلى إلحاق أولادها تشبهًا بغيرها؛ وكأن هذا يكسبها مكانة في أعين الناس! وقد ساهم في ترسيخ هذا المعني عدد من الأفلام والمسلسلات.

لهذه الأسباب توجهت المدارس الأجنبية لهذه الطبقة؛ فحولتهم إلى نموذجها، ورسخت فيهم الشعور بالاغتراب، والنظر إلى المجتمع نظرة تنقص ونفور، والشعور

بالانتماء إلى الغرب بحضارته وقيمه ونظمه، وربما بما هو أكثر: بعقيدته؛ سواء العلمانية أو النصرانية.

المخاطر الأخلاقية:

كثيرة هي المفاسد الأخلاقية التي تورثها الدراسة بهذه المدارس، وأثرها ظاهر فاشٍ؛ ومن أخطرها زوال الحساسية الإيمانية (وازع الإيمان)؛ إذ يقترف الإنسان كثيرًا من المنكرات دون أن يهتز منه قلب، بل إننا نرى في كثير من الأحيان مفاخرة ومجاهرة بالحرام.

وبالإضافة إلى ما تبثه من شرور مقصودة، فإنها تعد قناة مباشرة لنقل أمراض المجتمعات الغربية إلى مجتمعاتنا؛ ومن ذلك الانتحار والجرائم الأخلاقية والجريمة المنظمة.. ولم يكن من عجب أن يسجل لنا أحد الباحثين المطلعين على أوراق قضية (عبدة الشيطان) التي تفجرت في منتصف عام ١٤١٧هـ أن المنتمين إلى هذه الفئة كانوا جميعًا من منتسبي المدارس الأجنبية وخريجيها!

ومن بينها الاختلاط والتبرج، ونزع الحياء، وإقامة العلاقات المحرمة باسم الحب والصداقة، ومثل هذه المباذل يرسخ التعليم في نفس الطالب أنها من حقوقه، وأنه لا بد أن يمارسها حتى يتخلص من عقدة النقص؛ أي أنهم ركبوا في صورة الإنسان الكامل عشرات من الذنوب والمنكرات من الكذب والغش والخداع، والنفاق والتملق، وأكل الربا والحرص على متاع الدنيا، وترسيخ قيم الفردية والأنانية وعدم الاهتمام بمشاعر الغير، وتفسير كل شيء تفسيرًا ماديًّا..

والنتيجة ما نرى فضلاً عما نقرأ ونسمع من نمط غربي في الحياة حتى في أدق المسائل حساسية لدى الإنسان العربي. لقد تحدث بعض المطلعين على مثل هذه الأوساط فقال: لقد أصبح من الشائع حتى بلغ درجة العرف بينهم أنه من العيب في حق الشاب حين يتزوج أن يسأل عن عفة زوجته (بكارتها)؛ وكأن الأصل عندهم هو

الماضي! أي أن لكل فتاة ماضيًا، ومن العيب أن يسأل عنه كما هو الحال مع الشباب! نسأل الله السلامة. ويتناسق هذا ويتناغم مع موضة الثقافة الجنسية وآلاف المواقع والقنوات الإباحية.

وهكذا نرى أنه كلما نجح هؤلاء في ترسيخ مبدأ جديد في نفوس الأبناء؛ قطعوا شوطًا في إبعادهم عن الالتحام مع مجتمعهم والتفاعل مع هُويتهم.[١]

وخلاصة القول:

يقول فضيلة الشيخ/ محمد الغزالي رحمه الله: [لعل الهدف الأول للغزو الثقافي إصابة العلوم الدينية في مقاتلها بعد إسقاطها عن مكانتها التقليدية. وترتبط بعلوم الدين علوم اللغة وفنون الأدب، فيجب أن تتضعضع هي الأخرى!!

ولما كان الإسلام عقيدة وشريعة وتربية وتقاليد، وكانت الثقافة المصاحبة لهذا كله متشعبة متكاثرة، فإن الاستعمار قدر لتدمير هذه الثقافة أمدًا يتراوح بين نصف قرن، وقرن كامل. وهو يستطيع خلال هذا الأمد المتطاول خلق جيل زاهد في الانتماء لدينه، غير متحمس له ولا حريص عليه، يهاب الأديان الأخرى ولا يهاب عقيدته، ويفضل الألسنة الأخرى ويستهين بلغته، ويكرم زعماء العالم قديمًا وحديثًا، أما رجالات الإسلام فليسوا أهلاً لاكتراثه! وربما نال منهم وأزرى عليهم..!!

ولنعترف بأن أعدادًا من المرتدِّين سقطت في هذه الفخاخ؛ فقد تَسْمع مَن يطالب بتَرْك الصلاة أو الصيام حتى لا يضعف الإنتاج! وقد تَسْمَع مَن يشغب علانية على شرائع الحدود والقصاص..! وقد تَسْمَع مَن يرفض الولاء للدين ويقدم عليه الانتماء القومي أو الوطني! وقد تسمع مَن يدعو إلى العلمانية! أو مَن يرى المخادنة أحسن من الزواج!

---

[١] النعليم الأجنبي.. مخاطر لا تنتهي: مقال لمهيمن عبد الجبار/مجلة البيان (١٧٥/ ٨) (باختصار وتصرف).

وكان يستحيل أمس أن تقبل الجماهير معشار هذا الزيغ؛ بَيْد أن الغُزاةَ الدهاة عرضوها للسنين العجاف والأزمات العضوض فجرت تلهث وراء لقمة الخبز.. وقد يشغلونها بالملاهي والتسالي؛ فيكون سماع أخبار الكرة أهَمّ من أنباء المجاهدين في أفغانستان أو الفليبين..

إن الغــزو الثقـافي نجـح في جعل قيمـة مكـان قيمـة، واهتمام بـدل اهتمام.. ومع ضياع المعرفة الدينية وسقوط رتبتها دخل الدين كله في محنة هائلة..] ا.هـ[١]

(٥) إفساد الأخلاق والسلوك بزعم (تحرير المرأة)

أدرك أعـداء الإسـلام خطـورة المـرأة في إصـلاح الأسـرة أو إفسـادها، وإصـلاح المجتمع أو إفساده، فركزوا خططًا مختلفة لتوجيهها إلى ما يضمن تحقيق أهدافهم في المجتمعات الإسلامية، واعتمدوا على تسخيرها في تحقيق أهدافهم في مجالات وأعمال كثيرة.

[١] الغزو الثقافي: محمد الغزالي.

ورفعوا شعار (تحرير المرأة) بقصد اجتذاب المرأة المسلمة واستخدامها حربًا على دينها.. وأول من أوصى به أحد مؤتمرات التبشير، وكان الهدف يومئذٍ تنصير المرأة المسلمة، ثم تبعهم المستشرقون، وتبعهم مَنْ تَلَقَّوْا العلم والمعرفة على أيديهم؛ وهم في شرقنا الإسلاميّ كثير.

ماذا يقصدون بالتحرير؟

التحرير لا يكون إلا من عبودية.. فهل كانت المرأة المسلمة كذلك؟

إن المسلم لا يعطي العبودية لمخلوق، بل يعطيها للخالق وحده، ومن ثَمَّ.. فإن (المسلم) أكثر الناس تحررًا من عبودية المخلوقين؛ سواءً كانت آدمية، أو كانت مالًا، أو جاهًا، أو سلطانًا، أو غير ذلك من متاع الحياة الدنيا.

والمرأة المسلمة لها ما للرجل: **(وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ)** [البقرة: ٢٢٨]

هذه الدرجة ليست درجة العبودية أبدًا، ولن تكون.. لكنه أمر اقتضاه التنظيم؛ أن يكون للسفينة ربان واحد لا ربانان، وإلا لغرقت السفينة بمن فيها.

ولقد سبقت المسلمة غيرها من النساء؛ فعرفت واجبها، وعرفت حقها، وكانت لها الشخصية القانونية المستقلة؛ تتعامل باسمها دون حاجةٍ إلى اعتماد تصرفها من أحد، بينما ظلت المرأة الفرنسية لا تتعامل باسمها وحدَه؛ بل لابد من إجازة الزوج لتصرفها؛ وذلك إلى عهد قريب.

فماذا يعني التحرر أو التحرير بعدما أعطاها الإسلام ما لم يعطها نظام آخر.

قالوا: إنه يعني تحريرها من بيتها، وتحريرها من زيها.

قلنا: وبماذا يخدمهم تحريرها من بيتها، وتحريرها من زيها؟! وبعبارة أخرى: كيف يمكن من خلال هذا وذاك إبعاد الأمة عن الإسلام؟

المرأة بلا شكٍّ نصف المجتمع، وهي نصف خطير؛ لأنه يؤدي رسالةً خطيرةً؛ وإن غفل عنها الكثيرون.

إن الذين يتخرجون من المدارس والجامعات يمكن تعدادهم، ويمكن أن يوجد غيرهم لم يتخرجوا من هذه أو تلك.. أما الجامعة التي لابدّ أن يتخرج منها كل مسلم، بل كل إنسان؛ فهي الأم.. فإن صلحت صلح خريجوها، وإن فسدت فسد خريجوها. **وتحرير المرأة من بيتها يعني: إغلاق هذه الجامعة.**

وإذا كانت هذه هي الجامعة الأولى التي خرَّجت من قبل تلك الأجيال العظيمة التي حملت إلينا الإسلام، بل حملته للدنيا كلها؛ فإن **إغلاق هذه الجامعة يعني: انعدام الخريجين من ذلك الطراز.. ويعني: غلبة الخريجين من طراز آخر.**

أما ماذا يعني تحريرها من زيها؟

فإنه يعني: كشف ما أمر الله أن يُستر، وهتك ما أمر الله أن يُصان.

يعني: عرضًا رخيصًا لسلعةٍ غاليةٍ؛ صانها ربها، وصانها الإسلام.

يعني: إثارة اللحم والدم؛ وهو أمر لا يستطيع أن ينكره إلا غبيّ أو متغابٍ.

فإذا أضفنا إلى تحرير المرأة من بيتها تحريرَها من زيِّهَا كانت النتيجة؛ نتيجة الاثنين غير نتيجة الواحد.. إن التحرر من البيت وحده قد يكون له النتيجة السلبية الخطيرة السابقة؛ وهي الإغراء بالفاحشة والدعوة إليها. لكنَّ التحريرين قد يعنيان فوق النتيجتين السابقتين مجتمعتين.

نتائج أخرى أخطر وأشد: أولها بلا شكٍّ انحلال المجتمع وسقوطه بسقوط قيمه وأخلاقه ومثله.

إن فرنسا غير الإسلامية وصاحبة الإمبراطورية الكبيرة؛ سقطت تحت أقدام ألمانيا على مدى أسبوع واحدٍ.. وهي كما صرح رئيس وزرائها: أن **فرنسا هزمها الانحلال قبل أن يهزمها الاحتلال.**

فما بالنا بأمة إسلاميةٍ؛ أساس نظامها عقيدة وأخلاق.. وما بالنا بأمة إسلاميةٍ لم تصل بعد من ناحية القوة المادية إلى ما وصلت إليه فرنسا أو أمريكا.

إن إشاعة الانحلال في الأمة الإسلامية عن طريق تحرير المرأة من بيتها وزيها؛ يعني: أن الأمة الإسلامية وهي بعد لم تقف على قدميها؛ تمامًا كما يصاب الطفل بمرض خطير لا يستطيع أن يقاومه الرجل الكبير.. إنها جريمة كبرى، وخيانة عظمى، يقارفها كل من يدعو إلى هذا السبيل بالكلمة أو الصورة أو القدوة السيئة.

في عام (١٣٩٥هـ-١٩٧٥م) طالب المدير العام لهيئة رعاية الأطفال "جوزيف ريد" بعقوبات شديدة ضد الأشخاص الذين يتاجرون ببيع الأطفال في السوق السوداء؛ حيث يباع سنويًّا خمسون ألف طفل، وكلهم -بكل أسف- جاءوا من سِفاح. ويجري الاتفاق مع الفتيات اللائي حملن بهن من غير زواج مقابل مبلغ من المال؛ إلى جانب التكاليف الصحية والسكنية!![1]

أيُّ جيلٍ يكون ذلك الذي لا يعرف له أبًا، ولا يعرف له أمًّا كذلك..؟

أيُّ ارتداد إلى عصر الرق؛ ذلك الذي يُباع فيه الأطفال ويُشترون؟

تُرى.. هل يُخرج لنا تحرر المرأة في شرقنا الإسلاميّ ما أخرجه في ذلك الغرب الصليبيّ؟

وهل نقم منا الغرب أن كانت لنا روابط أسرية متينة؛ يقوم عليها بإذن الله مجتمع متين؟ أم نقم منا أن لنا دينًا؛ هو سر ابتعاثنا بين الحين والحين؛ فخشي هذه الابتعاثة، ورغب لنا في رقدةٍ لا نهوض بعدها ولا قيام؟

---

[1] مجلة المجتمع العدد:٤٩٢ /٢جمادى الأولى ١٣٩٥- ١٣ مايو سنة ١٩٧٥ نقلًا عن وكالة يونيتدبريس- واشنطن.

أما المرأة الريفية: فلم يشأ المخططون لتغريب المسلمين أن يتركوها في حالها وحيائها، بل أصروا على أن يغزوها في عقر دارها؛ ليذهبوا بما بقي من حيائها؛ لتشارك أختها في المدينة ما وصلت إليه من مدنية..

وتحت (ستار) الأمم المتحدة انطلقت "أمريكا" تغزو (الريف المسلم) باسم (التربية الأساسية)..

فما هي التربية الأساسية..؟

(التربية الأساسية) كما عرفها أحد سدَنتها؛ الدكتور "حامد عمار" في بحثٍ ألقاه في مؤتمر أمريكي: **منهج من مناهج الإصلاح الاجتماعي لرفع مستوى المعيشة؛ يؤكد قيمة العملية التربوية، و(تغيير الأفكار والنزعات).**

وفي تعريف آخر: **تسعى (التربية الأساسية) إلى محاولة (تغيير الأفكار والنزعات والاتجاهات).**

وفي (سرس الليان) بمصر مركز للأمم المتحدة! وفي قرى سوريا (مراكز)..!!

ونعت الدكتورة "بنت الشاطئ" ما تكشف من حركة تحرير المرأة؛ مما أسمته **(مهزلة أليمة موجعة)**.. وقالت: [إن الرجال ساقونا لنعمل لحسابهم؛ وهم يوهموننا أننا نعمل أو يعملون معنا لحسابنا؛ ذلك أن الرجال رتبوا لنا الخروج زاعمين أنهم يؤثروننا على أنفسهم، **ولكنهم كذبوا في هذا الزعم.. فما أخرجونا إلا ليحاربوا بنا السآمة والضجر في دنياهم.]ا.هـ**

وقالت في موضع آخر: [إن المرأة دفعت ضريبة فادحة ثمنًا للتطور، ويكفي أن أُشير في إيجاز إلى الخطأ الأكبر الذي شوه نهضتنا؛ وأعني به انحراف المرأة الجديدة عن الطريق الطبيعي، وترفعها عن التفرغ لما نسميه: خدمة البيوت وتربية الأولاد. ونحن نرى البيوت أصبحت مقفرة منهن. أما الأبناء فتركوا للخدم. وقد نشأ هذا الانحراف الضال نتيجة لخطأ كبير في فهم روح النهضة.

وبلغ من سوء ما وصلت إليه أن نادت مناديات بحذف نون النسوة في اللغة كأنما الأُنوثة نقص ومذلة وعار. وأُهدر الأعتراف بالأُمومة كعمل من الأعمال الأصيلة لنا حتى سمعنا من يسأل كيف تعيش أمة برئة معطلة؟! يقصد بالرئة المعطلة هؤلاء الباقيات في بيوتهن يرعين الأولاد..! وزعموا أن المرأة تستطيع أن تجمع بين عملها في البيت ووظيفتها في الخارج.]ا.هـ

وسرى الداء في الأسر الإسلامية؛ لأن عوامل الانحدار أقوى من عوامل الارتقاء في الأمم؛ إذ عوامل الانحدار تؤازرها غرائز النفوس وشهواتها وأهواؤها، وتساعدها سهولة الطريق التي مهدها الغزاة، ودفع إليها شياطين الإنس والجن.. أما عوامل الارتقاء الأخلاقي والسلوكي فتقف دونها عقبات تطالب النفوس باقتحامها، وتحتاج إلى قوة إرادة، ومؤازرة جماعية، وسلطان ذي بأس؛ يحمل الناس على تكلف الصعود، ويؤاخذهم على التواني، أو التراجع إلى الوراء المنحط.[١]

صياغة المرأة المسلمة على النمط الغربي:

أخذ المبشرون زمام المبادرة إلى تعليم المرأة وتربيتها طبق الأسس التي وضعوها في خطة غزوهم لبلاد المسلمين، لتخريج الفتيات المسلمات على أيديهم وهن مثقلات بالمفاهيم المنحرفة التي أملوها عليهن، ومنطبعات بالعادات التي ربوهن عليها، منذ مرحلة المدرسة الابتدائية حتى نهاية المرحلة الجامعية؛ التي سيحملن بها شهادات التعليم والتربية للأجيال القادمة.

وها هي أقوالهم تكشفهم، وما تخفي صدورهم أكبر.. قال المبشر "جسب": [إن **مدرسة (البنات) في بيروت هي بؤبؤ عيني. لقد شعرت دائمًا أن مستقبل سورية**

[١] أجنحة المكر الثلاثة: عبد الرحمن حَبَنَّكة – أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي: د. علي جريشة – أعلام وأقزام في ميزان الإسلام: د. سيد العفاني.

إنما هو بتعليم بناتها ونسائها. لقد بدأت مدرستنا (للبنات)، ولكن ليس لها بعدُ بناء خاص بها. وها هي قد أثارت اهتمامًا شديدًا في أوساط الجمعيات التبشيرية.] ا.هـ

ولم يتوانَ المبشرون في فتح مدارس (البنات) في مصر والسودان وبيروت وسورية كلها وفي الهند..

وكان اهتمام المبشرين بالمدارس الداخلية للبنات أشد. قالوا: إن التبشير يكون أتم حبكًا في مدارس البنات (الداخلية) لما يكون فيها من الأحوال المواتية والفرص السانحة.. فالمدرسة الداخلية تَفضُل المدرسة الخارجية؛ لأنها تجعل الصلة الشخصية بالطالبات أوثق، ولأنها تنتزعهن من نفوذ حياة بيتية غير مسيحية..

ويفرح المبشرون إذا اجتمع في مدارسهم الداخلية بنات من أسر معروفة؛ لأن نفوذ هؤلاء يكون حينئذ في بيتهن أعظم.

تقول المبشرة "آنا ميليجان": [في صفوف كلية البنات في القاهرة؛ بنات آباؤهن باشوات وبكوات. وليس ثمة مكان آخر يمكن أن يجتمع فيه مثل هذا العدد من **البنات المسلمات تحت النفوذ المسيحي، وليس ثمة طريق إلى حصن الإسلام أقصر مسافة من هذه الدراسة.**] ا.هـ

وتقول في موضع آخر: "**إن القضاء على الإسلام يبدأ من هذه المدارس التي أنشئت خصيصًا لهذه الغاية، والتي تستهدف صياغة المرأة المسلمة على النمط الغربي الذي تختفي فيه كلمة الحرام والحياء والفضيلة.**" ا.هـ

وظل "زويمر" يشجع المبشرين على المضي قُدُمًا في تنفيذ (المؤامرة).. يقول: "ينبغي للمبشرين أن لا يقنطوا إذا رأوا نتيجة تبشيرهم للمسلمين ضعيفة، إذ **من المحقق أن المسلمين قد نما في قلوبهم الميل الشديد إلى علوم الأوروبيين وتحرير النساء**".

وفي سنة (١٩١١م) عُقد مؤتمر "لكنو" بالهند، وكانت أحد المحاور الرئيسية التي تناولها المؤتمر: **الارتقاء الاجتماعي والنفسي بين النساء المسلمات، والأعمال**

النسائية التنصيرية. وتحدَّث القسيس "تروبريدج" عن واقع المرأة المسلمة في ظل تطور الأوضاع في الخلافة العثمانية قائلًا: [إن الحكومة سمحت عقب إعلان القانون الأساسي لخمس فتيات عثمانيات مسلمات أن يتعلمن في كلية البنات الأمريكية؛ ليتهيأن لإدارة الأمور في مدارس الحكومة للبنات، كما أن عددًا قليلًا من البنات المسلمات في الولايات يترددن على مدارس إرساليات التبشير. أما الحكومة فتظهر الاحتفاظ التام بحالة تربية المرأة المسلمة، وتحظر على النساء التردد على المجتمعات العمومية.]ا.هـ

وفُرض على الفتيات من أبناء المسلمين[1] الخطة التعليمية والتربوية المشحونة بقسط كبير من المفاهيم الاعتقادية والخلقية والسلوكية المنافية لتعاليم الإسلام، تحت ستار العلمانية التي تزعم أنها لا تتدخل بالدين، وهي في حقيقة حالها مؤسسات تبشيرية متعصبة، إلا أنها قد عرفت كيف تستر ذلك باسم العلمانية.

فتحت عنوان (العلمانية) يتآمرون على قتل أمة، تنشد الحياة في ظلال الإيمان والتقوى، بعيدًا عن الإلحاد والعهر..[1]

إذا ذهب الحياء حل البلاء (الاختلاط):

كان الخلط بين الفتيان والفتيات في معاهد العلم من الأسباب الكبرى التي هدمت حصنًا عظيمًا من حصون الأخلاق والآداب الإسلامية في المجتمعات التي انتشر فيها

---

[1] كما فُرض على الفتيان، مما فصلناه سابقا في (علمنة التعليم).

[1] أجنحة المكر الثلاثة: عبد الرحمن حَبَنَّكة – المدارس الأهلية الواقع المرير والأمل المنشود: مقال بقلم محمد الناصر/ مجلة البيان (٣٨/ ٤٧)

هذا الخلط. وتم ذلك بفعل دسائس الأعداء الغزاة وفراخهم وأجرائهم من داخل بلاد المسلمين ومن خارجها.

وقد بدأوا بها في الجامعات في أكثر البلاد الإسلامية؛ تحت دعوى التقدم والتمدن، ونشر الروح الجامعية.

وتوسعوا في أمر الاختلاط؛ فجعلوه في المرحلة الابتدائية؛ وهي عند البعض قد تضم بعض سنوات المراهقة. وجعلوه في المرحلة الثانوية؛ وهو أخطر ما يكون..

وتزداد المهزلة حين يجعلون على هؤلاء المراهقين مدرسات؛ لتمتد النيران ما بين التلاميذ والمدرسات؛ فتنهدم قيمة احترام المدرس مع ما ينهدم من قيم بالاختلاط أو مع الاختلاط.

ورافق هذا الغزو العملي غزو فكري يزين الاختلاط ويحسنه، ويصطنع له المبررات الخادعة ضمن أُطر علم النفس، وعلم الاجتماع، وعلم التربية، والتربية الجنسية.. وأكد الميل إليه الدافع الغرزيُّ بين الجنسين؛ لا سيما في فترة المراهقة التي تتفتح فيها الغريزة الطائشة الرعناء، مع البعد عن دراسة العلوم الإسلامية، وضعف الوازع الديني.

وتأكيدًا لهذا السبيل الآثم؛ تحرص كثير من المؤلفات على التهوين من مقدمات الزنا؛ التي لابد أن تفضي إليه.. إلا من عصم ربي؛ وقليل ما هم.

ففي أحد كتب (مؤسسة فرانكلين) الأمريكية، والتي تُنشر في أحد البلاد الإسلامية يقول: "فبدلًا من فصل البنين عن البنات، يجب أن نعمل على إشراكهم معًا في الأعمال الممتعة، ومواقف اللعب.. وإذا حدث استلطاف بين بعض البنين والبنات؛ فينبغي النظر إليه على أنه نوع من الصداقة، وليس غرامًا أوعشقًا..".

وعبثًا تحاول المؤسسة الأمريكية أن تخلع عن الحرام اسم الحرام، وأن تخلع عليه ثوب (البراءة) الكاذب..!

وفي مكان آخر، ولنفس المؤسسة: "إن خروج الفتيات في صحبة الفتيان من الأمور الطبيعية التي يستطيع معظم الآباء تقبلها في الوقت المناسب على أي حالٍ؛ باعتبارها جانبًا من جوانب النمو الجسمي للمراهق.".. وفي موضع آخر: **"وفي كل علاقةٍ بين فتًى وفتاةٍ يشعر كل منهما في بعض الأحيان بدافع يحفزه على التعبير عن حبه وتقديره للآخر.. بلمسة، أو ضغطه على اليد، أو قبلة.. والكشف عن المشاعر بهذه الطريقة، والاستجابة لها أمر طبيعي"**.

وأخيرًا.. "فالشوق إلى القبلة، أو بعض الغزل الرقيق، أو الإنصات إلى قصةٍ فيها تلميحات جنسية.. هذه ليست أمورًا شائنة." (!!)

ومع اختلاط الجنسين في معاهد العلم فشت مفاسد كثيرة؛ في الأخلاق والآداب وكثير من أنواع السلوك، وتطلعت الأجيال الحديثة إلى تقليد الحياة الأوربية بمجونها؛ بعد أن انغمست في حمأة البيئات الجديدة التي تسهل طريق الرذيلة، وتهون ممارسة اللذة المحرمة، ولا تعتبر العفة من فضائل الأخلاق، كما لا تعتبر صيانة الأسرة القائمة على الطهارة من الأمور ذات القيمة في المجتمعات الإنسانية.

وانزلق كثير من الشباب يتسكع في دروب المهانة مندفعًا بنوازع الأهواء ولواهب الغرائز، وتطالبه ظروف اللذة المحرمة بأن يقدم للشره طاقاته الجسدية، ويقدم للأوهام قواه الفكرية، ويقدم للقلق والحيرة والشتات عواطفه وانفعالاته، ثم يضحي في وادي الغريزة البهيمية بعقله الحصيف وبإرادته الإنسانية الشريفة.

وآخرون من الشباب اصطرعت فيهم عوامل الفضيلة وقواسر الغريزة المشبوبة في هذه البيئات المختلطة الداعية إلى الخطيئة والفجور؛ فكانت أفكارهم وقلوبهم ونفوسهم كأنها في ساحة حرب شديدة؛ يصيبها من دواهي الحرب أكثر مما يصيب المتقاتلين بالأسلحة المادية.. وطبيعي أن يَسُرَّ هذا الوضع الأعداء الغزاة، ويثلج صدورهم، وأن يكون ملحوظًا لديهم منذ البداية.

لقد عرف الغزاة بالتجربة المتكررة أن اختلاط الجنسين في مختلف مجالات الحياة من أسباب انهيار المجتمعات، وانحرافها عن فضائل السلوك؛ ومتى انهارت المجتمعات فقدت أثقال قوتها الحقيقية، التي تمكنها من الصمود أمام جيوش الغزاة، والارتقاء إلى قمم المجد، ومنافسة كل سابق في علم أو حضارة أو مدنية أو قوة.

ولو دخل المسلمون في هذا السباق بقواهم الإسلامية الحقيقية لاستطاعوا أن يختصروا الزمن، ويجتازوا في عقود من السنين ما تخلفوا عن السير فيه خلال قرون، ولو راجعوا صفحات تاريخهم لرأوا أن من أسباب تخلفهم انغماسهم في الشهوات، وسعيهم وراء اللذات، وإخلادهم إلى الأرض.

ويظن الطائشون الغافلون أن الانطلاق من القيود الدينية، والتحرر من الشرائع الربانية والفضائل الخلقية؛ سبيل من سبل التقدم الذي أحرز فيه كلٌّ من الشرق والغرب السبق في العلوم المدنية وفي الصناعات.. مع أن الحقيقة بخلاف ذلك..

إن العقلاء المنصفين في كل من الشرق والغرب يتخوفون من المصير المدمر الذي تسير في طريقه أجيالهم الحديثة؛ بتحللها من ضوابط الأخلاق الشخصية والاجتماعية، واستهانتها بالفضائل الإنسانية، ويعتبرون الإباحية التي أخذت تشيع في مجتمعاتهم نذير الانهيار الخطير والدمار الشامل.

وسرى داء الاختلاط العام بين الرجال والنساء في مجتمعات الأسر، وفي الحفلات العامة والخاصة، وفي نوادي التسلية والفن والثقافة والرياضة، وفي المسابح العامة.. ورافق الفن والرياضة والسباحة العري الكامل أو شبهه، وسرى داء التهتك إلى مختلف المجامع، وتسابق النساء في اتخاذ وسائل الإغراء، وأخذت تنهار مقاومات الأفراد والجماعات، **وأمست جاهليات كثيرة متطرفة واقعًا مألوفًا غير مستنكر.**

وانطلق الغزو المدمر للقيم الإسلامية التي كان بها كيان المسلمين الذاتي، وكان بها مجدهم التليد.

والمنغمسون في هذه المجتمعات المختلطة المفتوحة تشغلهم بوارق فتنتها، وتسكرهم كؤوس متعتها، وتخدعهم ألوان بهارجها عن إدراك الخطر الكامن فيها عليهم وعلى أمتهم وعلى بلادهم.. **وتنسيهم ما وراء ذلك من عقوبة كبرى مؤجلة إلى يوم الجزاء بسبب تجاوزهم حدود الله، وارتكابهم ما يوجب سخطه.**(١)

وشهد شاهد منهم: نشرت جريدة "الجمهورية" السبت ٩ يونيو ١٩٦٢م مقالا بعنوان: **"كاتبة أمريكية تقول: امنعوا الاختلاط.. وقيدوا حرية المرأة"**.

بدأت الجريدة بتقديم الكاتبة الأمريكية للقراء، فقالت: [غادرت القاهرة الصحفية الأمريكية "هيلسيان ستانسبري" بعد أن أمضت عدة أسابيع ها هنا، زارت خلالها المدارس، والجامعات، ومعسكرات الشباب، والمؤسسات الاجتماعية، ومراكز الأحداث، والمرأة، والأطفال، وبعض الأسر في مختلف الأحياء، وذلك في رحلة دراسية لبحث مشاكل الشباب والأسرة في المجتمع العربي.

و"هيلسيان" صحفية متجولة، تراسل أكثر من مائتين وخمسين صحيفة أمريكية، ولها مقال يومي يقرأه الملايين، ويتناول مشاكل الشباب تحت سن العشرين، وعملت في الإذاعة والتليفزيون وفي الصحافة أكثر من عشرين عامًا، وزارت جميع بلاد العالم، وهي في الخامسة والخمسين من عمرها.]ا.هـ

تقول الصحفية الأمريكية بعد أن أمضت شهرًا في "الجمهورية العربية المصرية": [إن المجتمع العربي مجتمع كامل وسليم، ومن الخليق بهذا المجتمع أن يتمسك بتقاليده التي تقيد الفتاة والشاب في حدود المعقول. وهذا المجتمع يختلف عن المجتمع الأوربي والأمريكي، فعندكم تقاليد موروثة تحتم تقييد المرأة، وتحتم احترام الأب والأم، وتحتم أكثر من ذلك، عدم الإباحية الغربية التي تهدد اليوم المجتمع والأسرة في أوربا وأمريكا.

---

(١) أجنحة المكر الثلاثة: د. عبد الرحمن حَبَنَّكة (باختصار وتصرف) – أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي: د. علي جريشة (باختصار وتصرف).

ولذلك فإن القيود التي يفرضها المجتمع العربي على الفتاة الصغيرة -وأقصد ما تحت سن العشرين- **هذه القيود صالحة ونافعة، لهذا أنصح بأن تتمسكوا بتقاليدكم وأخلاقكم، وامنعوا الاختلاط وقيدوا حرية الفتاة، بل ارجعوا إلى عصر الحجاب، فهذا خير لكم من إباحة وانطلاق ومجون أوربا وأمريكا. امنعوا الاختلاط قبل سن العشرين، فقد عانينا منه في أمريكا الكثير..** لقد أصبح المجتمع الأمريكي مجتمعًا معقدًا، مليئًا بكل صور الإباحية والخلاعة، وإن ضحايا الاختلاط والحرية قبل سن العشرين، يملاون السجون والأرصفة والبارات والبيوت السرية.

إن الحرية التي أعطيناها لفتياتنا وأبنائنا الصغار قد جعلت منهم (عصابات) أحداث، وعصابات "جيمس دين"[1]، وعصابات للمخدرات والرقيق. إن الاختلاط والإباحية والحرية في المجتمع الأوربي والأمريكي هدد الأسر، وزلزل القيم والأخلاق.. فالفتاة الصغيرة تحت سن العشرين في المجتمع الحديث تخالط الشبان، وترقص، وتشرب الخمر والسجاير، وتتعاطى المخدرات باسم المدنية والحرية والإباحية.] ا.هـ

هذه النتيجة التي وصلت إليها الصحفية الأمريكية بالمشاهدة؛ كان الإسلام قد سبقها إليها بعدة قرون، وتكلم فيها العلماء قديمًا وحديثًا.. فهذا "ابن تيمية" في القرن السابع الهجري يقول: [لا ريب أن تمكين النساء من اختلاطهن بالرجال أصل كل بلية وشر، وهو من أعظم أسباب نزول العقوبات العامة، كما أنه من أسباب فساد أمور العامة والخاصة. واختلاط الرجال بالنساء سبب لكثرة الفواحش والزنا، وهو من أسباب الموت العام والطواعين المتصلة. فمن أعظم أسباب الموت العام كثرة الزنا؛ بسبب تمكين النساء من اختلاطهن بالرجال، والمشي بينهم متبرجات متجملات..

---

[1] ممثل أمريكي يعتبر رمزا ثقافيا لخيبة أمل المراهقة، التي صورها في فيلمه الأشهر "متمرد بلا سبب" سنة ١٩٥٥م، والذي يصور قصة في "لوس أنجلوس" عن مراهق متمرد. [الموسوعة الحرة (باختصار)]

ولو علم أولياء الأمر ما في ذلك من فساد الدنيا والرعية ـ قبل الدين ـ لكانوا أشد شيء منعًا لذلك.[ا.هـ

وخلاصة القول: إن أعداء الإسلام يعلمون أنَّ المرأة أقصر طريق يؤدي إلى تدمير المجتمع الإسلامي كله. لأنَّ فساد المرأة يترتب عليه فساد النشء والجيل المسلم، وفساد الأسرة المسلمة، والمجتمع من حولها.

يقول "جان بوكارو" في كتابه "الإسلام في الغرب": **"إن التأثير الغربي الذي يظهر في كل المجالات، ويقلب رأسًا على عقب المجتمع الإسلامي، لا يبدو في جلاء مثل ما يبدو في تحرير المرأة".**

ويقول الأمريكي اليهودي "مورو بيرغر": **"إن المرأة المسلمة هي أقدر فئات المجتمع الإسلامي على جَرِّه إلى التحلل والفساد أو إلى حظيرة الدين من جديد."** [١]

ويلٌ للمغلوب إذا غزاه الغالب:

لقد كُتب شيء ضخم عن المرأة، لاسيَّما حول حجابها، وما كُتب في هذا القرن لم يُكتب مثله في كل أزمنة المسلمين، وربما يعود السبب في اتساع الموضوع إلى دخول مرجعية أخرى غير المرجعية الإسلامية؛ وهي المرجعية التغريبية، التي تسللت في وقت مبكر إلى المجتمع الإسلامي لتمارس دورها الخطير، حيث كان هناك ضعف وتخلف يرجع للبعد عن الدين، وهذا الضعف والتخلف مدَّ بظلاله على أغلب أوضاع المسلمين بما في ذلك وضع المرأة المسلمة، فلم يكن حالها بحسن كحال العالم الإسلامي عمومًا.. ويرجع سبب تردي وضع المرأة المسلمة إلى ما طرأ على المسلمين من البدع والانحرافات وما صحب ذلك من جهل وتخلف، مما يجعل الوضع متأزمًا وفي

---

[١] فقه السنة: سيد سابق – الاختلاط بين الرجال والنساء: شحاتة محمد صقر – المرأة المسلمة والمكائد الغربية: صالح الرقب (باختصار وتصرف).

حاجة لإصلاح، وفي هذه الظروف دخل (التغريب) كخط جديد لمناقشة وضع المرأة من بين قضايا كثيرة أصبحت في ساحة النقاش بين المرجعية الإسلامية والمرجعية التغريبية.

والغالب في التغيرات الاجتماعية إنما تأتي من وجود نموذج مغاير، يتم تقليده أو التأثر به، وربما لهذا السبب نجد التأكيد الإسلامي في النهي عن التشبه بنماذج اجتماعية ذات مكونات تخالف الشرع، وبهذا تحافظ الأمة الإسلامية على تميزها وشخصيتها دون أن تذوب في مجتمعات أخرى، ومن هنا يأتي النهي عن التشبه بالمخالفين للمسلمين لما لهذا التشبه من أثر على المجتمع الإسلامي.

وقد بدأ النموذج المغاير حول شخصية المرأة المسلمة يظهر في العالم الإسلامي بعد الحضور المكثف للأوروبيين في البلاد الإسلامية، ولاسيَّما بعد حملة "نابليون" وما أظهره من إفساد لحال المرأة، ثم دخول نظام الامتيازات والحماية، ثم الاستعمار الذي سمح بوجود مكثف للأوروبيين والمرأة المتعلمنة المصاحبة له، وقد افتتن البعض بهذا النموذج الجديد القائم على سفور المرأة ومخالطتها الرجال، فبدأ بعضهم في تقليد هذه النماذج، وبدأوا يتحايلون على التشريع الإسلامي من أجل ذلك.

ولكن التأسيس الفكري لم يبرز بوضوح إلا لمن سافر للغرب؛ ولاسيَّما للدراسة وعايش النموذج الجديد في أوروبا، فانبهر بحال المرأة هناك، وأغراه جوانب من تميزها عن جوانب من المهالك التي وقعت فيها، وربما يكون حال المرأة التي يعرفها في بلاد المسلمين –من تخلف وجهل وضعف، وأخلاقيات رديئة، والظلم الذي يلحقها من الأعراف، أو من كثير من الرجال الذين لا يلتزمون الشرع– قد أغراه بهذا النموذج الغربي، ولاسيَّما إذا كان المبتعث ضعيفًا في العلم الشرعي، وغير عارف بحقيقة التصور الإسلامي عن المرأة.. فيظن أن واقع المرأة المسلمة الذي عايشه هو الممثل للتصور

الإسلامي فيهرب منه إلى التصور العلماني، بينما هو يترك نموذجًا منحرفًا ليدخل في نموذج علماني أشدَّ انحرافًا وأكثر خطورة على شخصية المرأة المسلمة.

نجد طريقين خطيرين للتأثر: طريق وجود (النموذج العلماني للمرأة) في بلاد المسلمين، و**طريق مشاهدة (النموذج العلماني للمرأة)** من قبل المبتعثين في أوروبا.

ويتحدث الجبرتي عن (صور الطريق الأول) أثناء الحملة الفرنسية المشهورة، وبما أحدثوه من أثر على حجاب المرأة المسلمة، فقال في حوادث سنة ١٢٥٢ هـ: [ومنها تبرج النساء وخروج غالبهن عن الحشمة والحياء؛ وهو أنه لما حضر الفرنسيس إلى مصر ومع البعض منهم نساؤهم، كانوا يمشون في الشوارع مع نسائهم وهن حاسرات الوجوه لابسات الفستانات والمناديل الحرير الملونة، ويسدلن على مناكبهن الطرح الكشميري والمزركشات المصبوغة، ويركبن الخيول والحمير ويسوقونها سوقًا عنيفًا مع الضحك والقهقهة ومداعبة المُكارية معهم وحرافيش العامة،[1] فمالت إليهم نفوس أهل الأهواء من النساء الأسافل والفواحش، فتداخلن معهم لخضوعهم للنساء وبذل الأموال لهن، وكان ذلك التداخل أولًا مع بعض احتشام وخشية عار ومبالغة في إخفائه، فلما وقعت الفتنة الأخيرة بمصر وحاربت الفرنسيس "بولاق"، وفتكوا في أهلها وغنموا أموالها، وأخذوا ما استحسنوه من النساء والبنات صرن مأسورات عندهم، فزينوهن بزي نسائهم وأجروهن على طريقتهن في كامل الأحوال، فخلع أكثرهن نقاب الحياء بالكلية، وتداخل مع أولئك المأسورات غيرهن من النساء الفواجر.]ا.هـ

والنص يعبر بوضوح عن التحول الخطير في بيئة إسلامية، وطريقة انتشار النموذج العلماني الجديد في شأن المرأة، ودور المحتل في نشر نمط جديد سيكون له شأنه الخطير فيما بعد، ولكنه بقي على مستوى طائفة من المجتمع مع شعور الناس بأن هذا

---

[1] **المُكاري: الشخص الذي يؤجر الدواب للناس.، وحرافيش جمع حرفوش، وهم سفلة النّاس وأراذلهم.**

انحراف، وليس لذلك أي مشروعية.. ولكن سيأتي من يشرع لهذا الأمر فيما بعد من قبل المبتعثين ودعاة المذاهب الفكرية الجديدة.

أما الطريق الثاني فهو الأقوى والأعمق والأخطر، وهو القائم على مشاهدة النموذج العلماني في بلاده من قِبَل المبتعثين لدراسة العلوم، ثم عودتهم لتأصيل ما رأوه من ناحية فكرية، معتمدين على الجهود الفكرية الضخمة الموجودة في الغرب، ومن أبرز الأمثلة نجد "الطهطاوي" و"قاسم أمين"، وإن كان بينهما فارق كبير، فالأول ابن الأزهر، وكان ممن تعلم العلوم الشرعية وبرع فيها، ثم جاءت رحلته لأوروبا للإشراف الديني على طلاب البعثة، أما الثاني فقد درس في المدارس العصرية، ثم درس الحقوق وجاءت رحلته لأوروبا تكميلًا لهذا الباب.

وقد تحول شأن وضع العناية بالمرأة من شأن إسلامي إلى إسلامي وتغريبي، وقد اتسعت دائرة التغريب مع الاحتلال الغربي، فظهرت تيارات تغريبية تتنافس في نشر التغريب في بلاد المسلمين، فلم يَعُد اتجاهًا واحدًا بل اتجاهات، وكل واحد منها يتبع مدرسة غربية؛ ينشر أصولها ويدافع عنها بما في ذلك نشر موقف المدرسة الغربية المُتبَعة حول وضع المرأة.

وقد وجد المتغربون العرب ترسانة فكرية ضخمة حول وضع المرأة، ونقلوها إلى العالم الإسلامي، بما في ذلك ما يتعلق بالعلاقة بين الجنسين، ومسائل الزي والزينة والمظهر المتعلقة بالمرأة، ووضع المرأة في المجتمع، وغيرها من المسائل، **ومن تلك الترسانة ما يخالف التشريع الإسلامي فيما يخص المرأة المسلمة، وما يخالف التصور الإسلامي عمومًا حول المرأة، والعلاقة بين الجنسين، والأسرة، والإنسان. ومن هذه الترسانة ما يزعمون بأن له علاقة بالعلم، الذي يعد عندهم الفيصل الحاسم في مسائل البشرية اليوم.**

وقد استخدموا كل الوسائل الممكنة من صحافة وإذاعة وسينما ومسرح وكتب وروايات.. وكان التركيز عنيفًا والوسائل فعالة..

ولا تزال كل هذه الوسائل مستخدمة حتى هذه اللحظة، وبعنف أشد مما كان آنذاك دون شك.. وقد أحدثت هذه الوسائل في خلال ما يزيد على نصف قرن تيارًا هائلاً، نافرًا من الإسلام، منسلخًا منه..

وما كان شيء من ذلك ليحدث لو أن المسلمين كانوا على إسلام صحيح.. فالعقيدة الحية المتمكنة من القلوب لا تُقهر، ولا يتخلى عنها أصحابها مهما وقع عليهم من الضغوط.. **والاستعلاء بالإيمان يقي الناس من الذوبان في عدوهم**؛ ولو انهزموا أمامه في المعركة الحربية.. والغنى النفسي الذي يحدثه الإيمان الحق بالله، والغنى الواقعي الذي يحدثه التطبيق الصحيح للمنهج الرباني؛ يجعل المسلم – فردًا وجماعة ومجتمعًا ودولة – في غنى عن الاقتراض من عالم القيم والمبادئ –فضلاً عن التسول!– **وإذا احتاج لشيء من أمور الدنيا يفتقده عنده فإنه يأخذه في استعلاء المؤمن، ويطوعه لمنهجه الرباني، ويصبح مالكًا له لا مملوكًا له.**

وما كان الغزو الفكري ليتسرب إلى نفوس المسلمين –لو كانوا على إسلام صحيح– ولا إلى عقولهم وأفكارهم ومشاعرهم، حتى يزيلهم عن قاعدتهم، ويجرفهم في التيار.. غثاء كغثاء السيل، كما وصفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أربعة عشر قرنًا من الزمان.

وما كان ضغط الحضارة الغربية ليجلي المسلمين عن مواقعهم، وهي حضارة زائفة ممسوخة في عالم القيم، على الرغم من كل التقدم العلمي والمادي والتكنولوجي الذي يشتمل عليه. وقد كان المسلمون قمينين أن يأخذوا كل التقدم العلمي والمادي والتكنولوجي الذي يحتاجون إليه –كما أخذوا من الروم والفرس أول مرة– دون أن يفقدوا إسلامهم، أو يتخلوا عن ذاتيتهم، أو تختلط القيم والموازين في حسهم.

كان المسلمون جديرين أن يصححوا أفكار البشرية الزائغة إزاء لوثة الداروينية، ولوثة التطور، ولوثة المادية، ولوثة التفسير الجنسي للسلوك البشري، والتفسير الآلي للحياة، ولوثة (التحرر) من كل القيم، ولوثة إخراج المرأة من بيتها ووظيفتها؛ لتكدح وتشقى من أجل لقمة العيش، وتتبذل وتَفسد وتُفسد المجتمع كله معها في نهاية الأمر.

وبدلاً من أن يصحح المسلمون للبشرية منهج حياتها، ويهدوها إلى المنهج الحق؛ تَخَلَّوْا هم عن منهجهم الرباني، وراحوا يلهثون لهثًا وراء الجاهلية الأوربية، ويستأذنونها في مذلة أن تسمح لهم باللهث وراءها، ولا تحتقرهم ولا تستصغرهم إلى أن يتمكنوا من اللحاق بها في آخر الشوط..!

وذلك هو التفسير الحقيقي لما حدث في قضية المرأة، وكل القضايا الأخرى التي ألمت بالمسلمين في أثناء نهضتهم المعاصرة.

وخلاصة الأمر أن المجتمع الإسلامي كان بعيدًا عن (حقيقة) الإسلام..

ومن هنا وُجدت الثغرة التي ينفُذ منها الشياطين. [1]

وسقط الحجاب بزعم "تحرير المرأة":

إن كل ما يقال حول قضية المرأة و "تحريرها" كلام فيه قليل من الحق وكثير من الباطل والتضليل، ليس في بلاد المسلمين قضية باسم "تحرير المرأة" بعد أن حررها الإسلام، وإنما هي مشكلة كانت عند الغربيين، ولا تزال..

فحركة تحرير المرأة التي قادها "قاسم أمين" ما هي إلا مؤامرة استعمارية تستهدف تدمير الأسرة المسلمة وتحطيم البيت المسلم، حتى قال "محمد فريد": إن دعوة "قاسم

[1] النظريات العلمية الحديثة مسيرتها الفكرية وأسلوب الفكر التغريبي العربي في التعامل معها: حسن بن محمد حسن الأسمري – واقعنا المعاصر: محمد قطب (باختصار).

أمين" قد أحدثت تدهورًا مريعًا في الآداب العامة، وأحدثت انتشارًا مفزعًا لمبدأ العزوبة، وأصبحت ساحات المحاكم غاصة بقضايا هتك الأعراض."ا.هـ

وبدأت (الانطلاقة) في موضوع (قضية المرأة) حين صدر كتاب "المرأة في الشرق" للمحامي النصراني "مرقص فهمي"، وقد دعا فيه صراحة وللمرة الأولى في تاريخ المرأة المسلمة إلى تحقيق أهداف خمسة محددة، وهي:

* أولًا: القضاء على الحجاب الإسلامي.
* ثانيًا: إباحة اختلاط المرأة المسلمة بالأجانب عنها.
* ثالثًا: تقييد الطلاق وإيجاب وقوعه أمام القاضي.
* رابعًا: منع الزواج بأكثر من واحدة.
* خامسًا: إباحة الزواج بين المسلمات والأقباط.

وفي نفس الوقت الذي ظهر فيه هذا الكتاب؛ كان اللورد "كرومر" يدير (ورشة عمل) في صالون الأميرة "نازلي"؛ وكان (الصالون) يضم لفيفًا من قادة الفكر وقادة السياسة. ومن ذلك الصالون خرجت فكرة أخرى، وهي: أن كتاب "مرقص فهمي" لم يؤدِّ الدور المطلوب؛ لأنه قبطي نصراني، والأمة الإسلامية لا تثق أن تأخذ دينها عن النصارى؛ فكان أن خرج كاتب منتسب إلى الإسلام وهو "قاسم أمين" بكتابه "تحرير المرأة"، وأعانه على ذلك -كما ثبت تاريخيًّا- مَن كان يستضيفهم ذلك الصالون.. أعانوه على تحقيق مسألة هي في ذاتها صغرى بالنسبة لما بعدها، ولكنها البداية التي تبدأ منها المؤامرة في كل مكان وفي كل بلد، وهي: أنه لا يجب على المرأة أن تغطي وجهها، بل قالوا: إنّ تغطية الوجه هي عادة من العادات التي ورثها المسلمون عن الفرس أو الترك، وليست من الدين في شيء، كان هذا هو محور ومضمون كتاب "تحرير المرأة".

وبعد سنوات كتب "قاسم أمين" كتابًا آخر أسماه "المرأة الجديدة"، **زعم فيه أن الشريعة ليس فيها نص يوجب الحجاب على الطريقة المعهودة، وإنما هي (عادة) عرضت للمسلمين من مخالطة الأمم فاستحسنوها وأخذوا بها وألبسوها لباس الدين.(!)** وفي هذا الكتاب قال بوضوح: إنه **لابد للمرأة المسلمة أن تقلد النساء الغربيات في كل أمورها.**

وقد واكب ذلك أن بعض الصحفيين النصارى الذين كانوا يعيشون في بلاد الشام، والذين كانوا قد تعرضوا للأذى من الحكومة التركية نتيجة جهودهم التنصيرية ومؤامراتهم الخبيثة هاجروا إلى مصر، وأسسوا مجلات وصحافة، وظهرت بذلك أول صحف تتحدث بوضوح عن المرأة وقضية المرأة ودور المرأة على يد أولئك النصارى، **فكانت القضية مخططًا لها من جميع الجهات ومن جميع الوجوه.**

ثم كانت الثورة المصرية عام ١٩١٩م، وقيل للمرأة: لابد أن تشاركي في تلك الثورة؛ فخرجت وعملت مظاهرات، وكانت بذلك تعطي المبرر الذي أراده المخططون وهو: أن المرأة تشارك في تحرير الوطن، وتشارك في إخراج العدو ومقاومة العدو المحتل، فلماذا تبقى مظلومة وتبقى مهدرة؟! لماذا لا تكون على قدم المساواة مع الرجل؟! وخرجت نتيجة لذلك مظاهرات نسائية، واجتمعن في ميدان عام، وخرجت التي تولت كبر هذا الموضوع وهي المدعوة "هدى شعراوي"، وخلعت الحجاب وأحرقته في الميدان أمام المتظاهرات، وأمام الزعيم "سعد زغلول".

ومنذ ذلك الحين –والتاريخ كما تعلمون ليس ببعيد– بدأت المرأة المسلمة تكشف عن وجهها، وبدأت المؤامرة تحكم خيوطها على تلك البلاد وفي كل مكان.

وتدريجيًّا.. في ظل المؤامرة المحكمة والضجيج المدوي.. سقط الحجاب!

وأصبح من المناظر المألوفة في العاصمة أولاً ، ثم في المدن الأخرى بعد ذلك؛ أن ترى الأمهات متحجبات، والبنات سافرات..! وكانت الأداة العظمى في عملية التحويل هذه هي التعليم من جهة، والصحافة من جهة أخرى.

وعندما نشطت حركة (تحرير المرأة) وصارت لها صحف، وصارت لها منتديات وخطباء، وقام من يروج لها من الزعماء والمفكرين اضطروا إلى استحداث ما سموه (الأحزاب النسائية)، فأنشئت الأحزاب النسائية مثل: (حزب بنت النيل)، و(الحزب النسائي)، وغير ذلك من الأحزاب.. **ثم رأوا فيما بعد أن كلمة (حزب) تثير الانتباه، والأفضل أن تُسمى (جمعيات).**

هذه الأحزاب تم ضمها فيما بعد إلى (الاتحاد النسائي الدولي)، ومن ذلك (التبعية للاتحادات النسائية الإنجليزية)، وكانت إحدى الوزيرات الإنجليزيات هي التي جاءت إلى مصر ونظمت تلك الأحزاب، وأعلنت تأييدها لها ووقوف المرأة الإنجليزية مع أختها المصرية؛ من أجل تحقيق حريتها وانطلاقتها.

ومع إطلالة الحرب العالمية الثانية، وظهور الرئيس الأمريكي "روزفلت"، وكانت أمريكا تريد أن تتزعم العالم، وقد بدأت شمس بريطانيا في الأفول.. تولى الموضوع زوجة الرئيس الأمريكي "روزفلت"، وقامت بنفسها وتولت كبر التخطيط للأحزاب النسائية والتمويل لها.

ويقدر الله تعالى أن تختلف الأحزاب السياسية فيما بينها، وكل حزب نسائي يتبع حزبًا سياسيًّا، وإذا ببعضها يفضح بعضًا، **وإذا بالصحف السياسية كل منها تنشر الوثائق التي تثبت أن الأحزاب النسائية تمول عن طريق السفارتين: البريطانية والأمريكية، وأن زوجة "روزفلت" تقف وراء ذلك التوجيه كله.**

وفي أبريل سنة ١٩٥١م خرجت مظاهرة من قاعة أيوارت بالجامعة الأمريكية ذات التاريخ الطويل في التبشير؛ قوامها بضع عشرات من الفتيات الكاسيات، تتقدمهن

"درية شفيق" زعيمة حزب "بنت النيل" وبعض الشباب من أصدقاء حزبها وأنصاره.. إلى دار البرلمان؛ هاتفات بالحقوق السياسية المزعومة!!

ولقد اعترفت زعيمة الحزب بمقابلة الوزيرة البريطانية وتحريضها لها؛ فنشرت حديثًا بجريدة "البلاغ" بعد ذلك بيومين تبين أثر المقابلة في عزمها على: **"ترك المقالات والمناقشات والمجادلات، والاتجاه إلى المظاهرات واقتحام أبواب البرلمان"، وذلك تمشيًا مع مغزى الكفاح الوطني المزعوم الذي ترمي إليه الوزيرة البريطانية، والذي تشترك فيه المرأة مع الرجل على قدم المساواة..!**

وهكذا لم يكن عجيبًا أن **تبرق جمعية "سان جيمس" الإنجليزية إلى (الزعيمة) المذكورة بتهنئتها علي نجاحها في اتجاهها الجديد نحو المظاهرات، وتعلن تأييدها لها حتى تنال المرأة المصرية على يديها الحقوق السياسية، تحت قبة البرلمان وفوق كراسي الوزارة.**

وفي أبريل سنة ١٩٥١م عُقد مؤتمر نسائي دولي في "أثينا"، لبت دعوته (الزعيمة) باسم المرأة المصرية -زورًا وبهتانًا- ومع أن المؤتمر في ظاهره يدعو إلى حقوق المرأة المزعومة، فإن قراراته كشفت عن أنه مؤامرة استعمارية بعيدة المدى، فقد جاء في أحد هذه القرارات: "الموافقة على سياسة التسليح الدفاعي"..! ومع أن مصر كانت وما زالت بطبيعة الحال ترفض أي ارتباط دولي في شئون الدفاع، فإن (الزعيمة) المصرية كانت في مقدمة المؤيدات للقرار تأييدًا حارًّا، حتى أن مندوبتي إنجلترا واليونان ظلتا تصفقان للقرار تصفيقًا شديدًا طويلاً..!

ولعل أبلغ ما قوبلت به الزعيمة "درية شفيق" على إثر عودتها من هذا المؤتمر، كان من بعض سيدات الأحزاب النسائية الأخرى "سيزا نبراوي" إذ كتبت في جريدة "المصري" الصادرة يوم ٩ أبريل سنة ١٩٥١م تقول: **"لعل المندوبة المصرية قد أدركت خطورة هذا القرار على مطالبنا الوطنية، فإن الاحتلال البريطاني يتذرع**

بهذه الحجة عينها (حجة التسلح الدفاعي) للبقاء في أرض الوطن ورفض الجلاء الذي نناضل من أجله، إن هذا القرار في الحق لا يقاوم الحرب، وإنما يؤيد الاحتلال، لذلك رأينا المندوبة البريطانية مصفقة له مرحبة به".

هؤلاء ومَن لحق بهم خططوا وسيطروا على مجالات كثيرة في شتى بقاع العالم الإسلامي.. خططوا للمرأة المتحضرة الجامعية أو المثقفة، وخططوا للمرأة الريفية أو القبلية ببرامج تشرف عليها منظمة الأمم المتحدة، وبالجمعيات والأحزاب التي تنتشر فروعها في تلك المناطق، وبالمراكز الاجتماعية وأمثالها مما دخل فيه أعداء الله إلى بلاد المسلمين.

وخططوا على مستوى الأدب والشعر، فنشروا الدواوين الماجنة، والأفكار الخبيثة، والكتب الهدامة، وتولى كثير من الشعراء إشاعة موضوع المرأة وقضية المرأة: مثل "جميل الزهاوي"، و"الرُّصافي"، و"ولي الدين ياسين"، و"الطائر الحداد" في تونس، وغيرهم من الشعراء الذين إذا قرأنا دواوينهم نجد أنهم وضعوا فيها قسمًا خاصًّا سموه: (النسائيات).

ثم تطور الأمر إلى أن أصبح هناك شعراء وكتاب متخصصون في فن الدعارة، متخصصون في إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا، ومحاربة الله ورسوله، ومحاربة عِرض المرأة المسلمة، وعفاف المرأة المسلمة، وغيرة المرأة المسلمة وغيرة الرجل المسلم، وقالوا: لابد أن تنشأ صحافة نسائية، وأحزاب نسائية، ونقابات نسائية في العالم الإسلامي على طوله وعرضه.

وقافلة الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا طويلة.. طويلة.. لم يتوقف مسيرها حتى يوم الناس هذا.. وهم كالشجرة التي تُنبت مرًّا.. لا تحلو ولو زُرعت في تراب من السكر..[١]

زعموا أن الإسلام (متهم) بإهانة المرأة واستضعافها:

(قضايا المرأة) التي يتعمد (العلمانيون) إثارتها بين الحين والحين؛ ليظهروا بمظهر المدافعين عن المرأة المحبين لمصلحتها؛ فزوبعة في فنجان.. ولئن كانت هناك قضية أو مشكلة؛ فهم سببها حين تسببوا بوسائل إعلامهم في تصديع البيوت، وفي إثارة المشاكل.. وحين تسببوا بدعاوي (المساواة) العريضة في أن لا يكون للبيت قوامة، وأن يكون فيه رئيسان: الرجل والمرأة.. ورئيسان في مركب واحد يُغرقانه -كما هو المثل-.

وزعموا أن الإسلام (متهم) بإهانة المرأة واستضعافها..! واتكأوا على مسائل (ظنوها اتهامات) مثل: تعدد الزوجات، وأحكام الزواج والطلاق، وشهادة المرأة نصف شهادة الرجل، وميراث المرأة، وقوامة الرجل على المرأة، وعدم سفر المرأة إلا بموافقة الزوج، وفرض الحجاب..

فهل في كتاب الله وفي سنة رسوله ما يبعث على التهمة؟! القرآن بين أيدينا لم يتغير منه حرف، وهو قاطع في أن الإنسانية تطير بجناحين؛ الرجل والمرأة معا، وأن انكسار أحد الجناحين يعني التوقف والهبوط!

إن الإسلام سوّى بين الرجل والمرأة في جملة الحقوق والواجبات، وإذا كانت هناك فروق معدودة فاحترامًا لأصل الفطرة الإنسانية وما ينبني عليها من تفاوت الوظائف! وإلا فالأساس قوله تعالى: **(فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ**

---

[١] واقعنا المعاصر: محمد قطب – أعلام وأقزام في ميزان الإسلام: د. سيد العفاني – الاختلاط بين الرجال والنساء: شحاتة محمد صقر. (باختصار).

ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ) [آل عمران: ١٩٥] وقوله تعالى: **(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)** [النحل: ٩٧]

وصارت (قضايا) المرأة المسلمة تشكل تحديًّا خطيرًا للأمة، يستخدمها الأعداء من الغرب الكافر والخوارج الجدد؛ كسلاح استراتيجي في هجمتهم على الإسلام والمسلمين..

وفي سبيل **دفع تهم الجمود التي يلصقها الغربيون بالشريعة** رأينا طائفة من المنهزمين ينجرفون إلى أقصى الطرف المناقض في بيان ما تنطوي عليه الشريعة من مرونة التطبيق حتى يبلغوا بهذه المرونة حد الميوعة وانعدام الذات والمقومات.. تلك الميوعة التي تجعلها صالحة لأن تكون ذيلاً لأي نظام وتبعًا للأهواء، وبذلك ينتهون إلى إلغاء وظيفة الدين؛ لأنهم بدلاً من تقويم عوج الحياة بنصوص الشريعة يحتالون على نصوص الشريعة حتى يبرروا بها عوج الحياة المعاصرة..!

نعم.. لقد أُصيبت المرأة المسلمة بنكسة كبرى في عصور الانحطاط والتراجع الحضاري التي مرَّت بالأمة الإسلامية، **ولعل نكساتها (تتفاقم) نتيجة الاستجابة النفسية لمخططات الغرب من مجموعة كبيرة من أصحاب الفكر المريض الذين يتحكمون في مناهج التعليم ووسائل الإعلام، والمتنفذين في مجال التشريع للمرأة المسلمة ممن يتحكمون في مصير الرجال والنساء.**

إن (العولمة) التي يسوقون الناس لها سوقًا، ويفرضونها على مجتمعنا الإسلامي فرضًا؛ تعمِّق مفهوم الحرية الشخصية في العلاقة الاجتماعية، وفي علاقة الرجل بالمرأة.. وهذا بدوره يؤدي إلى التساهل مع الميول والرغبات الجنسية، وتمرّد الإنسان على النظم والأحكام الشرعية التي تنظم وتضبط علاقة الرجل بالمرأة. وهذا بدوره يؤدي إلى انتشار الإباحية والرذائل والتحلل الخلقي وخدش الحياء والكرامة والفطرة الإنسانية.

وفي المقابل.. فإن جملة الأحكام التي يطلق عليها عنوان (الحجاب) هي في الحقيقة مشتملة على أهم أجزاء النظام الاجتماعي في الإسلام، فإذا وضعت هذه الأحكام موضعها الصحيح في النظام الإسلامي بكامله، ثم تأملها أحد فيه أثارة من البصيرة الفطرية السليمة؛ لم يلبث أن يعترف بأنها الصورة الوحيدة الممكنة التي تضمن القصد والاعتدال في الحياة الاجتماعية.

وأن هذه الأحكام لو عرضت على العالم منفذة في الحياة العملية بروحها الحقيقية الصحيحة؛ لهرولت الدنيا المنكوبة إلى هذا النبع الصافي تلتمس فيه الدواء لأدوائها الاجتماعية المتفشية بدل أن تنفر منه أو تطعن عليه.[١]

العداء الصريح للحجاب والتضييق على المحجبات:

مع تحكم (العلمانية) وسريانها في جميع مفاصل الدول العربية والإسلامية؛ بَدَا جليًّا العداء الصريح لحجاب المرأة المسلمة؛ هذه الشعيرة الدينية والفريضة المعلومة من الدين بالضرورة.. **وقد تحولت ظاهرة التضييق على المحجبات من طور الخفاء إلى العلن، ومن مرحلة التلميح إلى التصريح.. كما تحولت من معركة فكرية سلاحها القلم والتضليل إلى معركة حقيقية سلاحها البطش والإرهاب والتنكيل..**

ورغم وجود الكثير من التناقضات الواضحة بين شعارات الغرب التي تدعو للحرية الفردية –وعلى رأسها حرية المعتقد واللباس– وبين مسألة التضييق على المحجبات (رغم دخول الحجاب ضمن مفهوم اللباس الحر)، وعلى الرغم من الآثار الاجتماعية الكارثية لحرية لباس المرأة، ومن أهمها إفساد أخلاق الشباب والفتيات.. إلا أن بعض البلاد الإسلامية ما تزال تتبع الغرب وتقلده في هذا الجانب..!

---

[١] المرأة بين الفقه والقانون: مصطفى السباعي – قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة: محمد الغزالي – عودة الحجاب: محمد إسماعيل المقدم – المرأة المسلمة والمكائد الغربية: صالح الرقب.

ففي مصر: كان "السادات" يطلق على الحجاب (الخيمة)! وتقول زوجته "جيهان" مدرس الأدب الإنجليزي في كلية الآداب بجامعة القاهرة: إنني ضد الحجاب لأن البنات المحجبات يُخِفْن الأطفال بمظهرهن الشاذ، وقد قررت بصفتي مدرسة بالجامعة، أن أطرد أي طالبة محجّبة في محاضرتي..! فسوف آخذها من يدها، وأقول لها: مكانك في الخارج..!

وفي تونس: مُنعت المرأة المسلمة من ارتداء الحجاب في المدارس الحكومية والجامعات أو الأماكن الحكومية.!

وفي الجزائر: سرق "أحمد بن بيلا" الثورة الإسلامية، وحوّلها إلى اشتراكية، ودعا المرأة إلى خلع الحجاب. وقال إنَّ المرأة الجزائرية قد امتنعت عن خلع الحجاب في الماضي؛ لأن فرنسا هي التي كانت تدعو إلى ذلك. أما اليوم فإني أطالبُ المرأة الجزائرية بخلع الحجاب من أجل الجزائر..![1]

وفي تركيا: يعتبر الحجاب قضية قديمة بدأت كمشكلة مع سلسلة الإجراءات التي صدرت في عهد مؤسس الجمهورية التركية العلمانية "مصطفى كمال أتاتورك" (١٩٢٣م- ١٩٣٨م) عندما اتجه إلى فرض مجموعة من القرارات المتعلقة بالثياب على المواطن التركي، وذلك في إطار تطلعه إلى قطع صلة بلاده بالإسلام كهوية حضارية وإلحاقها بالغرب؛ فكانت سلسلة الأوامر المتعلقة بمنع ارتداء الطربوش والحجاب وأنواع من اللباس الطويل لصالح أنواع أخرى تُظهر (التركي) بالمظهر المنسجم مع ما هو سائد في الغرب باعتبار أن الأخير هو النموذج الحضاري المنشود والنهائي.

وقد تم نزع حجاب المرأة التركية آنذاك بالإرهاب والإهانة في الطرقات

---

[1] عودة الحجاب: محمد إسماعيل المقدم – محاربة الحجاب في بلاد الإسلام: مقال بقلم د. عامر الهوشان /موقع المسلم (١١جمادى الأول ١٤٣٥هـ). (باختصار وتصرف).

حيث كان رجل الشرطة يقوم بنزع حجاب المرأة التركية بالقوة.

وبرزت قضية الحجاب كقضية سياسية في تركيا عقب الانقلاب العسكري الذي قام به الجنرال "كنعان أيفرين" يوم ١٢ سبتمبر ١٩٨٠م حيث تم بعد ذلك **منع المحجبات من دخول الجامعات وسائر المعاهد والمدارس وباقي مؤسسات الدولة..!** وهو أمر زاد من معاناة المحجبات في البلاد في وقت تقول فيه التقارير: إن عدد الطالبات اللواتي اضطررن إلى مغادرة البلاد لاستكمال دارستهن تجاوز أربعين ألف طالبة؛ معظمهن اتجهن إلى دول مثل أمريكا وألمانيا وهولندا والمجر وأذربيجان ومؤخرا سوريا ومصر. فيما تمسكت فتيات أخريات بتلقي التعليم داخل الجامعات التركية حيث اضطررن لارتداء القبعات أو الشعر المستعار (الباروكة) كأضعف الحلول للتحايل على قرار منع الحجاب (برغم عدم كفاية ذلك للوفاء بالحق الشرعي عليهن فيما يخص الحجاب).

وبعد مضي أكثر من تسعين سنة على اضطهاد المحجبات والتضييق عليهن.. نشهد انفراجة تلو الأخرى في معركة الحجاب المستعرة في تركيا بين العلمانيين بزعامة الجيش والأحزاب العلمانية (على رأسهم حزب الشعب المعارض) من جهة، وحزب العدالة والتنمية الحاكم ذي الجذور الإسلامية بزعامة **"رجب طيب إردوغان" من جهة؛ والذي استطاع في الآونة الأخيرة أن يتخذ خطوات تمهد لرفع الحظر عن الحجاب كليًّا في البلد الإسلامي ذي النظام العلماني.**[١]

وفي قيرغيزستان: شن رئيس البلاد "ألمازبيك أتامباييف" هجومًا عنيفًا على الحجاب، وادعى أن النساء "يتطرفن ليُصبحن إرهابيات إذا ارتدين زيًّا إسلاميًّا". وتأتي تصريحات الرئيس بعد عدة أسابيع من الجدل المثار حول اللوحات واللافتات الموضوعة في شوارع العاصمة "بيشكيك" برعاية الحكومة، والتي تحاول ثني نساء

[١] معركة الحجاب في تركيا.. إردوغان يقترب من الانتصار: تقرير إخباري –إيمان الشرقاوي/ موقع المسلم ٢١ محرم ١٤٣٢هـ.

"قيرغيزستان" عن ارتداء الزيّ الإسلامي، لاسيما الحجاب والنقاب، قبيل زيارة المستشارة الألمانية "أنجيلا ميركل" إلى البلاد منتصف يوليو الماضي. وقال "أتامباييف": "عندما نصبنا اللافتات أتى بعض الأذكياء وبدأوا في الإشارة إلى التنانير القصيرة"، وأضاف: "نساؤنا يرتدين التنانير القصيرة منذ الخمسينات، ولم يفكرن أبدًا في ارتداء حزام ناسف"، على حد وصفه.[٢]

هذا غيض من فيض، ونقطة في بحر.. وإنما أردنا الإشارة؛ فإن الاستقصاء يطول..

واستبداد الحكام وطغيانهم في هذه المسألة يفسره لنا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: **"صِنفانِ مِن أهلِ النارِ لم أرَهما: قومٌ معهم سِياطٌ كأذنابِ البقرِ يَضربون بها الناسَ، ونساءٌ كاسياتٌ عارياتٌ مميلاتٌ مائلاتٌ رُؤوسُهن كأَسْنِمَةِ البُخْتِ المائلةِ لا يَدخُلْنَ الجنةَ ولا يَجِدْنَ رِيحَها، وإنَّ رِيحَها لَيُوجَدُ مِن مَسيرةِ كذا وكذا."**[٣]

قال الأستاذ "محمد أديب كلكل" مشيرًا إلى فوائد هذا الحديث: [**وفيه ربط بين الاستبداد السياسي (قوم معهم سياط) والانحلال الخلقي (ونساء كاسيات عاريات)، وهذا ما يصدقه الواقع؛ فإن المستبدين من الطغاة والمتسلطين من الفراعنة يشغلون الشعوب عادة بما يقوي الشهوات ويزينها، ويلهي الناس بالمتاع الشخصي عن مراقبة القضايا العامة؛ لكي يبقوا سادرين في غفلاتهم، غارقين في شهواتهم، لا يهتمون بطغيان، ولا يسألون عن انحراف، ولا يقاومون ظلمًا ولا عدوانًا.**] ا.هـ بمعناه.

أجل! لقد تطرف هؤلاء (الأكابر) في انجذابهم إلى طريق الشيطان حتى خرجوا من الدائرة بالكلية، وصاروا هم في الحقيقة الرجعيين المتطرفين الداعين إلى الرجعية الجاهلية المظلمة قبل بزوغ فجر الإسلام.

---

[٢] لماذا يهاجم هؤلاء الحجاب: مقال بقلم د. زياد الشامي/موقع طريق الإسلام (٢٠١٧/٠١/٢٥)

[٣] رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ومن عجيب أمرهم أنه إذا أنكَرَ عليهم مُنكِرٌ فَتْحَهم باب الطعن في أحكام الإسلام؛ احتجوا بأن هذه أمور تخضع للحرية الشخصية..! أفلا يحتجون بحرية الرأي والسلوك في حق مَن يكفر بأنظمتهم السياسية، ويطعن في مناهجهم العلمانية؟! أم أنهم **يغارون على دنياهم، ويستكثرون علينا أن نغار على ديننا؟!**

يقادُ للسجنِ مَن سبَّ الزعيمَ * * * ومَن سبَّ الإلهَ فإنَّ الناسَ أحرارُ[1]

خطط الأعداء (حديثًا) لهدم كيان المجتمع الإسلامي من خلال المرأة:

أولا: التمويل الأمريكي والأوربي للجمعيات والمنظمات الأهلية النسائية العلمانية

ويستهدف التَّمويل الأجنبي للجمعيات الأهلية النِّسائية تسخير هذه الجمعيات لخدمة أهداف مموليها..

وفي مقدمة المموِّلين مؤسسات أمريكية تتبع الحكومة الأمريكية مباشرة، وتمويلها جزء من ميزانية الولايات المتحدة، ويتحكم فيها الكونجرس الأمريكي. وتعد هيئة المعونة الأمريكية A.I.D أحد المصادر الأساسية للتمويل في مصر للجمعيات الأهلية غير ذات التَّوجه الإسلامي. وهناك مؤسسات أمريكية أخرى لا تندرج تحت اسم A.I.D ولكنها تتبع الحكومة الأمريكية.

ومن المؤسسات العالمية التي تدعم الجمعيات النِّسائية مؤسسة "فورد فوندشن" وغيرها من المنظمات الدَّولية ذات السُّمعة العالمية في زعزعة بنيان العالم الثَّالث، وتهيئته لما يسمى بالنظام العالمي الجديد، أو السَّطوة الأمريكية الجديدة مثل: المعونة الأسترالية، و"سيدا" كندا، وهي تتبع الحكومة الكندية مباشرة، و"دانيدا" الدانمارك، و"فنيدا" فنلندا، و"نورادا "النَّرويج، و"سيدا" السويد، ومؤسسة "نوفيب" التَّابعة للحكومة الهولندية، ومنظمة "فردريش إيبرت"، وهي منظمة ألمانية على علاقة بالحزب

[1] عودة الحجاب: محمد إسماعيل المقدم (باختصار وتصرف).

الدِّيمقراطي في ألمانيا.

وإن كانت الجمعيات الأهلية النِّسائية تسعى إلى استقلالها عن حكوماتها، فهي بسعيها وراء التَّمويل الأجنبي تقذف بنفسها في أحضان الحكومات الأمريكية والكندية، والسويدية، والهولندية، والدانمركية، والألمانية.. لأنَّ هذه الحكومات لا تمول هذه الجمعيات لوجه الله تعالى، وإنَّما تدعمها لتُسَيرها وَفقَ خطط وأهداف وضعتها هذه الحكومات؛ مُسخرة القيادات النِّسائية في هذه الجمعيات لتحقيقها.[١]

ثانيا: الاتفاقيات الدولية الخاصة بحقوق الإنسان:

ومن أخطر هذه الاتفاقيات، اتفاقية القضاء على جميع أشكال التَّمييز ضد المرأة (سيداو CEDAW)[١]، وقد صدرت هذه الاتفاقية من الجمعية العمومية للأمم المتحدة في عام ١٩٧٩م، وأصبحت سارية المفعول منذ ٣ سبتمبر عام ١٩٨١م، ووصل عدد الدُّول الموقعة عليها إلى مائة وتسع وثلاثين دولة؛ أي أكثر من ثلثي أعضاء الأمم المتحدة.

وتنص هذه الاتفاقية على ديباجة تشجب فيها الدُّول الأطراف جميع أشكال التمييز ضد المرأة، وتوافق على أن تنتهج بكل الوسائل المناسبة ودون إبطاء سياسة القضاء على التمييز ضد المرأة. وتحقيقًا لذلك فهي تتعهد بتجسيد مبدأ المساواة بين المرأة والرجل في دساتيرها الوطنية أو تشريعاتها، واتخاذ التدابير التشريعية المناسبة وغيرها من الإجراءات الضرورية لحظر كافة أشكال التمييز ضد المرأة، والامتناع عن الاضطلاع بأي عمل أو ممارسة تمييزية ضد المرأة، وكفالة تصرف السُّلطات والمؤسسات العامة بما يتفق وهذا الالتزام، إضافة إلى ذلك تتكون الاتفاقية من عدد من البنود تتناول كافة جوانب الحياة العامة والشخصية للنِّساء.

---

[١] المرأة المسلمة والمكائد الغربية: صالح الرقب.

[١] جاءت لفظة سيداو CEADAW من تجميع الأحرف الأولى لاسم الاتفاقية باللغة الإنجليزية:
Convention on Elimination of All Forms of Discrimination Against Women

وتُعَدُّ اتفاقية (السيداو) الآن بمثابة قانون دولي لحماية حقوق المرأة، حيث أنَّه بموجب هذه الاتفاقية تصبح الدُّول الأطراف الموقعة عليها ملتزمة باتخاذ كافة التدابير للقضاء على التمييز بين الرجال والنِّساء؛ سواءً على مستوى الحياة العامة فيما يتعلق بممارسة جميع الحقوق المدنية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وفي التمتع بهذه الحقوق، أو على مستوى الحياة الخاصة، وعلى وجه الخصوص في الإطار الأسري.

وهذه الاتفاقية تعتبر عمل المرأة التكسبي حقًّا مكتسبًا، وليس ضرورة استثنائية. كما أنَّ هذه الاتفاقية لا تريد استثناء المرأة من بعض الأعمال التي توصف بأنَّها ذات مخاطر جسدية أو أخلاقية؛ فهي تريد للمرأة أن تعمل في الأعمال الليلية، وفي المحاجر والمناجم.. وتعد منظمة العمل الدولية استثناء المرأة من هذه الأعمال تخلفًا ورجعية! وآية ذلك أنه لما عرضت الحكومة المصرية عليها قوانين عمل المرأة، رفضت منظمة العمل الدولية هذه القوانين لأنها استثنت النَّساء من هذه الأعمال لأنهن رفضن مزاولتها، فالنساء المصريات لا يردن ترك بيوتهن في الليل لحاجة أولادهن لهن من جهة، ولأن هذه الأعمال قد تعرضهن للابتزاز الجنسي من زملائهن من جهة ثانية، ولأن خروجهن في الليل يعرضهن إلى كثير من المخاطر من جهة ثالثة، وهذا يبين لنا أنّه لا يمكن بأية حال من الأحوال مناقضة الفطرة التي فطر الله تعالى النَّاس عليها.

إن اتفاقية سيداو تخالف الإسلام؛ لأنها تقوم على أصول تخالف أصوله، وترتكز إلى فلسفات تناقض عقيدته، وتهدف إلى إشاعة مفاهيم تخالف شريعته، وما يروج له البعض من أن هناك تغييرًا في البنود المتعلقة بالتحفظات لا يغير من حقيقة مخالفتها للإسلام في شيء.[1]

[1] المرأة المسلمة والمكائد الغربية: صالح الرقب – سيداو في الميزان: نزار محمد عثمان/موقع صيد الفوائد.

ثالثًا: المؤتمرات العالمية للتعليم:

تدعو هذه المؤتمرات إلى تعليم المرأة تعليمًا علمانيًّا، من أجل تنفيذ مخططات إخراج المرأة المسلمة من الأخلاق الإسلامية، وتمردها على أحكام الشريعة الربانية.

رابعًا: نشر ثقافة الجندر وتعزيزها:

(الجندرة) في الأصل تعني النوع أو الجنس، وهي تشير إلى الأدوار الاجتماعية للنساء والرجال؛ والتي تتحدد من قبل مجتمع ما أو ثقافة ما على أنها الأدوار والمسئوليات والسلوكيات المناسبة لكل من الرجل والمرأة في هذا المجتمع.

مفهوم الجندرة في الغرب –والمستورد لنا من خلال عملائه– يعني الدور الاجتماعي والسياسي المتماثل لكل من المرأة والرجل. وتعتبر الثقافة الغربية المادية هي العامل الأساس في ترتيب الأدوار، وليس الجنس ومكوناته النفسية والفسيولوجية والعضوية.

وقد شكلت مقررات (مؤتمر بكين) أساسًا عمليًّا للسير في هذا الاتجاه، وكان بمثابة إشارة واضحة لكل الدول بحكوماتها ومنظماتها المدنية للعمل على تعزيز المساواة الاجتماعية بين الرجل والمرأة؛ على الرغم من أنه يصعب تحديد الدور الاجتماعي بشكل قاطع لأن ذلك يختلف بحكم اختلاف القيم الدينية والاجتماعية والثقافية والأخلاقية.

ونحو تحقيق إزالة الفروق الوظيفية بين الرجل والمرأة، فإنَّ الأمومة تأخذ حيزًا كبيرًا عند الجندريين، فعالمة الاجتماع "أوكلي" تقول: "إنَّ الأمومة خُرافة، ولا يوجد هناك غريزة للأمومة، وإنما ثقافة المجتمع هي التي تصنع هذه الغريزة؛ ولهذا نجد أنَّ الأمومة تعتبر وظيفةً اجتماعية."ا.هـ

وهنا يظهر مصطلح (الصحة الإنجابية)، وهو – حسب المنظور الجندري – ليس كالمفهوم العالمي له، والهادف إلى معالجة الإشكاليات الناتجة من وظيفة المرأة كأمٍّ على مستوى الإنجاب، والتي قد تقف عائقًا أمام ممارستها لدَوْرها الجندري المساوي لدور

الرجل، ومِن هذه الإشكاليات الحملُ والرَّضاعة، وغيرها من الوظائف الفسيولوجية للمرأة، كما أنَّ هذا المفهوم أثار ضجَّة على مستوى عِدَّة مؤتمرات بهذا الخصوص، حيث أبدتْ بعض الدول المشارِكة تحفُّظاتٍ عليه، عندما وُجِد بأنَّه يُشرع الإجهاض.

إن الفروق الفسيولوجية بين الرجل والمرأة لا يمكن إنكارُها، كما لا يمكن العبث بها، وبالتالي فهي تقف كعلامة استفهام كبيرة أمام دعاة المساواة المطلقة بين الرجل والمرأة.

وقد تمَّ التركيز على (الجندر)، أو النوع الاجتماعي؛ لأنَّه يوضِّح الفروق بين الرجل والمرأة على صعيد الدور الاجتماعي، والمنظور الثقافي والوظيفة.. تلك الفروق النابعة كنِتاج لعوامل دِينيَّة وثقافيَّة، وسياسية واجتماعية؛ أي: إنها فروق صَنَعها البشر عبرَ تاريخهم الطويل، حسب مفهوم (الجندر).

ومن هنا؛ إذا عجز البشر عن إزالة الفروق البيولوجية، فمِن الممكن إزالةُ الفروق النوعية (الجندرية) بين الرجل والمرأة، وذلك مِن خلال برامجَ تنمويةٍ تعمل على تغيير قِيمي وبنيوي داخلَ المجتمع، يكفل إزالةَ هذه الفروق.

ومِن القضايا التي تحاول البرامجُ (الجندرية) التصدِّي لها: الوظيفة الاجتماعية للرجل والمرأة، على افتراض أنَّ الرجل يُهيمِن على المرأة، ويمارس قوَّة اجتماعيَّة وسياسية عليها ضِمنَ مصطلح (المجتمع الذُّكوري)، وبالتالي **يجب منحُ المرأة قوَّة سياسية واجتماعية واقتصادية تساوي القوةَ الممنوحة للرجل في جميع المستويات حتى في الأسرة.**[1]

خامسًا: المؤتمرات النسائية:

هذه المؤتمرات، أو هذه المؤامرات على الإسلام والمسلمين، تعني بالدرجة الأولى استهداف الأسرة المسلمة، لأنها تعتبر من أواخر الحصون الإسلامية التي لمَّا تسقط

---

[1] المرأة المسلمة والمكائد الغربية: صالح الرقب – الجندر: المفهوم والحقيقة والغاية: حسن حسين الوالي/موقع صيد الفوائد.(باختصار وتصرف).

بعد، سواء على المستوى الثقافي أو الاجتماعي أو القانوني، لذلك لابد من إسقاطها وإغراقها في الفلسفات والممارسات التي سقطت فيها الأسرة في الحضارة والثقافة الغربية، وعند ذلك يتم إحكام السيطرة على الحصن الأخير، والأمل الباقي لغرس القيم والنقل الثقافي والتوارث الاجتماعي، ليمتد التحكم بالنُّطَف والأجنَّة مستقبلاً، إضافة إلى التحكم بالأحياء حاضرًا.

يقول الدكتور "عماد الدين خليل": "وفي الجانب الاجتماعي تسعى العولمة إلى تعميم السياسات المتعلقة بالطفل والمرأة والأسرة، وكفالة حقوقهم في الظاهر، إلا أنَّ الواقع هو إفساد وتفكيك الأفراد واختراق وعيهم، وإفساد المرأة والمتاجرة بها، واستغلالها في الإثارة والإشباع الجنسي، وبالتالي إشاعة الفاحشة في المجتمع، وبالمقابل تعميم فكرة تحديد النسل، وتعقيم النساء، وتأمين هذه السياسات وتقنينها بواسطة المؤتمرات ذات العلاقة: (مؤتمر حقوق الطفل)، (مؤتمر المرأة في بكين)، (مؤتمر السكان).. وما تخرج به هذه المؤتمرات من قرارات وتوصيات واتفاقيات تأخذ صفة الدولية، ومِن ثَمَّ الإلزامية في التنفيذ والتطبيق.. وما تلبث آثار ذلك أن تبدو واضحة للعيان في الواقع الاجتماعي استسلامًا وسلبية فردية، وتفككًا أسريًّا واجتماعيًّا، وإحباطات عامة، وشلل تام لدور المجتمع الذي تحول إلى قطيع مُسَير ومنقاد لشهوته وغرائزه؛ لا يعرف معروفًا ولا يُنكر منكرًا، متحللا من أي التزامات أسرية واجتماعية، إلا في إطار ما يلبي رغباته وشهواته وغرائزه."ا.هـ

يقول الأستاذ/ "عمر عبيد حسنة": [الحقيقة التي لابد من إبرازها هنا، أن هذه المؤتمرات، خاصة المؤتمرات المتعلقة بالمرأة، ابتداءً من (المؤتمر العالمي الأول للمرأة) الذي انعقد في "مكسيكوسيتي" عام ١٩٧٥م، وكان شعاره: (رفع التمييز ضد المرأة)، ومرورًا بمؤتمر "كوبنهاجن" عام ١٩٨٠م، ومؤتمر "نيروبي" ١٩٨٥م، ومؤتمر (السكان والتنمية) في القاهرة عام ١٩٩٤م، ومؤتمر "بكين" ١٩٩٥م، ووصولاً إلى مؤتمر

"اسطنبول للإسكان والإعمار" ١٩٩٦م.. تنطلق من أهداف محددة، وتحكمها فلسفة واحدة، وتلتزم استراتيجية طويلة المدى في تطوير وسائلها، وتستظل بمظلة الأمم المتحدة، وحراسة النظام العالمي الجديد، بكل ما يمتلك من قدرات مالية، وخبرات إعلامية، وسلطان سياسي قاهر، قادر على أن يفرض ما يريد من قيم ومبادئ، تعمل على نسخ ثقافات الشعوب الأخرى وحضاراتها، وتهميشها، لتصبح جُزرًا صغيرة في المحيط الكبير، القائم على التسلط والإغراق الثقافي، باسم (العالمية)، دون أن يمثل هذا النظام الذي تُدَّعى له العالمية شيئًا من المشترك الإنساني.

وهذه المؤتمرات، على تنوع طروحاتها، وتعدد أساليبها، ترمي إلى ابتداع أنماط وأشكال جديدة من الحياة الاجتماعية والاقتصادية، تحطم الحواجز الأخلاقية، وتعارض القيم الدينية، وتنشر الإباحية باسم الحرية، وتشجع على التحلل باسم التحرر، حيث لم يكتفِ واضعو البرامج لهذه المؤتمرات عند حد التشكيك في اعتبار الأسرة هي الوحدة الأساسية للمجتمع، ومطالبة الوالدين بالتغاضي عن النشاط الجنسي للمراهقين عن غير طريق الزواج، واعتبار ذلك من الشؤون الشخصية أو من الحرية الشخصية؛ التي لا يحق لأحد أن يتدخل فيها.. ولكنهم قفزوا فوق الكثير من الضوابط والقيم الدينية الأخرى أيضًا، ليقرروا بأن مفهوم الأسرة بالمعنى الذي يشرعه الدين ليس إلا مفهومًا عقيمًا، وقيدًا على الحرية الشخصية، لأنه لا يتقبل العلاقات الجنسية الحرة بين مختلف الأعمار، ويشترط أن تكون بين ذكر وأنثى فقط، وضمن الإطار الشرعي، ولأنه لا يمنح الشواذ حقهم في تكوين أسر بينهم، ويتمسك بالأدوار النمطية للأبوة والأمومة والعلاقات الزوجية ضمن الأسرة، معتبرين أن ذلك مجرد أدوار وأشكال لا تخرج عن كونها مما اعتاد الناس ودرجوا عليه وألفوه، حتى دخل في طور التقاليد المتوارثة..

لذلك حاولوا الترويج والإقرار لأنماط أسرية بديلة، دون أدنى اعتبار للنواحي الشرعية والقانونية والأخلاقية، مثل زواج الجنس الواحد، والمعاشرة بدون زواج، وإعطاء الجميع حقوقًا متساوية، ووضع سياسات وقوانين تقدم دعمًا تأخذ في الاعتبار تعددية أشكال الأسر، إضافة إلى الدعوة إلى تحديد النسل باسم (تنظيم) النسل، وتشجيع موانع الحمل، وتيسير سبل الإجهاض.[ا.هـ[١]

سادسًا: القنوات الفضائية:

تقدم القنوات الفضائيات نماذج مبتذلة للمرأة في أفلام للجنس والإثارة، فضلاً عما تقدمه من مواد إعلامية تفرض سلوكيات وعادات اجتماعية مخالفة لعقيدتنا الإسلامية، ولا تعبر عن واقعنا الاجتماعي والأخلاقي، بل تعالج مشاكل وقضايا المرأة المسلمة وخاصة فيما يتعلق بنظام الأسرة والعلاقة الزوجية من زواج وطلاق وعمل المرأة بأسلوب يختلف تماما عن ثقافتنا وشريعتنا الإسلامية.[٢]

وخلاصة القول:

لابد من وقفة مع بند (المؤتمرات).. نشير فيها إلى أهم الملامح والأهداف التي تسعى لتحقيقها هذه المؤتمرات جميعًا..

ولعل **الملمح الأول** هو تحوّل انعقادها إلى عواصم بلاد المسلمين، في القاهرة، واسطنبول، وطرحها الكثير من المفاهيم التي كانت تبدو مستغربة ومنكرة، إلا أن **هذه المؤتمرات تمارس شيئًا فشيئًا عملية (التطبيع) والقبول لمفاهيمها وطروحاتها..** ذلك أن مجرد الطرح في المرحلة الأولى، يعتبر مكسبًا ثقافيًّا، على الرغم من الادعاء بأنه غير

---

[١] المرأة المسلمة والمكائد الغربية: صالح الرقب – كتاب الأمة الثالث والخمسون "وثيقة مؤتمر السكان والتنمية رؤية شرعية": الحسيني سليمان جاد/تقديم بقلم: عمر عبيد حسنة (باختصار وتصرف).

[٢] المرأة المسلمة والمكائد الغربية: صالح الرقب

ملزم للدول المشاركة، بهدف تمريره، ورصد ردود الفعل، ومِن ثَمَّ دراسة ردود الفعل هذه بدقة، ورسم طريقة للتعامل معها، للانتقال إلى المرحلة التالية..

وهكذا يتقدم الشر تدريجيًّا، ويحتل كل يوم موقعًا في الذهنية الإسلامية المستهدفة ويُرَوج له من قِبَل المسكونين بالحضارة والثقافة الغربية في العالم الإسلامي.

ولعل أهم قضايا وثيقة مؤتمر السكان هي: **الربط بين زيادة السكان وبين الفقر واستحالة التنمية، وأن الحد من النمو السكاني هو الطريق الأمثل للتنمية وتحقيق الرفاه الاجتماعي، والقضاء على الفقر.** لذلك ترى أن السبيل إلى ذلك يتركز في:

(١) إباحة الإجهاض بجعله قانونيًّا معتمدًا.. وقد حاول واضعو الوثيقة استخدام تعابير متعددة لإباحة الإجهاض، مثل: الحمل غير المرغوب فيه.. إنهاء الحمل وتخفيف عواقب الإجهاض.. الإجهاض غير المأمون.

(٢) تقديم المعلومات والثقافة الجنسية للمراهقين، وإباحة الممارسات الجنسية، وحقهم في سرية هذه الأمور، وعدم انتهاكها من قِبَل الأسرة.

(٣) التشجيع على الممارسات التي تقع خارج نطاق العلاقات الشرعية.

(٤) إلغاء القوانين التي تحد من ممارسة الأفراد لنشاطهم الجنسي، واعتبار ممارسة الجنس والإنجاب حرية شخصية وليست مسؤولية جماعية.[١]

فيا عباد الله..

هذه المؤامرات لم تتوقف ولن تتوقف؛ فأعداؤنا لهم باعٌ طويلٌ في المكر السيء، وأحوال المسلمين تغري كل طامع.. وهي في النهاية صورة من سنن التدافع الحضاري، التي لابد من إدراكها، ومعرفة كيفية التعامل معها، والتي أخبر الله عنها

---

[١] كتاب الأمة الثالث والخمسون "وثيقة مؤتمر السكان والتنمية رؤية شرعية": الحسيني سليمان جاد/تقديم بقلم: عمر عبيد حسنة.

بقوله: **(وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا)** [الحج: ٤٠]

فالاستمرار في التدافع مؤكد بقوله تعالى: **(وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا)** [البقرة: ٢١٧]، والصمود وإفشال المؤامرات مؤكد أيضًا بقوله تعالى: **(لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى)** [آل عمران:١١١]، لكن ذلك النصر والحصانة، لا تتحقق إلا بعزيمة البشر في التعامل مع السنن الجارية، وليس بالتطلع إلى الأمور الخارقة.. فالجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة، كما أخبر بذلك الرسول صلى الله عليه وسلم، بساحاته وأسلحته المتعددة؛ لأن العدوان على الأمة وقيمها مستمر إلى يوم القيامة أيضًا.[١]

يا أمَّةً هبطَ الزمانُ بمجدِها * ذُلًّا وكانت في المقامِ الأعظمِ**
لا عـزَّ إلا بالكتابِ يقودُنـا * أكـرِمْ بأحسنِ قائـدٍ ومُعَلِّـمِ**

[١] المصدر السابق (بتصرف).

(٦) نشر (التغريب) بواسطة الثقافة والإعلام

سيطرة اليهود على وسائل الإعلام:

قبل أن نذكر (البلاء) الذي حلَّ بأمتنا، ونكشف مَنْ يستخفي وراءه، ويضاعف طنينه، ويحمي أصحابه؛ نُلقي نظرة عَجلى على أحوال الأمة قبل أن تتعرض للغزو الثقافي والعسكري بشقَّيْه الشيوعي والصليبي..

إن المسلمين من بضعة قرون (ينحدرون) ثقافيًّا وسياسيًّا، وقد طلع عليهم العصر الأخير وهم جمهور العالَم المتخلِّف حضاريًّا واقتصاديًّا..

ولو أن أي غيور قال للمسلمين: إنَّ جهلكم بشؤون الدنيا شديد، وإنكم بهذا الجهل خذلتم كتاب ربكم وسنة نبيكم، وعصيتم تعاليم الإسلام التي تنتمون إليه.. لقلنا له: صدقت.

ولو أنه قال للمسلمين: إن التقاليد الاجتماعية السائدة بينكم تنبو عن تعاليم الإسلام، وتجافي الحلال والحرام.. لقلنا له: صدقت.

ولو قال: إن الإسلام الحق وهب للعرب حياة بدل الموت، ونورًا بدل الظلمة، وإنهم لما تَنَكَّروا له فقدوا أسباب مجدهم، وتكسَّرت الأجنحة التي بها يصعدون.. لقلنا له: صدقت.

والحق أن الإسلام لحقت به خسائر جمة عندما ارتفعت راية القومية؛ عربية كانت أو غير عربية، وعندما ارتفعت راية الاشتراكية؛ شيوعية أو غير شيوعية، ثم **جاءت (العلمانية) أخيرًا فكانت ثالثة الأثافي..**

ففى ظلها هان الإيمان، وسقطت قيم خطيرة، كما أن فى ظلها هبط الأدب العربى، وانتصرت الكلمات الأعجمية، ولوحظ فى المسرح والإذاعة والجامعة والصحف أن الأمة تنحدر إلى هاوية ليس لها قرار..

والصحافة التي تعمل لحساب العلمانية تعتبر من أهم وسائل الإعلام لدى حركة التغريب؛ باعتبارها أكثر الوسائل الإعلامية شيوعًا وأبعدها تأثيرًا، سواء كانت محلية أو مستوردة.. وهي تتبع أسلوب المديح والتمجيد لأوروبا وللحياة الأدبية، بحيث تدفع كل قارئ لأن تكون أحلى أمانيه أن يؤم أوروبا، وأن يعيش في جوها، وأن يستمتع بحياة الرفاهية والترف.. وإن أوروبا اليوم قد أصبحت -في أقلام الصحفيين- مدينة الأحلام لما يسودها من حرية بعيدة المدى شاسعة الآفاق؛ حرية بالرأي وحرية بالقلم وحرية بالقول، وتمرد على القيم التي كانت تربطها بالكنيسة، وتمرد على تقاليد الكنيسة..

وقد تقدمت أوروبا تقدمًا سريع الخطى في الجوانب الاقتصادية والمالية والاجتماعية والتعليمية، وما هذا إلا لسر دفين هو **فصل الدين عن الدولة**، وإخضاع إدارة الحياة الداخلية والخارجية، السياسية والأمنية لهيئة **(علمانية) بعيدة كل البعد عن الدين**.. **وتوحي هذه الكتابات بأن كل مجتمع يريد أن يصل إلى ذروة التقدم وسنام النهضة عليه أن يخلع عن عنقه كل دين، وكل قيمة تربطه بالدين، فما المثل وما المبادئ إلا كلمات قديمة تسم أصحابها بسمة الجمود والرجعية والتحجر.**

يقول المستشرق الإنجليزي "جب": "إن الصحافة هي أقوى الأدوات الأوروبية وأعظمها نفوذًا في العالم الإسلامي."... ويرى "جب" أن [مديري الصحف اليومية ينتمون إلى ما يُطلق عليه اسم (التقدميين)؛ ولذلك فإن هذه الصحف واقعة تحت تأثير آراء الغرب والأساليب الغربية بما تشتمل عليه من مقالات (مترجمة)، ومن كتابات تشرح الحركات السياسية والاقتصادية في أوروبا.]ا.هـ

وهكذا أصبحت الصحافة في معظم البلاد الإسلامية صوتًا ناطقًا لدعوات التغريب، وصورة مزركشة ملونة بأحلى الألوان لعالم عاجي مُذَهَّب يُدعى (أوروبا).

ومما جاء في (بروتوكولات صهيون): [**ينبغي أن نتمكن من السيطرة على الصحافة، ووكالات الأنباء، وشركات النشر والإعلان والتوزيع، والمطبعة وأدواتها، والكُتَّاب والمفكرين؛ حتى لا تفلت من بين أصابعنا وسيلة من وسائل القوة المحركة للرأي العام**.. كل ذلك تحت ستار حماية الأمن العام والصالح العام. كما تدعو الضرورة (لتشديد) الرقابة على وكالات الأنباء العالمية؛ حتى تَحُول دون نشر الأخبار الضارة بالصالح اليهودي.]ا.هـ

وفي موضع آخر من (بروتوكولات صهيون): [تستلزم المصلحة العليا تحويل **الصحفيين والكتاب والمفكرين إلى مأجورين من المرتزقة**، وتوزيع الموضوعات التي يحق لهم التعرض لها والحدود التي يلتزمون بها، وتحويل أنظار الشعب عما يلحون في طلبه وذلك بشغله بموضوعات أخرى غير مجدية؛ فلا ينبغي مناقشة الموضوعات السياسية العليا.. ويُستبدل بها مناقشة شئون الخبز والتموين والتجارة والصناعة والرياضة.. وبذلك يخلو لشعب الله المختار بحث الشئون السياسية.]ا.هـ

وعلى هذا فإن للصهيونية مخططًا إعلاميًّا خاصًّا بها، بعيد الهدف شديد الأثر.. هذا المخطط يسعى جاهدًا لشراء ضمائر مديري الصحافة والعاملين فيها، فيستأجر أقلامهم، ويسخر عقولهم، ويستعبد قلوبهم؛ فيكتب هؤلاء ما يحقق مصلحة اليهود، وينطقون بما يخدم رغبات الصهيونية، وينشرون ما ينفذ مطامع بني صهيون..

ومن أعجب ما يخضع له الناس من أوهام، مما روجه اليهود، تسمية الصحافة "صاحبة الجلالة". وإحاطتها بهالة من القداسة تسمح لأي مدسوس على قومه، أو فاسق مريض القلب واللسان، أن يلفق من الأضاليل ما يريد وما يراد له، وأن يدسها على عقول السذج من الأحداث والأغرار، والحمقى من ضعاف العقول، باسم العلم والثقافة والحرية والتمدن، **ما دام قادرًا على تأثيث دار للصحافة بماله أو بمال غيره. وسيطرة التنظيمات اليهودية على الصحافة العالمية وعلى وسائل النشر ووكالات**

الأنباء مشهورة معروفة. فرواج هذا الوهم بين الناس باسم (حرية الرأي) هو أكبر ما يُمَكِّن للدعاية اليهودية ويَدعم سلطانها، حتى يصبح سوطًا يُلهب ظهر كل حر، ومِقراضًا يقطع عِرض كل ذي خلق أو دين، ويجعله سخرية الساخرين وأضحوكة اللاهين؛ في الوقت الذي يُمَكِّن فيه للمفسدين والفارغين من الظهور، حتى يصبحوا ملء العيون والآذان، فلا يرى الناس إلا صورهم ولا يسمعون إلا أصواتهم، ولا يصبحون ويمسون إلا في أخبارهم وأقوالهم.

ويعتمد الصهاينة اعتمادًا كبيرًا على وسائل الإعلام، ويرون في الدعاية الصاخبة المدوية مفاعلًا أبلغ تأثيرًا وأقوى نفاذًا.. يقول "هرتزل" في مذكراته: **"الضجة هي كل شيء، والحق أن الضجيج يؤدي إلى الأعمال الكبيرة"..** وذلك لأنها تستلفت الأنظار، وتعبئ الأنصار، وتضعف الأعداء، وتنقل المعركة إلى جوٍّ عالميٍّ تتوفر لها فيه مزايا ماضية حاسمة. [١]

اتساع نطاق (الهجوم) على الشريعة:

(العلمانية) في التعليم أقدم وأخطر، و(العلمانية) في الإعلام أعمّ وأشمل؛ ومن هنا تكمن خطورتها.. إن التعليم قد يخاطب الآلاف بمناهجه، لكن **الإعلام يخاطب الملايين ببرامجه، وأكثر هذه الملايين ساذجة تؤثر فيها الكلمة؛ مقروءة أو مسموعةً أو منظورةً..** فإن كانت طيبةً كانت كشجرة طيبةٍ؛ أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أُكُلها كل حين بإذن ربها.. وإن كانت خبيثةً كانت شجرة خبيثة؛ اجتُثت من فوق الأرض، مالها من قرار.

---

[١] أضواء على الثقافة الاسلامية: د. نادية شريف العمري – الغزو الثقافي يمتد في فراغنا: الشيخ/ محمد الغزالي – حصوننا مهددة من داخلها: د. محمد محمد حسين – أساليب الغزو الفكري: د. علي جريشة.

من هنا كان اهتمام الإسلام بالكلمة وأمانتها؛ فإما أن ترتفع بالمؤمن إلى معية سيد الشهداء، وإما أن تهوي بقائلها في النار سبعين خريفًا.

وفي العصر الحديث أصبح للإعلام شأنه؛ ولاسيَّما بعد الاكتشافات المهمة للطباعة، وما لحق بها من ظهور الصحافة، ثم اختراع الإذاعة، ثم الشاشة وقدرتها على توجيه الرأي العام. وقد كانت الصحافة الفكرية مخصصة لنخبة المجتمع، وقد لعبت الصحافة التغريبية دورًا خطيرًا في نشر التغريب، ولاسيَّما أن انطلاقة مشروع الصحافة كان مع النصارى ولاسيَّما الجيل المتغرب منهم، فبثّوا التغريب والعلمنة وأمراض كثيرة في وقت لم يكن لهم فيه منافس، مع حماية حصلوا عليها من بعض الولاة ومن الاستعمار فيما بعد.

وقد (استحوذت) الصحافة على (النُّخَب) المثقفة كونها بلا منافس آنذاك، وقد استولى على أغلبها من لا صلة لهم بالأمة إلا صلة (العداوة)..

يقول فضيلة الشيخ/ محمد الغزالي: [إن مدارسنا الفكرية ـ نحن المسلمين ـ تركت تراثًا يسحر أولي الألباب بروعته وغناه وذكائه وسنائه.. **ولكن هؤلاء[1] مربوطون بالغزو الثقافي الذي اتّسَخَتْ به أذهان كثيرة، وتخدمه الآن أقلام جريئة؛** فهل تبقى هذي الفوضى طويلاً ؟

أليس عجيبًا أن يقول (كاتب): إن قطع يد السارق كقتل الطفلة الموءودة جريمة تثار يوم الحساب. وإذا المبتورة سئلت بأي شرع قُطِعَتْ؟ هكذا يتساءل مفكر القرن العشرين وهو يزعم أن القطع لا يراه الإسلام.

هذا هو الاجتهاد الإسلامي في أحدث صوره! فما يكون الاجتهاد غير الإسلامي؟ **وهل تطلب القوى المعادية للإسلام أفضل من هذا في خلع المسلمين من دينهم، باسم دينهم نفسه؟؟** ترى أتبقى هذه الفوضى العلمية تعصف حول

[1] الكُتَّاب الذين يهاجمون (الشريعة) باسم (الحرية) و(التطور).

الإسلام وحده؟ ولحساب من؟

قبيل الانتخابات التي تمت في مصر أخيرًا، وخاضتها جماعة الإخوان المسلمين مع حزب الوفد الجديد[١]؛ أحسسنا حملة شعواء على الشريعة الإسلامية تتسم بالحقد والإفك، وتشارك فيها أقلام وألسنة وأجهزة جنَّدها الغزو الثقافي المنتمي إلى الغرب والشرق على سواء..

كان (تحقير) شرائع الحدود والقصاص شيئًا بارزًا في هذه الحملة. وانتهى ما كان يصحب ذلك قديمًا من وجل أو مواربة أو حياء ! لا شيء هنالك يُخاف أو يُحسب حسابه..

كان هناك كُتَّاب يريدون إفراغ الإسلام من محتواه، وجعله عنوانًا بلا حقائق. ومهمة هؤلاء إثبات أن الدين لا علاقة له بأنواع التشريع. ويوصف هؤلاء بأنهم (مفكرون) !!

وكان هناك كُتَّاب يريدون القول بأن مصر نفضت يديها من الشريعة الإسلامية من عشرات السنين، ومضت في نهضتها على أساس علماني بحت، فكيف يفكر (البعض) في إعادتها إلى الإسلام أو إعادة الإسلام إليها ؟

ونشرت مجلة "المصور" صورة شخص طاعن فى السن سمَّته "شيخ المحامين" يؤكد هذه الفِرية، ويشن غارة مسعورة على الشريعة الإسلامية..

ولقد لفت نظري في (الهجوم) الجديد على الشريعة اتساع نطاقه، وقلة حيائه، وإسهام شيوعيين وصليبيين فيه على نحوٍ فاجر.

هذا كاتب غاظه أن الطائرات المصرية امتنعت عن تقديم الخمر لبعض الركاب الذين يشربون الخمر، فكتب يقول: "هل نعلمهم الفضيلة ؟ هل نلقنهم مبادئ الشرف ونجرعهم مكارم الأخلاق ؟ وكيف نقنع الركاب الخواجات وهم لم يقتنعوا بعد

[١] انتخابات مجلس الشعب المصري لسنة ١٩٨٤م.

بفوائد العرقسوس والتمر هندي ؟ ليس من المعقول ولا من المقبول أن نقع فريسة لبعض تجار الوعظ.."!!

وهكذا يطلب شخص قليل الأدب ضائع الدين أن تُقدَّم الخمر للناس، وعفاء على الإسلام وتعاليمه !!

لقد أحسست خلال شهرين من اشتداد هذه الحملة أن السُّكر شيء لا نكر فيه، وأن الفسوق أمر عادي، وأن اللصوصية لا توضع داخل قفص الاتهام، وإنما الذي يوضع داخل القفص هو النص الذي يقطعها، وأن... وأن...

ونظرت إلى أمتنا التعيسة وهي مثقلة بأزماتها وإلى هؤلاء (المرتزقة) من حَمَلَة أقلام السوء، وتذكرت قوله تعالى: **(وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ)** [محمد:٨-٩].

وعدت إلى مقال الكاتب "السعدني" الناقم على تحريم الخمر فإذا هو يقول: "وعاظ المناسبات يسكتون على ما يغضب الله، ويدعون إلى جلد شاب في عمر الربيع يحب فتاة رقيقة كالعصفور، شاحبة كضوء الفجر"..!

والجَلْد عقوبة الزناة كما يعرف أولو الألباب، وظاهر أن الكاتب (المخمور) يريد باسم الحب إشاعة الزنا، وتحويل المجتمعات إلى حدائق حيوانات.

لقد عاصرتُ حملات كثيرة على الإسلام، بيد أن الحملة التي وقعت أخيرًا تميزت بمقدار أكبر من الصفاقة والجراءة على الله ورسوله..]ا.هـ

وقد تم تجييش (كتائب) من الإعلاميين الذين باعوا أنفسهم للشيطان، ولا يزالون يعملون ببراعة لتنفيذ (الغاية) التي حددها (القس) "زويمر" بقوله: **"إن (الغاية) التي نرمي إليها هي (إخراج) المسلم من الإسلام فقط؛ ليكون إما (ملحدًا) أو (مضطربًا) في دينه، وعندها لا يكون مسلمًا، أي لا يكون له عقيدة بدين."**ا.هـ

وقوله: "يجب أن يكون تبشير المسلمين بوساطة (رسول) من بين (صفوفهم)؛

لأن الشجرة يجب أن يقطعها أحد أعضائها."ا.هـ

فلا تعجب من مكر الليل والنهار؛ **الذي يشن على الإسلام (حربًا) بلا هوادة، بينما يطالع المسلمون وقائع (المعارك) على مدار الساعة في كل وسائل الإعلام..**

يقول أبو حامد الغزالي في كتابه "الإحياء": "فالداعي إلى محض التقليد مع عزل العقل بالكلية جاهل، **والمكتفى بمجرد العقل عن أنوار القرآن والسنة مغرور**".

ونقف طويلاً عند الجملة الأخيرة من كلام "أبي حامد" رضي الله عنه؛ فبين المثقفين من العرب نفر من حَمَلَة الأقلام تعجب لمواقفهم وما يَحُفها من تناقض.. تسمعهم يدعون للديمقراطية فتقول: نزعة إنسانية مقدورة؛ ما الديمقراطية ؟ أن يحكم الشعب نفسه بنفسه. حسنًا.. نحن نريد ذلك. تفاجأ بأنه إذا كان الشعب مسلمًا، ويريد أن يحتكم إلى شرائع الله اختفت الديمقراطية المنشودة، وقيل للمسلمين: أنتم رجعيون تستحقون المطاردة..!

وهؤلاء **محررون علمانيون يتغامزون على الدين وأهله**. ولا بأس عندهم بهذا السلوك مادام يقوم على النيل من علماء الدين المسلمين..! أما **إذا كانت القضية لكاهن من اليهود أو النصارى، فإن الشيوعي يتأدب، والهازل يجدّ، والعلماني يصطنع الرقة والاحتشام، ويجيد عبارات الإطراء والزلفى !**

وهناك محررون كانوا بين يدي "السادات" ورجليه في رحلته الشهيرة إلى القدس، وفي سعيه الحثيث لإرضاء (الكيان الصهيوني)..! هؤلاء إذا أريتهم الوجه الإسلامي لفلسطين هاجوا وماجوا، وأرغوا وأزبدوا، واتهموك بالتخلف..

وعدد كبير من حَمَلَة الأقلام صناعة أوربية رديئة؛ قد تكون شرقية أو غربية، ولكن موقفها الثابت الضِّيق بالإسلام ورجاله، وآماله وآلامه. ويلاحظ أن جراءتها

على الله ورسوله فحشت في الأيام الأخيرة، يعينها على ذلك جبن الشيوخ المحترفين، وهوس الشباب المندفعين. [١]

إشاعة الفاحشة وتزيين الانحلال والتهوين من أمره:

تتفاوت درجات الفساد في وسائل الإعلام تبعًا لهذه الوسائل؛ فهي في السينما أشد، يليها التلفاز والإذاعة والصحافة. كذلك تتفاوت درجات الفساد بين أقطار الإسلام المختلفة.

ونستطيع باطمئنان أن نقرر أن **وسائل الإعلام المختلفة من صحافةٍ، وإذاعةٍ، وتلفاز، وسينما، ومسرح.. مُسَخَّرة اليوم لإشاعة الفاحشة، والإغراء بالجريمة، والسعي بالفساد في الأرض؛ بما يترتب على ذلك من خلخلة للعقيدة، وتحطيمٍ للأخلاق والقيم والمثل.. و(العقيدة والأخلاق) أساس لبناء الإسلام؛ فإذا انهدم الأساس فيكف يقوم البناء؟**

وليعلم الناس ما تفعله الصحافة في بلاد المسلمين نختار أربعة أمثلة من تواريخ مختلفة:

(١) مقال نشر بجريدة "السياسة" الأسبوعية بالقاهرة سنة ١٩٢٦م، ذكر فيه كاتب المقال أن بعض الفتيات التركيات يشبهن فتيات أوربا، وقد تلقى بعضهن العلم في الكلية الأميريكية بالقسطنطينية، وذكرت واحدة منهن: "أن المرأة التركية اليوم حرة، فلن تسير في الطرقات في ظلام، وأننا نعيش اليوم مثل نسائكم الإنجليزيات؛ نلبس أحدث الأزياء الأوروبية والأمريكية، ونرقص، وندخن، ونسافر، وننتقل بغير أزواجنا".. ويعلق كاتب الجريدة: **ولا يسع كل محبٍّ لتركيا إلا أن يغبطها على هذه**

---

[١] أساليب الغزو الفكري: د. علي جريشة – الغزو الثقافي يمتد في فراغنا: الشيخ/ محمد الغزالي – النظريات العلمية الحديثة مسيرتها الفكرية وأسلوب الفكر التغريبي العربي في التعامل معها:حسن بن محمد حسن الأسمري.

الخطوات.

(٢) في سنة (١٣٨٦هـ-١٩٦٦م)، استضافت أسرة تحرير جريدة "الأهرام" المصرية فيلسوف الوجودية "سارتر" وعشيقته التي تعيش معه في الحرام "سيمون دي بوفوار" ويُجهر بهذا الفجور والفساد، ويُدعى الرجال ويُدعى النساء؛ ليروا هذه (القدوة) القبيحة السيئة، وليسمعوا عنها السم الزعاف.

(٣) ويبلغ الفجور في السبعينات أقصى مداه؛ حين تنشر جريدة "الأهرام" عن ضبط بيوتٍ للدعارة، فيها نساء من بيوتاتٍ لم يكن يُسمع عنها من قبل سوء.. وتنشر عن ضبط تلميذاتٍ صغيراتٍ في هذه البيوت، ثم تهوّن هذه الجريمة الفظيعة تحت عناوين مثيرة: "تلميذة في شقة مفروشة".. "افتحوا أبواب الاختلاط في كل مراحل التعليم" و"أطلقوا الحرية للشباب تحت رقابة الأسرة والمدرسة".. و"لا تهمنا البنت التي تنحرف من أجل فستان".. [جريدة الأهرام: ١٣/٣/١٩٧٦م]

(٤) في أحد أعداد مجلة "النهضة" الكويتية سنة ١٩٧٦م، تحقيق صحفي في سبع صفحات كبيرة مطرزة بصور مثيرة لفتيات شبه عاريات، وتحت عناوين بارزة كُتب بالخط العريض: حصاد المعاكسات في أسواق الكويت: مغازلات.. معاكسات.. همسات.. نظرات.. إشارات.. أرقام تليفونات.. سألت إحدى الصحفيات بعض فتيات الكويت اللائي أدلين بأسمائهن كاملة، وقصصن ما يحدث لهن من تحرشاتٍ بأسلوب مكشوف، حتى أن أحداهن "..." لم تستحِ أن تصرح أن بائع الأحذية في كل مرة يقيس لها حذاء أو يخلعه يتحسس ساقيها، كما أن بائع الملابس يمسك خصرها بكلتا يديه.. وتحكي أخرى "..." أن الملابس تكشف كل شيء لأنها (شفافة) وخاصةً عند طلوع الدرج داخل المحل؛ لأن الأضواء توضع على الدرج، فتكشف كل شيء في جسمها.. هذا بالإضافة إلى زجاجة العطر التي سكبتها على صدرها، إلى جانب المكياج الصارخ الذي تزين به وجهها، ولا أدري لماذا تحرص على

مداراته بطرف العباءة (الشفافة) بعد كل هذه الزينة التي وضعتها عليه؟

ولا ندري ماذا يستفيده القارئ المسلم من مثل هذه التحقيقات إلا تزيين الانحلال، والتهوين من أمره، وتعليم من لم يتعلم.

وخطورة هذه الصحف لا ترجع إلى ما كانت تذيعه من آراء فحسب، ولكن أهميتها الكبرى ترجع إلى أنها كانت مركزًا لتنشئة الجيل التالي من الصحفيين على هذه المبادئ العلمانية، وهو الجيل الذي ربى بدوره جيلًا آخر، جاءت وتجيء من بعده أجيال على شاكلته، **فلم نبلغ منتصف القرن العشرين، حتى كانت الصحافة كُلها في أيدي العلمانيين.**

لم تكن الصحافة وحدها هي التي تعمل، وإن كانت من أهم الأدوات.. إنما القصة والمسرحية والسينما والإذاعة.. كلها أدوات.

فأما (القصة والمسرحية) فقد بدأتا – كما كان متوقعًا – بالترجمة، وانتهتا بالتأليف.

وأما (السينما) فقد ظلت (أجنبية) فترة غير قصيرة من الوقت، حتى قام ناس فقالوا: إن من العار علينا ألا تكون لنا سينما وأفلام (وطنية)، أي متكلمة باللغة العربية (العامية)، فقامت الجهود، وتكاتفت حتى برزت تلك الأفلام إلى الوجود.

وأما (الإذاعة) فقد جاءت متأخرة نوعًا ما، ولكنها سرعان ما لحقت الركب وشاركت في الموكب (الكبير).

لقد تكاتفت الأدوات كلها للوصول في النهاية إلى هدف واحد.. صرف هذه الأمة عن دينها وأخلاقها وتقاليدها، وإنشاء مجتمع (جديد) لا يحفل شيئًا بالقيم الدينية؛ لا يجعلها نصب عينيه، ولا يستمد منها منهج حياته، ولا يلجأ إليها في تكوين أفكاره ولا اهتماماته ولا عاداته ولا أنماط سلوكه.. لا بل إنْ ذَكَرَها – في أي وقت – فهو ذِكر السخرية والاستهزاء والاستخفاف.

ولا نحتاج هنا أن نتحدث عن هذه الوسائل (خاصة بعد أن أضيف إليها التلفاز والفيديو) وعن آثارها المدمرة في حياة الأمة؛ فهذا واقع مشهود، يشهده الناس كل يوم وكل لحظة، ويرون بأعينهم آثاره في أولادهم وبناتهم، ويرون بأعينهم كيف (يعجزون) عن صد آثاره المُتلِفة، ووقاية أولادهم وبناتهم من تلك الآثار.

إنما نذكر فقط **(نماذج) سريعة قد تعين في تصور (التخطيط) الذي يكمن وراء التنفيذ.**

*كتبت "روز اليوسف" في مذكراتها – وكانت تعمل بالتمثيل على المسرح قبل اشتغالها بالصحافة وإصدار مجلتها التي تحمل اسمها –؛كتبت تقول: إنها طلبت إعانة لمسرحها من الحكومة، وكانت مصر إذ ذاك خاضعة للنفوذ البريطاني المباشر، فنصحها المندوب السامي البريطاني (وهو الحاكم الحقيقي في مصر في ذلك الحين) أن تذهب إلى الريف، وتعرض مسرحيتها هناك.. فإن فعلت ذلك نالت الإعانة في الحال..!

والهدف واضح.. فالريف المصري في ذلك الوقت (مسلم) في عمومه، محافظ على (بقايا) من الدين والأخلاق، ومحافظ بشدة على (التقاليد) المستمدة من الإسلام (بصرف النظر عما غشاها في بعض الجوانب من الانحرافات).. ومن أشد ما يحافظ عليه الريف من التقاليد – وفي الصعيد خاصة – قضية (الحجاب)، وقضية (العفة)، وقضية (العِرض).. **وقضية صيانة المرأة بصفة عامة من التبذل والانحلال والانفلات.**

وبقاء الريف على هذه الصورة (عقبة) ولا شك أمام المخططين، فالريف هو معظم مصر. ولن يؤتي المخطط ثماره كاملة إن فسدت العاصمة وحدها، وبقي الريف سليمًا حتى ولو في محيط التقاليد .. فإن هذا يطيل الأمر على المخططين، ويستنفذ من وقتهم وجهدهم شيئًا غير قليل (لم تكن الإذاعة قد أنشئت بعد، ولا التلفاز بطبيعة الحال).. فمن هنا يوجه المندوب السامي البريطاني "روز اليوسف"

-وهو أعلم بحقيقتها وحقيقة دورها- أن تذهب إلى الريف، لعل مسرحها ومسرحياتها أن تزحزحه قليلاً عن تقاليده الصامدة، فيأخذ في حالة (الذوبان)؛ فتنفرج الأمور..

* "نجيب الريحاني" ممثل فكاهي موهوب، وصاحب (مدرسة) في التمثيل كما يقول نُقاد المسرح. ولكنه **(صليبي) لا ينسى صليبيته، وإن غلفها (بالفن).. بل هي عن طريق (الفن) تبلغ مداها الخبيث دون أن يحس الناس بالأمر؛ لأنهم مشدودون إلى البراعة الفنية المؤثرة؛ فيتلقون التأثير (الخفي) وهم في نشوة الإعجاب، فينساقون وراء التأثير.**

له فيلم سينمائي يسخر فيه من (مدرس) اللغة العربية ومن (اللغة العربية) سخرية ماكرة -مقصودة بلا شك-؛ فيصور مدرس اللغة العربية بائسًا مسكينًا، تبعث كل مواقفه على السخرية به، ولا يستدعي الاحترام عند أحد، ويجعل فتاة مائعة تحاول أن تقرأ نصًّا عربيًّا في درس المطالعة فتخطئ أخطاء مضحكة -يضحك لها الجمهور الغافل-، ولكنها تُقدَّم في سياق الأحداث بالصورة التي توحي للمشاهد أن البنت معذورة.. فاللغة هكذا.. صعبة على الأفهام! لا يمكن للمتعلم أن يستوعبها مهما بذل المعلم من جهد!

* "جورجي زيدان" هو أحد مؤسسي دار الهلال (والآخر هو أخوه "إميل زيدان")، وهما من اللبنانيين المسيحيين الماورن الذين اتجهوا إلى تأسيس الصحافة في مصر.

ولكن "جورجي زيدان" يزيد على كونه صحفيًّا؛ أنه يكتب قصصًا وروايات (إسلامية)، تتناول أحداث (التاريخ الإسلامي) في ثوب فني..! وقد تناول في رواياته عدة أحداث تاريخية، وله قدر من البراعة الفنية -بالنسبة لوقته على الأقل- تجعل القارئ يتابع رواياته في شغف وتأثر.

فكيف تناول أحداث التاريخ الإسلامي..؟!

إنه ما من مرة ينسى فيصور المسلمين في موقف (إسلامي) يبعث على الإعجاب بهم، أو تقديرهم واحترامهم؛ فضلاً عن أن يبعث في المسلم الاعتزاز بأمجاد الإسلام.. فـ(المسلمون) في كتاباته إما غارقون في الطرب واللهو والجري وراء شهواتهم؛ سواء شهوة الجنس أو شهوة المُلك أو شهوة المال.. وإما واقفون مواقف جادة تثير الإعجاب؛ لأن واحدًا من (أهل الكتاب) هو الذي يشير عليهم ويخطط لهم، ويقف وراءهم يساندهم في التنفيذ..! فإن لم يكن ذلك الواحد من أهل الكتاب حاضرًا في الصورة؛ فالمسلمون في لهوهم وعبثهم، وخلافاتهم وشجاراتهم، ومؤمراتهم الهابطة.. يسلمون أنفسهم إلى الضياع..! وهذا متى؟ في أشد الأوقات التي كان المسلمون فيها ممكنين في الأرض، تدين لهم الدنيا بالطاعة والإذعان..!!

* تخصص مجموعة من القصصيين والمسرحيين والسينمائيين في موضوع معين، يتكرر بصورة مختلفة؛ خلاصته أن فتاة –جامعية في الغالب ومتعلمة بصفة عامة– لها (صديق).. يقع بينهما ما يقع؛ على درجات مختلفة من الوقوع..(!) ثم يتقدم للزواج منها فيرفضه أبواها –الريفيان في الغالب، والرجعيان التقليديان بصفة عامة– إما لأنهما يرتبان لها زواجًا معينًا بعقليتهما المتخلفة، وإما لأنهما حرصًا منهما على (التقاليد) يشعران بميل الفتاة له؛ فيرفضانه من أجل هذا السبب بعينه.. ثم تمضي القصة أو المسرحية أو الفيلم بإصرار الفتاة على موقفها، بصور مختلفة من الإصرار، أدناها رفض الخطيب الذي يقدمه لها والداها، وأشدها ترك البيت والهروب مع (الصديق).. وينتهي الأمر في كل حالة بتنفيذ ما أصرت عليه الفتاة، ورضى الوالدين، أو تسليمهما لأمر الفتاة (التقدمية) إذعانًا للأمر الواقع.. أو اقتناع الأم خاصة، ومحاولة إقناعها الأب بأنهما كانا مخطئين، وأن الفتاة على حق..!

* تخصص مجموعة من الكتاب في القول بأن المجتمع لم يكن نظيفًا من الجريمة الخلقية وقت أن كان محافظًا على التقاليد.. وأن الفاحشة كانت تقع تحت ستار الحجاب..

وذلك ردًّا على الذين كانوا يقولون: إن (السفور والاختلاط) سيؤديان حتمًا إلى التحلل الخلقي..

وكون المجتمع -أي مجتمع مهما كان محافظًا- لا يخلو من وقوع جريمة فيه؛ فهذه حقيقة.. يكفي شاهدًا لها أن الفاحشة وقعت في مجتمع رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولكنه **من التبجح الغليظ أن يقال: إنه ما دامت الفاحشة تقع هنا وتقع هناك؛ فلا فائدة في الدين، ولا فائدة في الأخلاق، ولا فائدة في التقاليد، ولا قيمة لكل التوجيهات الخلقية..!**

فهناك فارق ضخم بين مجتمع لا تقع فيه الجريمة إلا شذوذًا يُستنكَر، وتنال عقوبتها الرادعة حين تقع، ومجتمع يعج بالفاحشة حتى تصبح العفة فيه هي الشذوذ المستنكر.

كتب "إحسان عبد القدوس" في إحدى توجيهاته التي كان يبثها في مجلة "روز اليوسف": إنني أطالب كل فتاة أن تأخذ صديقها في يدها، وتذهب إلى أبيها، وتقول له: هذا صديقي..!

وكتب "أنيس منصور" في إحدى مقالاته في جريدة "أخبار اليوم": إنه زار إحدى الجامعات الألمانية، ورأى هناك الأولاد والبنات أزواجًا.. أزواجًا.. مستلقين على الحشائش في فناء الجامعة.. قال: فقلت في نفسي: متى أرى ذلك المنظر في جامعة "أسيوط"؛ لكي تراه عيون أهل الصعيد، و(تتعود) عليه..!

هذا وغيره؛ فضلاً عن آلاف بل ملايين الصور العارية.. والأغاني العارية.. والأفكار العارية.. والنكت العارية.. التي تملأ الصحف والمجلات والإذاعة والسينما والتلفاز.. وآلاف بل ملايين الأجساد العارية في كل مكان؛ في الشوارع والمكاتب ووسائل المواصلات والشواطئ العارية في فصل الصيف..

وفضلاً عن التفاهة التي تشيعها السينما والإذاعة والتلفاز في نفوس مشاهديها ومستمعيها.. التفاهة التي تجعل النفوس لا تتجه لشيء جاد.. فضلاً عن أن تتجه لله واليوم الآخر، أو للجهاد في سبيل الله.[1]

الانقلاب الوظيفي للأدب (الحداثة):

يقول د. "يوسف القرضاوي": **"أخطر ما تواجه أمة أن تصطدم الثقافة فيها بالدين، والمفروض أن تمتزج الثقافة بالدين، بل أن تكون في رحاب الدين"**.

ويقول فضيلته: "المسلم في صلته بالثقافات المتنوعة يشبه النحلة التي تأكل من كل الثمرات الطيبة، ثم تهضم ما تأكله، ثم تحوله إلى شرابٍ مختلفٍ ألوانُه فيه شفاءٌ للناس"..

ورحم الله الإمام "الشافعي" إذ يقول:

"إنما فسد العرب لما تركوا الفطرة، واتبعوا لسان أرسطوطاليس".

يقول الأستاذ أنور الجندي: كان الأستاذ "أحمد لطفي السيد" (أستاذ الجيل) هو أول من ترجم فلسفة "أرسطو" بترجمة كتاب "الأخلاق" إلى العربية عن الترجمة الفرنسية التي قام بها من اليونانية "بارتلي سلنهيار" كمنطلق لتيار جديد أراد به (التغريب) إدخال الفكر الفلسفي اليوناني إلى الأدب العربي الحديث من طريق شخصية لامعة مثل (أرسطوطاليس)، **وكانت تلك خطة خطيرة غاية الخطورة**..

ذلك أن العرب والمسلمين في العصر العباسي عندما ترجمت الفلسفة اليونانية رفضوا "أرسطو" وهاجموه، وكشفوا زيف منهجه، وأنشأوا المنهج العلمي التجريبي الذي تبناه "روجر بيكون"، وكان أول خطوات الغرب نحو التجريد بعد التبعية لعصر التأمل الذي كان سمة الفكر الإغريقي، **وهكذا نجد أن الغرب أخذ من المسلمين المنهج**

[1] أساليب الغزو الفكري: د. علي جريشة – واقعنا المعاصر: محمد قطب – الإسلام والحضارة الغربية: د. محمد محمد حسين.

التجريبي في أول عصر النهضة، ثم جاء فأعطى المسلمين منهج "أرسطو" في أول عصر النهضة العربية على يد "لطفي السيد" في مقدمة ترجمة كتاب "الأخلاق"..(!!)

والسؤال هو: هل حقًّا كان أستاذ الجيل "لطفي السيد" صادقًا فيما قال وفيما دعا إليه العرب والمسلمين؛ من اتخاذ "أرسطو" منطلقًا إلى النهضة الجديدة؛ وقد مضت كتاباته وكتابات "طه حسين" وغيره من بعده دعوة ملحة إلى هذا الطريق. أم أن الأمر كان فيه شبهة وخدعة؟!

وهل كان حقًا (أرسطو) هو منطلق الحضارة الغربية في عصر النهضة وما بعدها، أم أن أول عمل قامت به النهضة هو نقض أرسطو وتزييفه، والحملة على منهجه واعتبار منهجه هو عامل التجميد الذي عاش فيه الغرب معتقلاً قرونًا حتى جاء نور الفجر مع منهج التجريب الإسلامي الذي أطلق الطاقات إلى عصر العلم الحديث..

لقد كان علماء المسلمين انطلاقًا من القرآن هم الذين أنشأوا المنهج العلمي التجريبي الذي كان أول حجر في بناء الحضارة والعلم بشهادة:

درايبر وبريفولت وجوستاف لوبون في القديم، وسارتون وهونكه وغيرهم في العصر الحديث.. ومن أهم الكتب في هذا الشأن كتاب المستشرقة الألمانية "سيجريد هونكه" "شمس العرب تشرق على الغرب".

إذن فلم يكن "لطفي السيد" صادقًا في دعواه، ولم يكن عميد الأدب العربي "طه حسين" أمينًا حين نقل إلينا هذا المعنى؛ ذلك أن المسلمين نقدوا "أرسطو" أولاً (في القرن الرابع الهجري)، ثم جاء الأوربيون فنقدوه ورفضوه في القرن (الخامس عشر الميلادى)، واستعملوا أسلوب المسلمين في نقده، والتمسوا منهج المسلمين الذي دفعهم إلى ذروة الحضارة والعلم والتكنولوجيا الآن.

إذن فلماذا هذا التعارض؟! يُسأل عن هذا الاستشراق والاستعمار؛ ذلك بأنهم على حد تعبير الدكتور "محمود قاسم": نقلوا المسلمين إلى أرسطو، ونقلوا أنفسهم إلى منهج المسلمين (جابر وابن الهيثم والبيروني).

ذلك أن "أرسطو" هو الذي سيضع المسلمين مرة أخرى داخل القوقعة المنطقية التأملية، ويحرمهم من ثمرات منهج (التجريب) الذي أنشاه دعاة الغرب.

وهكذا نجد أن هذا المنطلق على يد "لطفي السيد" و"طه حسين" وجماعة من (أتباعهم) يتسع ويمتد حتى يقرر: أن **العرب (خضعوا) لمنهج اليونان و"أرسطو" في القديم.. ولما كان الفكر الحديث هو ثمرة فكر اليونان؛ فإن تبعية المسلمين والعرب له لا يُعد شيئًا غريبًا ولا جديدًا؛ لأنهم كانوا تابعين لليونان من قبل.. فلا عجب أن يتبعوا ما جدده أحفاد اليونان..(!!)**

لم يكن أستاذ الجيل صادقًا إذن، ولم يكن الدكتور "طه حسين" صادقًا في هذا، **فإن المسلمين لم يقبلوا "أرسطو"، ولم يعتنقوا فكر اليونان، وإنما العكس هو الصحيح.. ذلك أنهم قاوموه ونقدوه، وأبانوا عن وجوه الخلاف العميق بينه وبين منطق القرآن، وتصدى كثيرون منهم لهذا، وفي مقدمتهم "الشافعي" و"ابن حنبل" و"الغزالي" و"ابن تيمية".**

و"لطفي السيد" هو أول من ضرب وحدة الفكر العربي الإسلامي، وقسمه إلى تيارين: قومي وديني.

هذا هو النجم الساطع في سماء الأدب العربي الحديث: (أستاذ الجيل) و(أبو الليبرالية) المصرية الذي وصفه "العقاد" قائلا: "إنه بحق (أفلاطون) الأدب العربي"..(!!)

ولا نبالغ إذا قلنا: إن هذا الاتجاه الجديد كان بمثابة (الطلقة) الأولى لـ(الانقلاب الوظيفي) في الأدب.. ففي نفس اللحظة التي عُطلت فيها الوظيفة الحضارية للأدب في البلاد العربية والإسلامية، ظهرت ثلاثة اتجاهات:

(١) سياسي (الأدب الشيوعي، والقومي، والوطني..).

(٢) إباحي (أدب الزنا واللواط..).

(٣) جمالي (أدب الصمت الأيديولوجي، والاعتكاف في محراب اللغة).

وقد ظل القاسم المشترك بينها هو الجرأة على القيم الحضارية لأمتنا، لكن الاتجاه السياسي ضعف بسبب تراجع المد الشيوعي، والفكر القومي، وانتصار الأنظمة العربية على حركات المعارضة، فأخلى الساحة للاتجاهين الآخرين:

الإباحي بزعامة "نزار قباني"، والجمالي بزعامة "أدونيس"[١]. ثم إننا نلاحظ في أواخر التسعينات تراجعًا للأدب الإباحي أمام اكتساح الأدب الجمالي الأدونيسي للساحة الأدبية، وهو اكتساح يفيد بأن الأدب لن يعود له وفق هذا التصور من دور سوى تفجير اللغة ونسفها.

هذا الاتجاه الجديد في الأدب هو ما يُسمى بـ (الحداثة)، وهي ظاهرة فكرية وأدبية وشعرية ابتدعها (العلمانيون) لتكون ندًّا لكل ما هو إسلامي. والعلمانية حركة لا دينية، والحداثة منبثقة عنها، لذلك تلقفتها الأيدي اليهودية وتبنتها، واحتضنت كثيرًا من دعاتها.

ودخل الحداثيون عالمهم الجديد بـ(الثورة).. فقد كانت لهم غاية لا صلة لها بجوهر الشعر ولا بالوعي النقدي التابع له؛ إنها **دعوة إلى مقاطعة التراث، وقطع اللسان**

---

[١] ولد في عام ١٩٣٠م في "سوريا" من أبوين (نُصَيْرِيَّيْن)، وكان يُقيم في "فرنسا"، وهو من أهم الشعراء العرب (من وجهة النظر اليهودية)، وأحد كبار المبدعين المحرضين والمستفزين بالمجتمع العربي، وقد اتخذ مواقف واضحة بعد توقيع اتفاقية "أوسلو" تؤيد التطبيع مع الصهاينة.

العربي، وإعلان الحرب على الخليل في عَروض[١] لم ينشئها هو، بل كان كاشفًا عنها بأذن موسيقية بلغت شأوًا دونها معامل الصوتيات المعاصرة بآلاتها المبتكرة وعلومها المستحدثة.

إنها دعوة إلى القطيعة بين الإنسان في حضارتنا وبين انتمائه، فهم يرمون صلتنا بالتراث بل صلة شعراء (التفعيلة) بالتراث بأنها علاقة (عقائدية).. ليس هذا فحسب؛ بل إن مجرد عودة شاعر التفعيلة إلى الشعر (العمودي) في إحدى قصائده يعتبرونها جريمة لا تغتفر وعثرة لا تقال!

وبعد مرور نصف قرن من الزمان لم يظهر بين (الحداثيين العرب) أديب في قامة "المنفلوطي" أو "الرافعي"، أو روائي في قامة "علي أحمد باكثير" أو "نجيب الكيلاني"، أو شاعر مثل: "حافظ إبراهيم" أو "إبراهيم ناجي" أو "جميل صدقي الزهاوي".. بل كان (الشعر الحر) أكبر همهم ومبلغ علمهم وآخر دعواهم.

خمسون عامًا يقرضون (الشعر الحر) الخالي من الوزن والقافية، والمحشو بالغموض المذموم الذي يكتنف الفكرة سواء أكانت جزئية أم كلية؛ فإنك تقرأ ما يسمى بالقصيدة عندهم فلا تفهم معاني جملها ولا مضمون هيكلها، بل هي عبارة عن كلمات عائمة ـ رُصِفت رَصفًا غريبًا متنافرًا ـ حتى صارت رطانات وطنطنات عابثة. وسمة الإبداع عندهم أن تخلوَ (القصيدة) من أي غرض أو معنى، ويفلسفون هذا (المسخ) بأن القصيدة التي لا يضمِّنها صاحبها أي غرض أو معنى تظل تنمو وتكبر وتتعدد معانيها بتعدد قرائها..!

---

[١] "العَروض" مصطلح يدل على العلم بمعرفة أوزان الشعر الموافق لأشعار العرب، التي اشتهرت عنهم وصحت بالرواية من الطرق الموثوق بها، وبهذا العلم يعرف المستقيم والمنكسر من أشعار العرب، والصحيح من السقيم، والمعتل من السليم. وواضع هذا العلم هو "الخليل بن أحمد الفراهيدي" صاحب معجم "العين".

لذا، لجأ (الحداثيون) إلى التعابير الغامضة التي تمتلئ بها أشعارهم وكتاباتهم مثل (الممرئية)، (رؤياوية)، (التعارض الثنائي)، (اعتباطيات الإشارات)، (اللاحقيقة)، (التموضع الزمكاني).. وغيرها من الألفاظ المائعة والمخنثة.

وفي هذا يقولون: **إن (الحداثة) هي الثورة على كل شيء**، وآخر يقول: **إنها الابتعاد الصارم عن المجتمع.(!!)**

ولذلك فقد (ثاروا) على (الإسلام)، ومنحوا أنفسهم حق نزع صفة القداسة عن المقدس، ومارسوا حق تصرف الوارث في إرثه، فأخضعوا الإسلام للنقض والأخذ والرد، وأعطوا أنفسهم حق مناقشته وتأويله..!!

ولا نبالغ إذا قلنا: إنه قد **استقر في عُرف الحداثة أن الحداثي لا يكون حداثيًّا حتى يكون جريئًا على الله وعلى الإسلام.**

وهاهم ثلاثة من الشعراء الحداثيين: "محمود درويش" الفلسطيني، و"أدونيس" السوري، و"عباس بيضون" اللبناني؛ يوجهون رسالة واضحة تقول: إن المواجهة بين الثقافات، والصراع بين الحضارات يدوران حاليًّا داخل العالم العربي، وفي أعماقه بين مؤيدي (المدنية والحداثة)، وبين مؤيدي (الأصولية الإسلامية).. إنه صراع دائر فعلاً، والشعراء يدعون للتفاهم، ويطالبون بالنجدة والمساعدة، **ويصرخون قائلين: "حتى لو لم يساعدنا (الغرب) فإننا سننتصر" (أي على الإسلاميين) !!**[1]

وقد حذر كثير من العقلاء، والأدباء الشرفاء، من خطورة موجة (الحداثة) على الأدب والثقافة العربية الأصيلة، والمؤامرة التي تحاك لسحق هُويتنا الثقافية، وإفساد ذوق الجماهير، وتشويه تراثنا وحضارتنا، مما يؤدي في نهاية الأمر إلى

---

[1] تجمع في "برلين" عدد من كبار شعراء العلمانية، وهم من يُسمون بـ(الحداثيين) مع جمهرة (غربية) في إطار مهرجان سنوي تقيمه "برلين"، وقد حضره عدد من الصحفيين الإسرائيليين الذين التقوا مع ثلاثة من كبار الحداثيين، وقد نشرت صحيفة "يديعوت أحرونوت" في عددها الصادر يوم ٢٠٠٢/١١/١٥م هذا الحوار الذي دار بين مراسلها وهؤلاء الثلاثة. [حوار مع الحداثيين في الصحافة الإسرائيلية: يوسف رشاد/ مجلة البيان (١٨٥/ ٣٦)].

تحويل أفراد الأمة إلى نباتات مخلوعة من الأرض غير قادرة على النمو والازدهار..

أما التبعية للغرب فكانت ماثلة بوضوح.. ومن أشد آثار التغريب والتقليد الفج للآداب الأجنبية أنك تجد الأدب العربي الحديث يعيش بلا هُوية، وبلا تماسك، وبلا خصوصية.. وأعقب ذلك نهوض أقلام مؤثرة لنبش العفن في موروثنا الأدبي، بحجة أنه موروث، فجاء إحياء الفكر الاعتزالي، والوثني، وشعر الخمر، والمجون، والغزل الفاحش، كما أعيدت ظواهر أدبية وشخصيات مشبوهة لم تكن حاضرة في الذهن رغبة في تحولها إلى قدوة سيئة للناشئة؛ فمثلاً تجد الصعاليك، والزنادقة والشعوبيين والباطنيين، وغلاة المتصوفة، كل أولئك يترددون على ألسنة الأدباء وبشكل لم يسبق له مثيل.

ليس هذا فحسب، بل إن هذا **الأدب العربي الحديث بكل أجناسه قد ازداد تأثرًا بالمذاهب الأدبية الغربية في لهاث مسعور منذ منتصف القرن العشرين، وتحول بعضه على يد (المتغربين) إلى دعوات فاجرة وهجوم شرس على العقيدة الإسلامية وتراثها، وصار جهدًا دؤوبًا لتأصيل القيم الغربية في الفن والحياة**، ولم يقتصر التأثير على استعادة الأدوات الفنية، بل امتد إلى الخلفيات الفكرية والفلسفية التي تصدر عنها المذاهب الأدبية الغربية، وقد صدرت قصص ودواوين تحمل صورتها وتدعو إليها صراحة وضمنًا.

قد تجد أدبًا وجوديًّا وماركسيًّا، ومذاهب واتجاهات تسرح وتمرح في وسطنا، وتسهم في تلويث وعينا، يتبنَّاها أبناء المسلمين ويبشرون بها، ويسعون لتكريسها، أو على الأقل يمنحونها مشروعية الوجود، ولا يجدون غضاضة من معاشرتها، وطرد الغربة عنها.

وهكذا اختلطت الأصوات، وتوزع قسم وافر من أدبنا المعاصر وراء المذاهب الأدبية الغربية (المستوردة)، وحمل أدواتها الفنية من جهة أخرى، ففقد كثيرًا من

ملامح الشخصية العربية الإسلامية، وتحول إلى (حربة) تهاجم الإسلام والمسلمين في عقر دارهم.

ومما يزيد الطين بلة ظهور أعمال أدبية تعبث بالقيم الخلقية التي يحرص عليها الإسلام عبثًا شديدًا، وتصور العفن والهبوط والنزوات الجنسية المحرمة على أنها عواطف إنسانية رقيقة جديرة بالاهتمام، وتسوّغ التحلل والتفسخ وتسعى إلى ترسيخه في أعماق الشباب والفتيات تحت ستار الحرية الشخصية.

وقد لاقى هذا الأدب الرخيص تشجيعًا من بعض الأجهزة ومن الهيئات والمؤسسات الثقافية والإعلامية في كثير من بلادنا المغلوبة على أمرها.. كما أقبلت دور النشر على هذا الأدب المكشوف في سباق محموم، وغطى واجهات المكتبات، بل تسلل بكل ما فيه من إثارة وتهديم إلى حقائب المدارس ومخادع النوم..

وصارت هذه الأعمال بفضل التطبيع والتغريب والأمركة؛ صارت عنوانًا لـ(التنوير) و(الموديرنزم)، وشعارًا لـ(الحداثة)، وطريقًا لـ(التفكير العلمي) الصحيح، وتمشيًا مع (روح العصر) وآفاقه وأشواقه الحارة.

ومع كل ما فعله هؤلاء القوم من بني جِلدتنا، فإن إيماننا أن الثقافة العربية والإسلامية لهي أقوى من أن تشوه روعتها بعض الأتربة العابرة، أو أن يطمس نورها الذين يحاولون حجب الشمس بغربالهم الهزيل.[1]

[1] الأدب الإسلامي والتدافع الحضاري: مقال بقلم: الحسين زروق/مجلة البيان (١٧٢/ ٤٩) – من المسؤول عن تغريب الأدب وتذويب هوية الأمة الثقافية: مقال بقلم: محمد عبد الشافي القوصي/مجلة البيان (١٩٠/ ٥٤) – حوار مع الحداثيين في الصحافة الإسرائيلية: بقلم: يوسف رشاد/مجلة البيان (١٨٥/ ٣٦). (باختصار وتصرف).

قال تعالى: (ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ. إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ) [الجاثية:١٨-١٩]

أي: ثم جعلناك على نهج خاص من أمر الدين، وشرعنا لك شريعة كاملة، تدعو إلى كل خير، وتنهى عن كل شر.. (فَاتَّبِعْهَا) بغاية جهدك؛ فإن في اتباعها السعادة الأبدية والصلاح والفلاح، (وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ) أي: لا علم لهم، أو لهم علم ولكنهم يعملون عمل من ليس لهم علم أصلاً من كفار العرب وغيرهم.. وهم كل مَن خالف شريعةَ الرسول صلى الله عليه وسلم هواهُ وإرادتُه؛ فإنه من أهواء الذين لا يعلمون.

ثم علل النهى عن اتباع أهوائهم فقال: (إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً) أي: لا يتجدد لهم نوع إغناء إن تبعتهم، كما أنهم لن يقدروا لك على شيء من أذى إن خالفتهم وناصبتهم. (وَإِنَّ الظَّالِمِينَ) أي العريقين في هذا الوصف الذميم (بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ)؛ فلا ولاية بينهم وبين الحكيم أصلاً لتباعد ما بين الوصفين، فكانت أعمالهم كلها باطلة لبنائها على غير أساس؛ خلافًا لمن يظن بها غير ذلك تقيدًا بالأمور الظاهرة في هذه الدار.. (وَاللهُ) أي الذي له جميع صفات الجلال والجمال والعز والكمال (وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ) الذين همهم الأعظم الاتصاف بالحكمة باتخاذ الوقايات المنجية لهم من سخط الله، ولا ولاية بينهم وبين الظالمين. فالله يخرجهم من الظلمات إلى النور بسبب تقواهم وعملهم بطاعته. فما أبعد الفرق بين الولايتين.[١]

فيا عباد الله..

تبصروا أمرَكم.. أحيو أَرومتَكم..[٢] إلى منابتِكم يا أهلَنا عودوا

---

[١] تفسير المراغي – تفسير السعدي – تفسير البقاعي (باختصار وتصرف).

[٢] الأرومة: الأصل

إنَّ العناقيدَ تأتيها نَضارتُها مِن جِذرِها وهو في الأعماقِ مشدودُ

التمسك بالهُوية.. حرامٌ على المسلمين.. حلالٌ على الأوغاد من كل جنس!

صارت قضية الهُوية والذاتية والانتماء الديني جزءًا من ماضٍ بائد، وبات التمسك بهذه المفاهيم والتأكيد عليها لا محل ولا معنى له في عالم تسيطر عليه مفاهيم العالمية الثقافية والاندماج الدولي والتعددية الثقافية والحضارية والتقرب من (الآخَر) واحترامه.

وفي إطار هذه المفاهيم يصبح الحديث عن الهوية والذاتية (لاسيما الإسلامية) نوعًا من الأنانية والتقوقع والعزلة، بل ضربًا من التخلف المتعمَّد عن مواكبة العصر، ونوعًا من إعلان الحرب العدوانية غير المبررة على (العالم).

والواقع أن هذه الصيحات لا تُسمع إلا عندما يُرفع شعار الهُوية الإسلامية وحده، ولكن عندما تُرفع الدعوة إلى تأكيد هُويات أخرى دينية وعرقية وثقافية؛ فإننا نسمع صيحات الترحيب والتحبيذ والدفاع..! فعندما يتحدث بعضهم عن هوية مسيحية أصلية لبعض الأقليات في بلدان عربية، أو عن هوية عرقية لزنوج في بعض البلدان العربية الأفريقية.. نجد أصوات النُّخَب (العلمانية) نفسها التي تهاجم شعار الهوية الإسلامية بضراوة تدافع بالضراوة نفسها عن تلك الهُويات الأخرى؛ حتى المستندة منها إلى مزاعم دينية غير إسلامية..!

والغريب أن الهجوم في الحالة الأولى، والدفاع في الحالة الثانية يجريان وفق حجة واحدة، هي مثلاً: (مناصرة حقوق الإنسان).. **فرفع لواء الهُوية الإسلامية في البلدان ذات الغالبية المسلمة يوصف عند أهل النخبة العلمانية بأنه انتهاك لحقوق غير المسلمين وافتئات عليها، أما رفع شعار الهويات المسيحية أو البهائية أو الآشورية أو الزنجية... إلى آخره، فيوصف بأنه تحقيق وتجسيد لمبادئ حقوق**

الإنسان، حتى وإن صاحبته دعاوى انفصالية أو لجوء إلى العنف والإرهاب.

فلماذا التناقض؟!

إن سبب هذا التناقض الذي لا يكاد يلاحظه أحد في طروحات الفكر الثقافي اللاديني الراهن هو أن الرغبة الحقيقية التي تحرك هذا الفكر لا تكمن في إلغاء مفهوم الهُوية ذاته كما يزعمون الآن لصالح مفاهيم العالمية والاندماج الحضاري، وإنما تكمن في إلغاء مفهوم الهُوية الإسلامية وحده، وتأكيد سائر الهُويات والذاتيات على حساب هذه الهُوية الإسلامية، **المطلوب الحقيقي كان ولا يزال إلغاء التمسك بالهُوية الإسلامية وحدها، مع تأكيد الهُويات الدينية والثقافية الأخرى المخالفة لها ورفعها في وجهها..**

لكن الذي حدث هو أن أصحاب الدعوة (اللادينية) الآن، وفي مواجهة الصحوة الإسلامية في بلدان عدة، لا يستطيعون طرح هذا الأمر بشكل مباشر وواضح؛ لذا: فقد لجؤوا كحيلة في المحاججة إلى نفي واستبعاد مفهوم الذاتية والهُوية كله وفي حد ذاته، وذلك على المستوى الإعلامي الظاهري؛ حتى يخدعوا جمهور القراء والمتابعين من المسلمين بتصوير الأمر لهم: وكأن هذا المفهوم قد انتهت صلاحيته على الساحة الفكرية، وأن السائد أو العصري الآن هو مفاهيم العالمية وتمازج وذوبان الحضارات والتفاعل مع الآخَر... إلى آخره.

ولكن حينما يتصور المخدوعون أن قضية الهُوية قد أصبحت بالفعل من التراث الغابر يأتي أهل النخبة اللادينية ومن باب خلفي بطروحات جديدة أو متسربلة بأقنعة مختلفة، تبرر تأكيد الهُويات الدينية والثقافية غير الإسلامية، ويكتشف بعض المخدوعين أنه **في الوقت الذي تتعالى فيه الأصوات بنبذ مفاهيم الهُوية والذاتية الإسلامية وحدها، بحجة الاندماج في العالمية الثقافية والتعددية الحضارية، فإن الهُويات (اللا إسلامية) دينية كانت أم ثقافية تُطرح بشدة، وتجد (لا دينيين)**

مستميتين في الدفاع عنها، ليس تحت شعار الذاتية والهُوية وحده، ولكن (على سبيل التعمية) تحت شعارات حقوق الإنسان (التعددية والديموقراطية)، وهي الشعارات نفسها التي يجري رفض الهوية الإسلامية بالاستناد إليها.

إن الهُوية العالمية الجديدة التي يقال إنها قد نسخت كل الهُويات الخاصة (وبالتحديد الهُوية الإسلامية) ليست في الواقع سوى هُوية خاصة (غربية علمانية مسيحية) اتخذت لها قناع التمويه والتدليس لكي تُفرض على الجميع، وتبرر سحق الهُوية الإسلامية التي ينكرون عليه الاتساع والشمولية، ويحولونها إلى مجرد (هُوية خاصة) أو (ذاتية محدودة).[١]

كتب "ناثان غوتمان" في صحيفة "هآرتس" عن اجتماع في مزرعة "واي" قرب واشنطن، نظمه معهد تابع لـ "الوكالة اليهودية".. **هدف هذا الاجتماع ينحصر في البحث عن الحلول لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من الهُوية اليهودية المهدَّدة بالانقراض عام ٢٠٢٥م**، ولقد اجتمع لهذه الغاية رجال الدين والاجتماع والسياسة والمال، أذكر منهم: المحامي "ألان درشوفيتس"، "ستيوارت آيزنشتات" نائب وزير المالية الأمريكي سابقا، و"ناتان شارانسكي"[٢]، والحاخام "شموئيل سيرات"، الحاخام الأكبر لفرنسا سابقا، و"مايكل ستنهارت"، وهو من أكبر المتبرعين اليهود في الولايات المتحدة الأمريكية، و"دينس روس"[٣]، والبروفيسور "يحزقيل درور"، و"وجاك أتالي"،

---

[١] قضية الهوية.. صراع الهويات وحقيقته: بقلم: د. محمد يحيى/ مجلة البيان (١٠٣/ ٩٤)

[٢] أيقونة نضال اليهود للهجرة من الاتحاد السوفيتي في الثمانينات. ثم أصبح وزيرا متطرفا بإسرائيل. والآن داعية حقوق إنسان ومؤلف بأمريكا. ويصوغ دور جديد للوكالة اليهودية أثناء رئاسته لها التي بدأت في يونيو ٢٠٠٩م. وكان قد أمضى سنوات في سجن سوفيتي بتهمة التجسس لصالح وكالة مخابرات الدفاع الأمريكية. [الموسوعة الحرة]

[٣] دبلوماسي محنك، وهو الرجل الأول لعملية السلام في الشرق الأوسط أثناء ولاية إدارة كل من جورج بوش الأب وكلينتون، حيث كان يعمل عن كثب مع وزراء الخارجية جيمس بيكر ووارن كريستوفر ومادلين أولبرايت. وقد قام بدور الوسيط في مساعدة الفلسطينيين والإسرائيليين للوصول إلى الاتفاق المؤقت عام ١٩٩٥م؛ كما توسط بنجاح اتفاقية الخليل عام ١٩٩٧م، وقام بتسهيل معاهدة السلام الأردنية – الإسرائيلية. [الموسوعة الحرة]

والحاخام "يوفال شارلو"، والبروفيسور "يهودا راينهارتس" الذي يرأس جامعة برانداييس.. وغيرهم ممن طلب إبقاء مشاركته في هذا الاجتماع طيَّ الكتمان!!

وقد تحدث رئيس الاجتماع "آفي غيل" عن أهداف هذا الاجتماع فقال: **"هدفنا هو فهم ما ينبغي فعله اليوم من أجل أن يكون الشعب اليهودي في المستقبل في حالة أفضل"**. أما عن الكيفية التي يتحقق من خلالها مستقبل أفضل لليهود؛ فقد وضحها البروفيسور "راينهارتس"؛ إذ قال: **"إنه كمعظم المشاركين الآخرين، يعتقد أن هناك خشية حقيقية من خسارة الهُوية اليهودية، وتَدَني حجم الشعب اليهودي بشكل يجعل من المتعذَّر عليه مواصلة الوجود كشعب"!**

لقد توافق معظم المشاركين في هذا الاجتماع في أن الخطر الأكبر الذي يتهدَّد الشعب اليهودي في العقود القريبة هو ضعف الهُوية اليهودية؛ ففي الواقع المعاصر تتنافس الهُوية اليهودية في سوق كبير من الأفكار والأيديولوجيات المفتوحة أمام كل إنسان، والصعوبة التي تواجه ربط أبناء الشعب اليهودي – خصوصا الشبان – بالهُوية اليهودية تقود مع مرور الوقت إلى ابتعاد هؤلاء عن حياة الجماعة اليهودية، وابتعادهم عن دولة إسرائيل".. كما أكد: "أن أزمة الهُوية اليهودية قائمة ليس فقط في صفوف يهود الشتات، فالوثيقة التي أعدها المعهد تشير إلى أن هناك خشية حتى من داخل إسرائيل من ضعف جوهري في الهُوية اليهودية"!!

وبعد مداولات مطوَّلة لدراسات ومناقشات وتوصيات تم عرضها أمام الأعضاء، انتهى الاجتماع بإصدار بيان ختامي، جاء فيه: "إن الشعب اليهودي مصاب بافتقاره لقيادة روحية مؤهلة لبلورة فحوى روحية جديدة للهُوية اليهودية، توفِّر إلهامًا وجوهرًا، وتكون ذات صلة"!!

كما أثنى المشاركون في هذا الاجتماع على الطائفة الأصولية الأرثوذكسية التي حافظت على الهُوية اليهودية بشكل تام، فالتعليم يهودي مائة بالمائة، والزواج

المختلط صفر بالمائة، ونسبة التكاثر عالية؛ مؤكدين أن الطائفة اليهودية في حالة طوارئ، وتحتاج إلى تمويل كبير وفي كل الميادين، كما تحتاج إلى وقوف المؤسسة التنظيمية والدينية إلى جانبها.

إن هذه النتائج كانت بالنسبة لهم من الأهمية بمكان، دفعتهم لعرضها أمام مؤتمر رؤساء المنظمات اليهودية في الولايات المتحدة الأمريكية، وقريبًا سيتم تكريس جلسة خاصة في الحكومة الصهيونية لمناقشتها.(١)

وفي عام ١٩٨٠م عُقدت ندوة في فلسطين المحتلة، حضرها من مصر الدكتور "مصطفى خليل" رئيس وزراء مصر الأسبق، وحضر هذه الندوة عددٌ من الأساتذة اليهود المتخصصين في الشؤون السياسية والعربية، فقال "مصطفى خليل": [أودُّ أن أطمئنكم أننا في مصر نفرق بين الدين والقومية، ولا نقبل أبدًا أن تكون قيادتنا السياسية مرتكزة إلى عقائدنا الدينية.]، فوقف البروفيسور اليهودي "دافين" قائلاً: [إنكم أيُّها المصريون أحرار في أن تفصلوا بين الدين والسياسة، ولكنني أحب أن أقول لكم، إننا في إسرائيل نرفضُ أن نقول إنَّ اليهودية مجرد دينٍ فقط؛ بل إننا **نؤكد لكم أنَّ اليهودية دينٌ وشعبٌ ووطن.**]، وقام البروفيسور "تيفي ياقوت" وقال: [أودُّ أن أقول للدكتور "مصطفى خليل" إنَّه يكون على خطأ كبير إذا أصر على التفريق بين الدين والقومية، وإننا نرفضُ أن يعتبرنا الدكتور "خليل" مجرد أصحاب دين لا قومية، **فنحنُ نعتبر اليهودية ديننا وشعبنا ووطننا.**] إلى آخر كلامهِ الذي ذكر فيه أن **(القومية) أوروبية المنشأ والمصدر، وأنَّ الأوربيين صدروها إلى الشرق.**

يقول فضيلة الشيخ/ محمد الغزالي: يشاء القدر أن تقع عينى على هذه العبارة:

وقد قررت "إسرائيل" وقف الطيران في شركة "العال"

يوم السبت احترامًا لتعاليم اليهودية..(!!)

(١) "الهوية الضائعة" مقال لـ أميمة بنت أحمد الجلاهمة/موقع الإسلام اليوم. (بتصرف يسير)

إن الإسلام وحده الذى يجب إبعاده عن الحياة العامة! أما الأديان الأخرى فلتقم باسمها دول، ولترسم على هداها سياسات..!!

لقد أقامت اليهودية على أنقاضنا دولة تريد اجتياح حاضرنا ومستقبلنا، وهي تربي النساء والأطفال لتحقيق هذه الغاية، وتعتبر المدرسة ثكنة عسكرية، والثكنة معبدًا دينيًّا، والتوراة دينًا ودولة..[1]

فيا عباد الله..

إن الخط المرسوم للمسلمين أن تُعطل شرائعهم، وتبطل شعائرهم.. أما الخط المرسوم لليهود فهو إقامة الدولة باسم الدين، ورفع علم التوراة عاليًا.. العاملون في المجتمع الإسلامي ينبغي أن يكونوا صنفًا لا لون ولا طعم ولا ريح، صنفًا لا يُعرف بصبغة ثابتة من ناحيتي العقائد والفضائل، أما في المجتمع المقابل فلابد أن يكون رجال السياسة والثقافة والاقتصاد من النوع الملتزم.

وهناك جملة من الحقائق نثبتها ليعرف المسلمون الذاهلون أين يقادون: عند قيام دولة "إسرائيل" صدر سنة ١٩٥١م بيان ثلاثي من أمريكا وفرنسا وإنجلترا يضمن بقاء إسرائيل، ويتعهد بجعل قدراتها العسكرية أعلى من قدرات كل الدول العربية مجتمعة.

ومع توالى الأحداث أخذت علاقة إسرائيل بالدول الغربية تنمو وتشتد حتى يمكن اعتبار إسرائيل نقطة ارتكاز الغرب في هذا الجزء من العالم.. ومِن ثَمَ أمست الدولة اليهودية الحليف الأول للغرب الصليبي، بل إن الولايات المتحدة تُعِدُّ إسرائيل جزءًا من أراضيها، وولاية أخرى من ولاياتها.. وقد استطاع بنو إسرائيل إقناع أتباع المسيح (!) أنهم الشطر الأول من الكتاب المقدس، وأن النصارى هم الشطر الثاني منه، وأن الوحي قسمة مشتركة بينهم، أما المسلمون عامة، والعرب خاصة، فلا مكان لهم،

[1] عِلل وأدوية: فضيلة الشيخ/ محمد الغزالي رحمه الله (باختصار).

ويجب أن ينتهي وجودهم.. فهل نَعِي نحن ذلك، أم نظل مسترسلين في أوهامنا وأهوائنا ؟

إن العرب البعيدين عن دينهم قدموا لليهود أرخص نصر عُرف في تاريخ الحروب! وما أشهد في سير الأولين والآخرين أمة هزمت نفسها كالعرب المعاصرين، لقد هزمتهم بلادة الفكر والشعور، وسوءات التخطيط والتنفيذ، وفوضى الفرقة والعصيان والتسيُّب.. وهيهات أن تتبدل حالهم إلا وفق سنن الله ! **(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)** [الرعد: ١١]. وقد انتهى فصل خطير، وبدأ الفصل الأخطر.

يقول "بن غوريون"[١]: **إنه لا إسرائيل بدون القدس، ولا قدس بدون الهيكل.** والهيكل المنشود يتم بناؤه على أنقاض المسجد الأقصى وقبة الصخرة. وقصة الهيكل أن الله لابد أن ينزل وسط شعبه المختار ليحكم العالم بهم، ويبسط سلطانه من خلالهم ! وعندما يُبنى الهيكل فسيكون قدس الأقداس فوق القبة . قبة الصخرة . وهو المكان الذي يشغله الجلال الإلهي ، ويعمل منه رب إسرائيل .

واليهود توالي الفرص سانحة لتحقيق حلمهم، بل يرون أنه آن الأوان لهدم المسجد وبناء الهيكل؛ فالعرب أثر بعد عين، والدين بينهم فريسة مذبوحة، والكنائس المختلفة تؤازرهم، والروس أنفسهم يؤثرونهم على العرب، فلم التريث..؟ وقد أشعل اليهود حماسًا عالميًّا لمطالبهم، وصنعوا الغرائب لتعليق الأفئدة بالقدس التي ستكون مكان الرب وهو يحكم الدنيا.

والناس يصدقون الخرافة من اليهود، ويرفضون الحقيقة من العرب. لماذا ؟ لأن الخرافة اليهودية حولها مؤمنون يمدونها بحرارة العاطفة، وحولها ساسة أذكياء ورجال دهاة يوسعون مساحتها بما أوتوا من علم ومال. أما نحن فلنا شأن آخر.. إن الحقيقة

[١] أول رئيس وزراء لإسرائيل، وأحد أبرز زعماء الاستيطان.

التي نقدمها مجفوَّة موحشة. لماذا؟ لأننا نحن أول مَن يخرج عليها ويتنكر لها. إننا بأنفسنا نصنع الهزائم لأنفسنا فكيف ينصرنا الآخرون..؟!

أليس من غرائب الأقدار وتعاجيب الليل والنهار، أن يتنكر العرب للإسلام، ويقرروا عدم (الانتماء) إليه سياسيًّا وثقافيًّا، ويزعموا أن لهم دمًا أنقى، وجنسًا أرقى، ومِن ثَمَّ فقضيتهم عربية لا إسلامية، وبعثهم عربي لا إسلامي، ورسالتهم عربية لا إسلامية ؟!!

العرب الذين أوتوا القرآن، يصف ربَّ العالمين بأنه وسع كل شيء رحمة وعلمًا، وأنه أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، وأن له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى.. هؤلاء العرب يستحيون من هذا القرآن، ويتخذونه مهجورًا ويتركون الطريق مفتوحًا لليهود؛ يقولون للناس: إن الله سوف يحتل مسكنًا له فوق قبة الصخرة، وأن بناء مسكن الرب أو قدس الأقداس يتم مع بناء الهيكل، وأن إسرائيل ماضية في خطتها لتَسلُّم أرض الميعاد، وتوطين الشعب المختار كي يساعد الرب في حكم العالم (!!)

إن الخرافة اليهودية تجد لها رجالاً متحمسين، أما الحقيقة الإسلامية فهي تُمرغ في التراب، ويتعرض حَمَلَتها للنكال، بينما يُمهَّد الطريق للبعثيين العرب والقوميين العرب كي يفرضوا سلطتهم على أمة تائهة أو أمة مُكرَهة على الارتداد..

ويتضافر قادة الصليبية العالمية مع نَفَر من الساسة المحليين على بلوغ هاتيك الغايات. إن هذه خيانة رهيبة، وإذا كان النصارى العرب يخدمون عقائدهم بهذا السلوك فما هو كسب المسلمين العرب من إنفاذ هذا المخطط الكفور؟! ومن إعلان (علمانية) القضية الفلسطينية؟؟ الكسب المرتقب مزيد من الهزائم، وسيل آخر من اللاجئين، وعدد آخر من الفضائح؛ ظلمات بعضها فوق بعض..

إن الزمان لا يقف، واليهود ماضون في طريقهم، وقرارهم المتخذ هو هدم المسجد الأقصى، وبناء هيكل الرب فوق أنقاضه، وليس أمام المسلمين خيار، فقد مرح الشر وبان السرار.. لقد بات إبعاد الإسلام عن قضية فلسطين جريمة بشعة، وظهر ألا نتيجة لذلك إلا القضاء على الأمة العربية كلها..

وخير لنا أن نعترف بالطابع الديني للمعركة؛ فليس معقولًا أن يُهاجِم اليهود بدين، وأن يدافع العرب مُلحدين منحلّين.. وعندما نعلن إسلامنا فيجب سد أبواب الغزو الثقافي كلها، وفسح الطريق أمام حقائق الإسلام وحدها لتزهر وتثمر..[1]

فكنْ جُندَها أو ضِدَّها يا مُفكِّرُ ... وكـلٌّ لـهُ عُقبى، وأنتَ المُخَيَّـرُ

ولا تحزَنَنْ للحقِّ، فالحقُّ ظاهـرٌ ... ولكن تُرى هل كنتَ للحقِّ تَنصُرُ

تاسعا:

[1] الغزو

من استعان بالله فهو صاحب الغلبة ولو بعد حين:

كانت معركة بدر أول قتال وقع بين الإسلام والوثنية، وذلك بعد خمس عشرة سنة من بدء الدعوة، ماذا كانت حال المسلمين خلال هذه المدة؟ كانوا مُهدَري الحقوق، كانوا غرضًا قريبًا لكل ذي عدوان. وكان الرسول يشكو إلى الله ضعف قوته وقلة حيلته! ورفض الجاهليون كل الرفض الاعتراف بالإسلام، وعَدِّه دينًا يقبله المجتمع العربي. أُخرج المسلمون من مكة؛ وهي الحرم الآمن، وكشرت الوثنية عن أنيابها، وبعد ما تم لها ما تريد أعلنت أن الهوان والطرد نصيب كل مَن يدخل في الإسلام، فهل

يلوم أحدٌ المسلمين إذا تصدوا لهذا التحدي، وقرروا الوقوف أمامه في حدود قواهم القليلة؟. وماذا يفعلون؟ لقد ارتقبوا فرجًا مع الغد المجهول.

وجاء هذا الفرج من حيث لا يحتسب أحد، فقد فرضت الظروف على المسلمين معركة بدر دون أن يستعدوا أو يخططوا لها، وشعر فريق منهم بالكره البالغ لهذا القتال المفروض، وتقدم المشركون للمعركة؛ وهم واثقون من دحر الإسلام، وحفر قبره هنا.

وأحس النبي عليه الصلاة والسلام أن التصدي لهؤلاء ما منه بد، وأن جهاد الماضي المر بالغٌ قمتَه اليوم، وأن حكم الله قد تتمخض عنه هذه الساحة التي مَهَّدها القدر، فاتجه عليه الصلاة والسلام إلى ربه ينشد النجدة والحِمى.[1]

عن ابن عباس قال: حدثني عمر بن الخطاب قال: لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلا، فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة، ثم مد يديه فجعل يهتف بربه: "**اللهم أنجز لي ما وعدتني. اللهم آتني ما وعدتني. اللهم إنك إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض**".. فما زال يهتف بربه، ماداً يديه، مستقبل القبلة، حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر، فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه، وقال: يا نبي الله! كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله تعالى: (**إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ**) [الأنفال ٩] فأمدَّه الله تعالى بالملائكة. وقد خرج من العريش وهو يقول: (**سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ**) [القمر: ٤٥][1]

---

[1] فن الذكر والدعاء: فضيلة الشيخ/ محمد الغزالي رحمه الله.

[1] فقه السيرة النبوية لمنير الغضبان – السيرة النبوية الصحيحة لأكرم ضياء العمري.

والاستغاثة طلب الغوث، وهو التخليص من الشدة والنقمة. و(إذ) ظرف يكون للماضي، وهو هنا للماضي المتصل بالحاضر، كما في قوله تعالى: (**وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ**. .). وجاء المضارع بعدها لتصوير الاستغاثة وأنها كانت التجاءً متجددًا مستمرًّا لله تعالى.

أي اذكروا وقت استغاثتكم ربكم قائلين: ربنا انصرنا على عدوك، يا غياث المستغيثين أغثنا، والأمر بهذا الذكر لبيان نعمة الله عليهم حين التجائهم إليه؛ إذ ضاقت عليهم الحيل وطلبوا مخلصًا من تلك الشدة فاستجاب دعاءهم كما قال: (**فَاسْتَجابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ**) أي فأجاب دعاءكم بأني ممدكم بألف من الملائكة يردف بعضهم بعضًا ويتبعه. (**وَما جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ**) أي وما جعل ذلك الإمداد إلا بشرى لكم بأنكم تنصرون، ولتسكن به قلوبكم من الزلزال الذي عرض لكم فكان من مجادلتكم للرسول فى أمر القتال ما كان، وبذا تلقون أعداءكم ثابتين موقنين بالنصر.

(**وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ**) أي ليس النصر إلا من عند الله دون غيره من الملائكة أو سواهم من الأسباب، فهو سبحانه الفاعل للنصر والمسخّر له كتسخيره للأسباب الحسية والمعنوية، ولا سيما ما لا كسب للبشر فيه كتسخير الملائكة تخالط المؤمنين فتفيد أرواحهم الثبات والاطمئنان.

(إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) أي إنه تعالى غالب على أمره، حكيم لا يضع شيئا فى غير موضعه.

وظاهر الآية يدل على أنَّ لإنزال الملائكة وإمداد المسلمين بهم فائدة معنوية، فهو يؤثّر في القلوب فيزيدها قوة وإن لم يكونوا محاربين، وهناك روايات تدل على أنهم قاتلوا فعلا.

قال ابن عباس: بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه؛ إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم[١]. فنظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقيًا، فنظر إليه فإذا هو قد خُطم أنفه وشُق وجهه كضربة السوط[٢]، فاخضر ذلك أجمع، فجاء الأنصاري فحدث بذلك رسول الله ﷺ فقال: **"صدقتَ ذلك مددٌ من السماءِ الثالثةِ". [شرح النووي على صحيح مسلم]**

وقد أسَرَ رجل من الأنصار العباس بن عبد المطلب، فقال العباس: يا رسول الله! إن هذا والله ما أسرني، لقد أسرني رجل أجلح[٣] من أحسن الناس وجهًا، على فرس أبلق ما أراه في القوم. فقال الأنصاري: أنا أسرته يا رسول الله. فقال: **"اسكت، فقد أيدَك اللهُ تعالى بملَكٍ كريمٍ"**[٤].

وفي مغازي الأموي بإسناد حسن: خفق النبي ﷺ خفقة في العريش ثم انتبه فقال: **"أبشِر يا أبا بكر.. أتاكَ نصرُ اللهِ، هذا جبريلُ معتجرٌ بعمامةٍ، آخذٌ بعِنانِ فَرسِه يَقودُه على ثَنايا النقعِ، أتاكَ نصرُ اللهِ وعِدَتُه"**[٥]

قال البوطي: لقد رأينا أن النبي ﷺ كان يطمئن أصحابه بأن النصر لهم، حتى إنه كان يشير إلى أماكن متفرقة في الأرض ويقول: "هذا مصرع فلان"، ولقد وقع الأمر كما أخبر ﷺ، فما تزحزح أحد في مقتله عن موضع يده كما ورد في الحديث الصحيح.

ومع ذلك فقد رأيناه يقف طوال ليلة الجمعة في العريش الذي أقيم له، يجأر إلى الله تعالى داعيًا ومتضرعًا، باسطًا كفيه إلى السماء يناشد الله عز وجل أن يؤتيه نصره

---

[١] اسم فرس الملَك

[٢] ضربة السوط تركت أثرا في أنفه ووجهه

[٣] أجلح: انحسر شعره عن جانبي رأسه

[٤] مسند أحمد.

[٥] زهرة التفاسير – تفسير المراغي – السيرة النبوية الصحيحة لأكرم ضياء العمري.

الذي وعد حتى سقط عنه رداؤه وأشفق عليه أبو بكر، والتزمه قائلا: كفى يا رسول الله، إن الله منجز لك ما وعد.

فلماذا كل هذه الضراعة ما دام أنه مطمئن إلى درجة أنه قال: "لكأني أنظر إلى مصارع القوم"، وأنه حدد مصارع بعضهم على الأرض؟

والجواب؛ أن اطمئنان النبي ﷺ وإيمانه بالنصر، إنما كان تصديقًا منه للوعد الذي وعد الله به رسوله، ولا شك أن الله لا يخلف الميعاد، وربما أوحي إليه بخبر النصر في تلك الموقعة.

أما الاستغراق في التضرع والدعاء وبسط الكف إلى السماء، فتلك هي وظيفة العبودية التي خُلق مِن أجلها الإنسان، وذلك هو ثمن النصر في كل حال.

فما النصر- مهما توفرت الوسائل والأسباب- إلا من عند الله وبتوفيقه، والله عز وجل لا يريد منا إلا أن نكون عبيدًا له بالطبع والاختيار، وما تقرب متقرب إلى الله بصفة أعظم من صفة العبودية، وما استأهل إنسان بواسطة من الوسائط استجابة دعاء من الله تعالى، كما استأهل ذلك بواسطة ذل العبودية يتزيا ويتبرقع به بين يدي الله تعالى.

وما أنواع المصائب والمحن المختلفة التي تهدد الإنسان في هذه الحياة أو تنزل به، إلا أسباب وعوامل تنبهه لعبوديته، وتصرف آماله وفكره إلى عظمة الله سبحانه وتعالى وباهر قدرته، كي يفر إليه سبحانه وتعالى ويبسط أمامه ضعفه وعبوديته، ويستجير به من كل فتنة وبلاء، وإذا استيقظ الإنسان في حياته لهذه الحقيقة وانصبغ سلوكه بها، فقد وصل إلى الحد الذي أمر الله عباده جميعًا أن يقفوا عنده وينتهوا إليه.

فهذه العبودية التي اتخذت مظهرها الرائع في طول دعاء النبي ﷺ وشدة ضراعته ومناشدته لربه أن يؤتيه النصر، هي الثمن الذي استحق به ذلك التأييد الإلهي العظيم في تلك المعركة.

ثم قارن مظهر العبودية التي تجلت في موقفه ﷺ ونتائج ذلك، مع مظهر ذلك الطغيان والتجبر الذي تجلى في موقف أبي جهل حينما قال: لن نرجع عن بدر أبدًا حتى ننحر الجزر ونطعم الطعام ونسقي الخمر وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرتنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا.

وتأمل في نتائج ذلك التجبر والجبروت!

لقد كانت نتيجة العبودية والخضوع لله تعالى عزة قعساء ومجدًا شامخًا خضع لهما جبين الدنيا بأسرها، ولقد كانت نتيجة الطغيان والجبروت الزائفين قبرًا من الضيعة والهوان أُقيم لأربابهما حيث كانوا سيتساقون فيه الخمر وتعزف عليهم القيان.

وتلك هي سنة الله في الكون كلما تلاقت عبودية لله خالصة مع جبروت وطغيان زائفين.[١]

فيا عباد الله ..

هذا درس رباني مهم لكل قائد أو حاكم أو زعيم أو فرد؛ في التجرد من النفس وحظها، والخلوص واللجوء لله وحده، والسجود والجثي بين يدي الله سبحانه؛ لكي ينزل نصره. ويبقى مشهد نبيه ﷺ وقد سقط رداؤه عن كتفه، وهو ماذٌّ يديه يستغيث بالله؛ يبقى هذا المشهد محفورًا بقلبه ووجدانه، يحاول تنفيذه في مثل هذه الساعات، وفي مثل هذه المواطن، حيث تناط به المسؤولية وتُلقَى عليه أعباء القيادة.[١]

استجلاب النصر بالدعاء:

---

[١] فقه السيرة للبوطي.

[١] السيرة النبوية للصلابي.

الثابت في خلق الرسول الكريم ﷺ أنه كان شديد التوكل على الله والتحصن به والثقة فيه. وكان ﷺ يكره الفوضى والصخب عند القتال، فالأمر جد، والسكينة أعون على طاعة الله، واستنزال نصره.

والموقف هنا يوجب استحضار قدرة الله، وفضله وغناه، وحاجة العباد أبدًا إليه، وتوسلهم إليه بالبراءة من الحول والطول، ولقد ثبت أن من مواطن إجابة الدعاء وقت التقاء الجمعين؛ إنه كوقت السجود، وإنهاء الصوم، واستغفار السحر، وكل آناء التجرد لله، وطلب جَدَاه[٢]. والأمة الإسلامية كلها مِن وراء الجبهة الساخنة تدعو ربها وتسأله النصر، وهي في الصلوات الخمس تقنت؛ ترد النوازل، أو تقنت مع مطلع كل فجر طالبة من الله تأييد المجاهدين.[٣]

عن سهل بن سعد رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **"ثِنْتَانِ لا تُرَدَّان، أو قَلَّما تُرَدَّان: الدعاءُ عندَ النداءِ وعندَ البَأسِ حين يُلْحِمُ بَعضُهُم بَعضًا"** [رواه أبو داود والدارمي]

(وعندَ البَأسِ حين يُلْحِمُ بَعضُهُم بَعضًا): هو شدة البأس حين يلتحم المسلمون مع الكفار ويقتتلون، فإن الدعاء في هذه الحالة يكون مجابا.

(يلحم بعضُهم بعضًا): (يَلْحَم) بفتح الياء والحاء أي: يقتل (بعضُهم بعضًا) كأنه يجعل المقتول لحمًا. وقيل: بضم الياء وكسر الحاء **(يُلحِم)** من ألحم، أي يلزم بعضهم بعضًا، ويلتصقون التصاق اللحم بالعظم. والملحمة الحرب وموضع القتال، وجمعه الملاحم. أخذ من اشتباك الناس واختلاطهم فيها.[١]

---

[٢] جَدَا: عطاء. طلب جَدَاه: طلب عطائه. – [٣] فن الذكر والدعاء: فضيلة الشيخ/ محمد الغزالي رحمه الله.

[١] شرح سنن أبي داود للعباد – مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح – مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح. (باختصار وتصرف يسير).

كتب عبد الله بن أبي أوفى[٢]، إلى عمر بن عبيد الله حين سار إلى الحَرورية[٣]، يخبره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في بعض أيامه التي لقي فيها العدو، ينتظر حتى إذا مالت الشمس قام فيهم، فقال: **"يا أيها الناس، لا تتمنوا لقاءَ العدوِّ، واسألوا اللهَ العافيةَ، فإذا لقيتُموهم فاصبروا، واعلموا أنَّ الجنةَ تحتَ ظلالِ السيوفِ"**. ثم قام النبي صلى الله عليه وسلم، وقال: **"اللهمَّ مُنْزِلَ الكتابِ، ومُجْرِيَ السحابِ، وهازِمَ الأحزابِ، اهزِمْهم وانصُرْنا عليهِم"**. **[متفق عليه]**

(ينتظر حتى إذا مالت الشمس قام فيهم): أي زالت الشمس، وذلك من أجل تقبل البرودة ويكثر الظل وينشط الناس. وفيه إشارة إلى الفتح والنصرة؛ لأنه وقت هبوب الرياح ونشاط النفوس. وقالوا: سببه فضيلة أوقات الصلاة والدعاء عندها. والوجه الجمع بينهما لما نص عليه في الحديث الآخر المخرج في البخاري من طريق النعمان بن مقرن قال: شهدت القتال مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان إذا لم يقاتل أول النهار انتظر حتى تهب الأرياح وتحضر الصلاة. وفي رواية أبي داود: حتى تزول الشمس، وتهب الرياح، وينزل النصر، قال التوربشتي: ومصداق ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: **"نصِرتُ بالصَّبا"**.[٤]

(لا تتمنوا لقاءَ العدوِّ، واسألوا اللهَ العافيةَ): قال النووي: وإنما نهى عن تمني لقاء العدو لما فيه من صورة الإعجاب، والاتكال على النفس، والوثوق بالقوة، وأيضا هو يخالف الحزم والاحتياط.

وقال ابن بطال: حكمة النهي أنه لا يعلم ما يؤول إليه الأمر، وهو نظير سؤال العافية من الفتن.

---

[٢] من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم. [٣] الحرورية أي الخوارج.

[٤] قال الطيبي: ونُصرته صلى الله عليه وسلم بالصبا هو حين حاصرت الأحزاب المدينة يوم الخندق. قال تعالى: (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا) [الأحزاب: ٩]

(واعلموا أنَّ الجنةَ تحتَ ظلالِ السيوفِ): قال النووي: معناه ثواب الله، والسبب الموصل إلى الجنة عند الضرب بالسيوف، ومشي المجاهدين في سبيل الله فاحضروا فيه بصدق النية واثبتوا.

فالجنة تحت ظلال السيوف التي يحملها المجاهد في سبيل الله؛ لأن المجاهد في سبيل الله إذا قُتل صار من أهل الجنة.

والشهيد إذا قُتل في سبيل الله فإنه لا يحس بالطعنة أو بالضربة، كأنها ليست بشيء، ما يحس إلا أن روحه تخرج من الدنيا إلى نعيم دائم أبدًا، نسألك اللهم من فضلك. ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم: **(واعلموا أنَّ الجنةَ تحتَ ظلالِ السيوفِ)**.

وكان من الصحابة رضي الله عنهم أنس بن النضر، قال: "إني لأجدُ ريحَ الجنةِ دون أُحُد". انظر كيف فتح الله مشامه حتى شم ريح الجنة حقيقة دون أُحُد، ثم قاتل حتى قُتل رضي الله عنه، فوُجد فيه بِضع وثمانون ضربة ما بين سيف ورمح وسهم، فقُتل شهيدًا رضي الله عنه؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: **(واعلموا أنَّ الجنةَ تحتَ ظلالِ السيوفِ)**.

قال الحافظ: وفي الحديث: **استحباب الدعاء عند اللقاء، ووصية المقاتلين بما فيه صلاح أمرهم، ومراعاة نشاط النفوس لفعل الطاعة، والحث على سلوك الأدب.**[1]

[1] مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح – تطريز رياض الصالحين – شرح رياض الصالحين لابن العثيمين.

عن أنس بن مالك، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غزا قال: **"اللهم أنتَ عَضُدي ونَصيري، بكَ أحُولُ، وبكَ أصُولُ، وبكَ أقاتلُ"**.[١]

(اللهمَّ أنتَ عَضُدي) أي مُعتمَدي في جميع الأمور سيما في الحرب، فلا أعتمد على غيرك. أو أنت قوتي أتقوى وأعتضد بك كما يتقوى الشخص بعضده. أو أنت ناصري ومعيني.

قال الطيبي: العَضُد كناية عما يعتمد عليه ويثق المرء به في الخير وغيره من القوة.

(بكَ أَحولُ) من الحول وهو الحيلة. قال الزمخشري: من حال يحول حيلة بمعنى احتال. أي: بك أحتال لدفع مكر الأعداء وكيدهم. وقيل: معناه أتحرك وأتحول من حال إلى حال، أو أحول من المعصية إلى الطاعة. والحول الحركة، يقال: حال الشخص إذا تحرك.

(وبكَ أصولُ) أي: أحمل على العدو حتى أغلبه وأستأصله. ومنه الصولة بمعنى الحملة والحمل والصائل بمعنى الحامل.

(وبكَ) أي: بحولك وقوتك وعونك ونصرتك **(أقاتلُ)** أي: أعداءك حتى لا يبقى إلا مسلم أو مسالم.[٢]

عن عبد الله بن قيس، أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كان إذا خاف قوما قال: **"اللهمَّ إنَّا نجعلُكَ في نُحُورِهِم، ونعوذُ بكَ مِن شُرُورِهِم"**.[٣]

(اللهمَّ إنَّا نجعلُكَ في نُحُورِهِم) أي: في إزاء صدورهم لتدفع عنا صدورهم وتحول بيننا وبينهم. تقول: جعلتُ فلانًا في نحر العدو إذا جعلته قبالته وحذاءه ليقاتل عنك ويحول بينك وبينه. وخص النحر بالذكر لأنه أسرع وأقوى في الدفع والتمكن من المدفوع.

---

[١] رواه الترمذي وأبو داود وأحمد والنسائي.

[٢] مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (باختصار وتصرف بسيط)

[٣] رواه أحمد وأبو داود والنسائي.

والعدو إنما يُستقبل بنحره عند المناهضة للقتال أو للتفاؤل بنحرهم أي: قتلهم.

والمعنى: نسألك أن تصد صدورهم وتدفع شرورهم وتكفي أمورهم وتحول بيننا وبينهم. وقيل: المعنى نسألك أن تتولانا في الجهة التي يريدون أن يأتونا منها. وقيل: نجعلك في إزاء أعدائنا حتى تدفعهم عنا؛ فإنه لا حول ولا قوة لنا، بل القوة والقدرة لك.[١]

ما لي سوى اللهِ والأمواجُ تصرعُني والليلُ يُطبقُ.. لا نجمٌ ولا سُرُجُ
ما لي سوى اللهِ في كيدٍ وفي فتنٍ وهل لها دونَ فضلِ اللهِ مُنْفَرَجُ
ما لي سوى اللهِ في أعداءِ ملَّتِهِ ، وفتكِ أسلحةٍ تَهوي وتختلجُ
ما لي سوى اللهِ في دورٍ مهدَّمةٍ ، ومسجدٍ لا يُنَادِي فيهِ مُدَّلِجُ
ما لي سوى اللهِ في أنَّاتِ أرملةٍ وكَرْبِ أَسرى وراءَ الغُلِّ قد نضجوا
يارَبِّ نصرًا كبدرٍ في جلالتِها أو خندقِ المجدِ إذ ضاقتْ بهم فُجَجُ

من قصيدة "فلوجة العز" للشاعر المبدع / صالح بن علي العمري (بتصرف يسير)

قول: "لا حول ولا قوة إلا بالله" يوجب الإعانة:

قال العلامة ابن عاشور رحمه الله: الاستعانة طلب العون. و(العون) و(الإعانة) تسهيل فعل شيء يشق ويعسر على المستعين وحده.

وأما الاستعانة بالله فهي طلب المعونة على ما لا قِبَل للبشر بالإعانة عليه، ولا قِبَل للمستعين بتحصيله بمفرده؛ ولذلك فهي مشعرة بأن المستعين يصرف مقدرته لتحصيل الفعل ويطلب من الله العون عليه بتيسير ما لا قبل لقدرة المستعين على تحصيله بمفرده. فهذه هي المعونة شرعا. [٢]

---

[١] مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح.

[٢] التحرير والتنوير باختصار.

والاستعانة بالله تتضمن كمال الذل من العبد لربه، وتفويض الأمر إليه، واعتقاد كفايته.

قال ابن تيمية: **الاستعانة بالله والتوكل عليه واللجأ إليه والدعاء له هي التي تُقَوي العبد وتيسر عليه الأمور.**

والاستعانة تجمع أصلين: الثقة بالله، والاعتماد عليه. فإن العبد قد يثق بالواحد من الناس؛ ولا يعتمد عليه في أموره –مع ثقته به– لاستغنائه عنه. وقد يعتمد عليه –مع عدم ثقته به– لحاجته إليه، ولعدم من يقوم مقامه؛ فيحتاج إلى اعتماده عليه مع أنه غير واثق به.

قال الحافظ ابن رجب: الاستعانة بالله عز وجل دون غيره من الخلق، فلأن العبد عاجز عن الاستقلال بجلب مصالحه، ودفع مضاره، ولا معين له على مصالح دينه ودنياه إلا الله عز وجل، فمن أعانه الله فهو المعان، ومن خذله فهو المخذول، وهذا تحقيق معنى قول: "لا حول ولا قوة إلا بالله". فإن المعنى: لا تحول للعبد من حال إلى حال، ولا قوة له على ذلك إلا بالله، وهذه كلمة عظيمة وهي كنز من كنوز الجنة، **فالعبد محتاج إلى الاستعانة بالله في فعل المأمورات وترك المحظورات، والصبر على المقدورات كلها في الدنيا وعند الموت وبعده من أهوال البرزخ ويوم القيامة، ولا يقدر على الإعانة على ذلك إلا الله عز وجل.** [جامع العلوم والحكم]

قال ابن تيمية: **وقول: "لا حول ولا قوة إلا بالله" يوجب الإعانة؛ ولهذا سنها النبي ﷺ إذا قال المؤذن: حي على الصلاة، فيقول المجيب: لا حول ولا قوة إلا بالله، فإذا قال: حي على الفلاح، قال المجيب: لا حول ولا قوة إلا بالله.**

[وقد تنوعت الأحاديث في الدلالة على تشريف هذه الكلمة وتعظيمها، حيث أخبر ﷺ أنها من أبواب الجنة، وأنها من كنز تحت العرش، وأنها غِراس الجنة، وأنها من الباقيات الصالحات التي ينبغي للعبد أن يستكثر منها، وقد أمر النبي ﷺ بالإكثار

من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله، وكل هذا يدل بجلاء على عِظم فضل هذه الكلمة ورفعة شأنها، وأنها كلمة عظيمة جليلة ينبغي على المسلمين أن يعنوا بها وأن يكثروا من قولها، وأن يعمروا أوقاتهم بكثرة ترددها لعِظم فضلها عند الله، ولكثرة ثوابها عنده، ولما يترتب عليها من خيرات متنوعة، وأفضال متعددة في الدنيا والآخرة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **"ألا أدلُّك على كلمةٍ مِن تحتِ العرشِ مِن كنزِ الجنَّةِ ؟ تقولُ: لا حولَ ولا قوةَ إلا باللهِ، فيقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: أسلمَ عبدِي واستسلَمَ".** (١)

فهي كلمة إسلام واستسلام، وتفويض وتبرؤ من الحَول والقوة إلا بالله، وأنَّ العبد لا يملك من أمره شيئًا، وليس له حيلة في دفع شر، ولا قوة في جلب خير إلا بإرادة الله تعالى. فلا تَحوُّل للعبد من معصية إلى طاعة، ولا من مرض إلى صحة، ولا من وهن إلى قوة، ولا من نقصان إلى كمال وزيادة إلا بالله، ولا قوة له على القيام بشأن من شؤونه، أو تحقيق هدف من أهدافه أو غاية من غاياته إلا بالله العظيم..

فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فأزِمَّةُ الأمور بيده سبحانه، وأمور الخلائق معقودة بقضائه وقدره، يصرفها كيف يشاء ويقضي فيها بما يريد، لا رادَّ لقضائه، ولا معقِّب لحُكمه، فما شاء كان كما شاء في الوقت الذي يشاء، على الوجه الذي يشاء من غير زيادة ولا نقصان، ولا تقدم ولا تأخر، له الخلق والأمر، وله الملك والحمد، وله الدنيا والآخرة، وله النعمة والفضل، وله الثناء الحسن، شملت قدرته كل شيء.. (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونَ) [يس:٨٢]، **(مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِن رَحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ)** [فاطر:٢]، ومن كان هذا شأنه فإنَّ الواجب الإسلام لألوهيته، والاستسلام لعظمته، وتفويض الأمور كلها إليه، والتبرؤ من الحول والقوة إلا به، ولهذا تعبد الله عباده بذكره

(١) رواه الحاكم وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب.

بهذه الكلمة العظيمة التي هي باب عظيم من أبواب الجنة وكنز من كنوزها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: **"وذلك أنَّ هذه الكلمة (أي: لا حول ولا قوة إلا بالله) هي كلمة استعانة لا كلمة استرجاع، وكثيرٌ من الناس يقولها عند المصائب بمنزلة الاسترجاع، ويقولها جزعا لا صبرا".**] [١]

فيا عباد الله..

هذه الكلمة العظيمة كلمة استعانة بالله العظيم، فحريٌّ بقائلها والمحافظ عليها أن يظفر بعون الله له وتوفيقه وتسديده. [٢]

"حسبي الله ونعم الوكيل" كلمة استعانة بالله:

بعد انصراف المسلمين من أُحد مساء السبت دفنوا موجدتهم في أفئدتهم، ولم يستسلموا لأحزان المصاب الذي حلَّ بهم، وكان تكاثر خصومهم حولهم سببًا في أن يقاوموا عوامل الخوَر، وأن يُبدوا للناس بقية من قوة تردُّ عنهم كيد المتربصين، على نحو ما قال الشاعر:

وتَجَلُّدي للشامتينَ أُرِيهِمُ أني لرَيْبِ الدهرِ لا أتَضَعْضَعُ

وقد كان انكسار المسلمين في أُحد فرصة انتهزها المنافقون واليهود، وكل ذي غِمْر[٣] على محمد عليه الصلاة والسلام ودينه وأصحابه، ففارت المدينة كالمرجل المتقد، وكشف عن عداوته مَن كان قَبلًا يُواريها، وتحدث الكافرون بالإسلام عن خذلان السماء للنبي المرسل من عند الله.

فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصبح يوم الأحد، أمر بلالًا أن ينادي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمركم بطلب العدو، ولا يخرج معنا إلا مَن شهد

---

[١] فقه الأدعية والأذكار: د. عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر (باختصار وتصرف)

[٢] الحوقلة مفهومها وفضائلها ودلالتها العقدية: د. عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر (باختصار)

[٣] غِمْر : حقد.

القتال بالأمس. ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بلوائه وهو معقود لم يُحَل، فدفعه إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وخرج القوم وهم ما بين مجروح وموهون، ومشجوج حتى عسكروا بحمراء الأسد[1]، فأوقد المسلمون هناك نيرانا عظيمة، حتى ترى من المكان البعيد وتوهم كثرة أصحابها.

وكان رجال قريش بعد أن ضمهم الفضاء الرحب قد عادوا إلى التفكير فيما حدث، وأخذوا يتلاومون، يقول بعضهم لبعض: لم تصنعوا شيئًا، أصبتم شوكة القوم، ثم تركتموهم ولم تبتروهم، وقد بقيت منهم رءوس يجمعون لكم!.

إلا أنَّ هذا التفكير تزلزل إثر ما عرفت قريش أنَّ المسلمين عبأوا قواهم، وخرجوا يستأنفون القتال.

وحار المشركون في أمرهم: أيعودون لحرب لا يأمنون مغبتها، وربما أفقدتهم ثمار النصر الذي أحرزوه ؟ أم يمضون لتوهم إلى مكة ؟ وفي هذه الحال يتحسن مركز المسلمين، وتخف مرارة الهزيمة التي لحقتهم.

وقد رأى أبو سفيان أن يغنم الأوبة الرابحة، وأن يبعث إلى المسلمين من يقذف بالرعب في قلوبهم، ويخبرهم أن قريشًا عادت لاستئصال شأفتهم بعد أن تبين لها خطؤها في تركهم.

وجاء دسيس أبي سفيان يغري المسلمين بالعودة إلى يثرب نجاة بأنفسهم من كرة المشركين عليهم، وهم لا يقدرون على ملاقاتهم!.

بيد أنَّ المسلمين قبلوا التحدي، وظلوا في معسكرهم يوقدون النار طيلة ثلاث ليالٍ، في انتظار قريش.

ومر بهم معبد الخزاعي (وكان يومئذ من مشركي خزاعة) ثم تجاوزهم فمر على المشركين ولهم زجل ومرح وزهو بالنصر الذي لاقوه في أُحد، وهم يأتمرون بالرجوع إلى

[1] مكان من المدينة على بعد عشرة أميال.

المدينة للقضاء على المسلمين، وصفوان بن أمية ينهاهم. فلما رأى أبو سفيان معبدًا قال: ما وراءك يا معبد؟ فقال: ويحكم! إن محمدًا قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أرَ مثله قط، يتحرقون عليكم تحرقًا، فيهم من الحنق عليكم شيء لم أر مثله قط. فأدخل الله بذلك رعبًا عظيمًا في قلوب المشركين، وهبوا مسرعين عائدين إلى مكة.

وعاد المسلمون إلى المدينة ليدخلوها مرة أخرى، أرفع رءوسًا، وأعز جانبًا.

وفي هذه المظاهرة الناجحة، وفيمن اشتركوا فيها على ألم الجراح وإرهاق التعب، وفي ثباتهم على التثبيط واطمئنانهم إلى جانب الله، نزلت الآيات الكريمة: (**الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ . الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ . فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ**) [آل عمران:١٧٢ -١٧٤] [١]

أصل (**اسْتَجَابُوا**): طلبوا الإجابة، والمعنى هنا أنهم عالجوا أنفسهم وطلبوا إجابة داعي الله إلى النصر فأجابوا. فالاستجابة لأن السين والتاء للطلب تدل على أنهم راضوا أنفسهم على إجابة الله تعالى، ونالوا ذلك الشرف العظيم؛ إذ أجابوا داعي الله ورسوله من بعد ما أصابهم ذلك الجرح ولم ينهنه (يَكُفّ أو يمنع) من قوتهم، بل استرسلوا في قوة وصبر وعزيمة، واستثارهم الجرح ولم يضعفهم، وأنهم أجابوا الداعي فور الواقعة.

ولقد كان أولئك الذين استجابوا لداعي الجهاد، وهم في تلك الحال، لهم موقف آخر جليل ذو شأن في الجهاد، وأثر في الإسلام، ولقد ذكر الله ذلك الموقف بقوله

[١] فقه السيرة للغزالي – فقه السيرة للبوطي (بتصرف)

تعالت كلماته: **(الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا)**.

وقوله تعالى: **(الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ)** الموصول فيها بدل من الموصول في قوله تعالى: **(الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ)** فهم طائفة واحدة لم تتعدد، ولكن تَعَدَّدَ عملُهم، فهم في الأول لم تثقلهم الجراح عن أن يجيبوا الرسول صلى الله عليه وسلم، وهم في الثاني لم ترهبهم أقوال الناس المتضافرة عن أن يتقدموا للقتال، وقد تكاثرت أسباب الرهبة، وأخبار الاستعداد، وإن كان الذين نالوا الفضلين طائفة واحدة.

وقوله تعالى حكاية عنهم: **(قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ)** قد حذف فيه المفعول، فلم يقل جمعوا جيشًا، وذلك ليذهب الخيال كل مذهب في مقدار ما جمعوا من أسلحة، ومقدار من جمعوا من الرجال وأموالهم، فيكون ذلك أشد تخويفًا، ولكن لم يثبط ذلك من عزيمة المسلمين وإرادتهم القتال، وقد حكى سبحانه حال المؤمنين بقوله تعالى: **(فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ)**.

أولئك المثبطون الدساسون قالوا ما قالوا، وقالوا: اخشوهم، أي قَدِّرُوا أنهم سيُنزلون بكم الأذى الشديد والقتل الذريع إن خرجتم، فهو إفزاع عن المستقبل، والفرق بين الخوف والخشية أن الخوف يكون من أمر حاضر، والخشية من أمر متوقع، وهي إن كانت في الحاضر تكون خشية من قوي لما يكون منه في القابل. وكان أثر ذلك الدس المرهب أمرين: أحدهما زيادة الإيمان، والثاني التفويض إلى الله تعالى.

فأما زيادة الإيمان هنا فمعناها قوة اليقين وعدم تضعضع الثقة في الله تعالى.

والأمر الثاني الذي كان أثرًا لذلك الكلام المدسوس المثبط أنهم قالوا: **(حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ)** ومعنى حسبنا أي كافينا، أي إذا كانوا هم يستنصرون بقواتهم يحشدونها، وعددهم يستكثرون به، ويعدون ذلك كفايتهم، **فنحن كفايتنا من الله تعالى، وقد وعدنا بالنصر، وهو نعم النصير المعاون، فالوكيل هنا معناه النصير الكفيل**

المعاون، والوكيل الذي يستعان به في الدنيا إنما يكون لفضل قوته أو خبرته أو حكمته، فكيف يكون والمستعان هو الله سبحانه وتعالى، وهو نعم المولى ونعم النصير، فالوكيل هنا هو القادر الذي توكل إليه الأمور.

(فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ) هذا التعبير يدل على أنهم عادوا كما خرجوا لم يقتلوا ولم يقاتلوا، ولكن **صحبهم في هذه العودة أمور أربعة:**

أولها: نعمة الله عليهم إذ خذل أعداءهم وثبطهم وألقى الرعب في قلوبهم وأحسوا بأنهم وحدهم لَا قِبَلَ لهم بمحمد صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا معه، ولذلك لما عادوا إلى القتال ومحاولة ضرب المدينة ضربة قاصمة جمعوا العرب بشتى قبائلهم في غزوة الأحزب في العام الثاني.

وثانيها: الفضل من الله، وقد فسر كثيرون الفضل بأنه فضل مالي؛ لأن المسلمين لما لم يجدوا قتالًا اتجروا في بدر، ويروى أن عيرًا كبيرة مرت ببدر في هذا الموسم من سوقها فاشتراها النبي صلى الله عليه وسلم فربح مالًا، وقسمه بين أصحابه، وذلك الربح هو الفضل. ولا مانع من أن نعتبر ذلك الفضل معنويًّا؛ وهو فضل الجهاد والنية المحتسبة وقد باعوا أنفسهم لله تعالى، ولعل الأولى أن نقول: إن الفضل يشمل النوعين الربح المالي، والشرف المعنوي، وكلاهما قد نالوه.

وثالث الأمور: أنهم عادوا سالمين، وهذا معنى: **(لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ)** أي لم تنزل بهم جراح، بل إنه حتى الأمر الذي يسوءهم لمْ يمسَسْهم بل قد عادوا فرحين مستبشرين،

ورابع الأمور: أنهم اتبعوا رضوان الله، أي اتبعوا أمر الله تعالى، وساروا في الطريق الذي يكون فيه رضوانه تبارك وتعالى، **ورضوان الله أعظم ما يناله المؤمن، وحسبه أن يكون في عمل فيه رضوان الله الذي هو أكبر النعم لينال حظي الدنيا والآخرة،** وإن هذه النعم التي نالوها هي من فضل الله تعالى. **(وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ)** ختم الله سبحانه وتعالى هذه الآية الكريمة بذلك النص السامي وهي تصف المولى العلي الكريم

بأنه صاحب فضل عظيم لَا تُكْتَنَه حقيقته، ولا يحده الحصر، وقد بدا فيما أسبغه الله تعالى من نعم على الناس أجمعين، وما أنقذ به عباده المؤمنين من شر الكافرين، وما وفقهم له من طلب رضوانه وما نصرهم به من نصر مؤزر، والتنكير في الفضل ووصفه لإفادة كثرته وقوة أثره.

(وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ) إذ تفضل عليهم بزيادة الإيمان، والتوفيق إلى المبادرة إلى الجهاد، والجرأة على العدو، وحفظهم من كل ما يسوءهم.

وفي هذا إلقاء للحسرة في قلوب المتخلفين منهم، وإظهار لخطل رأيهم؛ إذ حرموا أنفسهم ما فاز به هؤلاء. [١]

فوائد:

☆ **هذه الواقعة تدل دلالة ظاهرة على أن الكل بقضاء الله وقدره، وذلك لأن المسلمين كانوا قد انهزموا من المشركين يوم أُحد، والعادة جارية بأنه إذا انهزم أحد الخصمين عن الآخر فإنه يحصل في قلب الغالب قوة وشدة استيلاء، وفي قلب المغلوب انكسار وضعف، ثم إنه سبحانه قلب القضية هاهنا، فأودع قلوب الغالبين (وهم المشركون) الخوف والرعب، وأودع قلوب المغلوبين القوة والحمية والصلابة، وذلك يدل على أن الدواعي والصوارف من الله تعالى، وأنها متى حدثت في القلوب وقعت الأفعال على وفقها.** [مفاتيح الغيب]

☆ **إن الذين انهزموا ثم أحسنوا الأعمال بالتوبة واتقوا الله في سائر أمورهم، ثم استجابوا لله وللرسول عازمين على الثواب موطنين أنفسهم على لقاء العدو، بحيث لما بلغهم كثرة جموعهم لم يفتروا ولم يفشلوا، وتوكلوا على الله ورضوا به كافيًا ومعينا؛ فلهم أجر عظيم لا يحجبهم عنه ما كان منهم من الهزيمة إذ كانوا قد تابوا**

[١] زهرة التفاسير (باختصار)– تفسير المراغي.

عنها، والله أعلم. [مفاتيح الغيب]

☆ **قال السيوطيّ في (الإكليل): (وَقالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) استحباب هذه الكلمة عند الغم والأمور العظيمة.** [محاسن التأويل]

☆ **عن ابن عباس رضي الله عنه: "حسبنا الله ونعم الوكيل"، قالها إبراهيم عليه السلام حين أُلقي في النار، وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قالوا: (إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ).**[١]

سبحانَ مَن تجرى الأمورُ بحُكْمِهِ ❖❖❖ عن علمِهِ لا يَعزُبُ المثقالُ
يا أمتي! شُقّي الظلامَ بصحوةٍ ❖❖❖ تحدو لها الإسراءُ والأنفالُ
اللهُ ينصرُ مَن ينـاصـــــرُه ، وإنْ ❖❖❖ عـزّ النصيرُ و ضاقتِ الأحـوالُ[٢]

من روائع السِّيَر:

☆ عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج يوم بدر في ثلاثمائة وخمسة عشر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**اللهم إنهم حُفاةٌ فاحمِلْهم، اللهم إنهم عُراةٌ فاكسُهُم، اللهم إنهم جِياعٌ فأشبِعهم**". ففتح الله له يوم بدر، فانقلبوا حين انقلبوا وما منهم رجل إلا وقد رجع بجَمَل أو جَمَلين، واكتسَوْا وشَبِعوا.[٣]

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشعر أن قريشًا أقبلت بكبريائها وبطَرِها تريد أن تتوج اضطهادها للإسلام بيوم أغبر، وكان يعلم أن جمهرة المسلمين صابرت البأساء والضراء أمدًا طويلًا وهي متشبثة بدينها في وجه عناد شديد.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه. (٢) من قصيدة "ثورة القدس" للمبدع/ صالح العمري.
(٣) رواه أبو دداود، وحسنه الألباني.

وقد استجاب الرحمن لاستغاثة نبيه، وتنزل النصر المفاجئ؛ فكان صاعقة كسرت ظهر الكفر، وجائزة ملأت أيدي المؤمنين بالخير، وصبغت وجوههم بالبشر.
ولم يكن انتصار بدر هذا إلا فاتحة عهد آخر من الجهاد العسكري تجمعت فيه كل القوى المعادية للإسلام تريد الإجهاز عليه والخلاص منه.[1]

☆ عن رفاعة الزرقي قال: لما كان يومُ أُحُد، وانكفأ المشركون، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**استووا حتى أُثني على ربي عز وجل**". **فصاروا خلفَه صفوفًا فقال: "اللهم لك الحمدُ كلُّه، اللهم لا قابضَ لما بسطتَ، ولا مُقرِّبَ لما باعدتَ، ولا مُباعِدَ لما قربتَ، ولا مُعطِيَ لما منعتَ، ولا مانعَ لما أعطيتَ. اللهم ابسُطْ علينا من بركاتِكَ ورحمتِكَ، وفضلِكَ ورزقِكَ، اللهم إني أسألُك النعيمَ المقيمَ الذي لا يَحولُ ولا يَزولُ. اللهم إني أسألُك النعيمَ يومَ العَيْلَةِ، والأمنَ يومَ الحربِ، اللهم عائذًا بك مِن سُوءِ ما أعطيتَنا، وشرِّ ما منعتَ منا، اللهم حَبِّبْ إلينا الإيمانَ وزَيِّنْه في قلوبِنا، وكَرِّهْ إلينا الكفرَ والفسوقَ والعصيانَ، واجعلنا مِنَ الراشدين. اللهم تَوَفَّنا مسلمين وأحْيِنا مسلمين، وألحِقْنا بالصالحين غيرَ خَزايَا ولا مَفتونين. اللهم قاتِلِ الكفرةَ الذي يصدون عن سبيلِك ويُكذِّبون رُسُلَك، واجعلْ عليهِم رِجزَكَ وعذابَك. اللهم قاتِلِ الكفرةَ الذين أُوتُوا الكتابَ.. إلهَ الحقِّ".**[1]

يقول فضيلة الشيخ/ محمد الغزالي رحمه الله: هذه دعوات ينسكب اليقين من كل حرف فيها، إن الهزيمة قد تكسر أفئدة الذين يعبدون الله على حرف. فأما الذين فنوا في الله وباعوه نفوسهم وأموالهم، فإن عبوديتهم تتألق في السراء والضراء، وهم يسلمون لله ما أراد، ويخضعون لحكمته. وذاك سر الكلمة الرقيقة الغالية التي قالها الرسول صلى

---

[1] فن الذكر والدعاء: فضيلة الشيخ/ محمد الغزالي رحمه الله (باختصار)

[1] رواه أحمد في مسنده، والحاكم في المستدرك، وصححه الألباني في الأدب المفرد.

الله عليه وسلم لصحبه بعد الهزيمة: "**استووا حتى أُثْني على ربي عز وجل..** ".

لقد عدَّ النبي الجليل ما وقع قدَرًا يعلم الله حكمته، ولا يجرؤ على وصفه بالسوء، إنه يستعيذ بالله من شر ما أعطى ومن شر ما منع على سواء، فربما كان العطاء مخوف العُقبى، وربما كان المنع ألمًا في الحاضر، وخيرًا في المستقبل. وحِصْنُ المؤمن أولًا وآخرًا هو الله تبارك اسمه. وقد ختم الرسول صلى الله عليه وسلم دعاءه باستنزال بأس الله على المشركين، ثم ضم إليهم الكفار أهل الكتاب، وذاك أن اليهود في المدينة كانوا يتربصون الدوائر بالمسلمين. إنهم سيفرحون كثيرًا لما حدث، حسبهم الله!.

ولا شك أنَّ ضربة أُحُد كانت موجعة، بيد أنها نفضت المجتمع الإسلامي نفضًا شديدًا، فامتاز المنافقون، وانعزلوا بغشهم وخداعهم، وتعلم المسلمون كيف يواجهون الأحداث بإيمان حر، وصف ملتئم. وشمت اليهود للنكبة النازلة، ولكن لم تمضِ سنون حتى نزل بهم أضعافها.[1]

☆ عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنهما، قال: دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأحزاب فقال: "**اللهمَّ مُنزِلَ الكتابِ، سريعَ الحسابِ، اهزِمِ الأحزابَ، اللهمَّ اهزِمْهم وزَلزِلْهم**". [متفق عليه]

والله تبارك وتعالى لا يقبل الدعاء من متواكل كسول، وما يستمع لشيء استماعه لهتاف مجتهد أن يبارك له سعيه، أو دعاء صابر أن يجمِّل له العاقبة.

فقد أطبقت قوات الضلال في الجزيرة كلها على المسلمين في مدينتهم، فإذا المسلمون في مأزق ضيق خانق يُنذر باستئصالهم. وكان الظن أن المسلمين قد احتبسوا في مصيدة هي لا محالة مهلكتهم، **وكان النبي الضارع لربه ينتظر منه العون لحظة بعد أخرى، فلا أمل إلا فيه.**

---

[1] فن الذكر والدعاء (باختصار).

وقد أفرغ المسلمون جهدهم في الدفاع عن رسالتهم ومدينتهم حتى لم يبقَ في طوق البشر مُدَّخر، وبقي أن تتدخل العناية العليا لتقمع صَعَر[١] الظالم، وتقيم جانب المظلوم. ومِن ثَمَّ أخذ سير المعركة يتطور على نحو لا يدرك الناس كُنهه.

فهزيمة الأحزاب حول المدينة شأنها عجيب؛ إذ بوغتت الأحزاب الطامعة بالأجواء تتمخض عن عواصف أو أعاصير تخلع خيامهم، وتكب آنيتهم، وتبعثهم يطلبون النجاة من حيث جاءوا، بعيدًا عن هذه المدينة المنيعة. **(وَما يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَما هِيَ إِلَّا ذِكْرى لِلْبَشَرِ)** [المدثر: ٣١].

وطلع النهار فإذا ظاهر المدينة خلاء.. ارتحلت الأحزاب، وانفك الحصار، وعاد الأمن، ونجح الإيمان في المحنة!.

رجعت الطمأنينة إلى النفوس، وظهرت خيبة الأحزاب بعد ما أقبلت من كل فجٍّ لتجتاح يثرب، وظهرت صلابة المسلمين في مواجهة الأزمات المرهقة.

ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ بعد هذه النتيجة الباهرة ـ:

"الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم". [رواه البخاري] [٢]

☆ لما صافَّ قتيبة بن مسلم للترك وهاله أمرهم، سأل عن محمد بن واسع، فقيل: هو ذاك في الميمنة جامح على قوسه، يبصبص بإصبعه نحو السماء. قال: تلك الإصبع أحب إليّ من مائة ألف سيف شهير وشاب طرير.[٣]

وهذا فهم راسخ من قتيبة بن مسلم الباهلي لأسباب النصر؛ ألا وهو التوكل على الله تعالى، وتوثيق الصلة به واستلهام النصر منه. ولقد عبأ جيشه وتأكد من حسن إعداده، ولكنه بحاجة إلى التأكد مما هو أهم من الإعداد المادي؛ حيث يتجاوز

---

[١] (الصَّعَرُ) الْمَيْلُ في الخَد خاصة، وقد (صَعَّرَ) خَدَّهُ (تَصْعِيرًا) و(صَاعَرَهُ) أي أَمَالَهُ مِنَ الكِبْرِ. [مختار الصحاح]

[٢] فن الذكر والدعاء للغزالي – فقه السيرة للغزالي (باختصار وتصرف).

[٣] يبصبص: يحرك – طرير: ذو هيئة حسنة وجمال.

المسلمون بالسلاح المعنوي حدود التكافؤ المادي في القُوَى بمراحل عديدة. ولما كان محمد بن واسع في جيشه سارع إلى السؤال عنه، فلما أُخبر بأنه مستغرق في مناجاة الله تعالى ودعائه واطمأن قلبه، وارتفع مستوى الأمل بالنصر عنده؛ قال تلك الكلمات الإيمانيه الرفيعة: تلك الإصبع أحب إلى من مائة ألف سيف شهير وشاب طرير.

إن قوى الأرض كلها بيد الله تعالى، وإن النظر إلى القوى المادية من حيث العدد والعُدد والمواقع إنما هو حسابات البشر، والله جل جلاله قادر على تغيير هذه الموازين في لحظة. وإن من أهم الأسباب لاستجلاب نصر الله تعالى دعاء الصالحين. فلذلك استبشر قتيبة خيرًا حينما علم باستغراق محمد بن واسع في الدعاء.

وهذا الفهم الرفيع من قتيبة رحمه الله يبين لنا سببًا مهمًّا من أسباب انتصاراته الباهرة؛ التي ظلت تتوالى أكثر من عشر سنوات. فبالرغم من كونه بطلًا لا يُشَقُّ له غبار، وقائدًا مخططًا يضع للأمور أقرانها، وسياسيًّا محنكًا لا يُخدع.. فإنه لم يغتر بكل ذلك، بل اعتبر ذلك كله من الأمور الثانوية، ونظر قبل ذلك إلى مدى توثيق الحبل الذي يصل جيشه بالله تعالى. فلما عرف بأن محمد بن واسع قد وصل ذلك الحبل بالدعاء، وبما سبق ذلك من شهرته بالإيمان القوي والعمل الصالح؛ حصل له اليقين، وزال عنه سبب من أسباب الخوف المتمثل بضعف الصلة بالله تعالى.[١]

كان السلطان الكبير، الملك العادل، عضد الدولة، أبو شجاع، **ألب أرسلان**[٢] متلهفًا للجهاد في سبيل الله، ونشر دعوة الإسلام داخل الدول المسيحية المجاورة له، كبلاد الأرمن وبلاد الروم، وكانت روح الجهاد الإسلامي هي المحركة للفتوحات التي قام بها ألب أرسلان، وأكسبتها صبغة دينية؛ فأصبح زعيمًا للجهاد، حريصًا على

---

[١] **الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار: د. علي الصلابي (بتصرف يسير).**

[٢] **ألب أرسلان: اسم تركي معناه الأسد الجسور.**

نصرة الإسلام ونشره في تلك الديار، ورفع راية الإسلام خفاقة على مناطق كثيرة من أراضي الدولة البيزنطية.

وكان الطاغية ملك الروم قد استشاط غضبًا من الحركة الجهادية لألب أرسلان، فحشد جنده، وأقبل في جحافل أمثال الجبال، وعدد عظيم وعُدَد.. وقد عزم –قبحه الله– أن يبيد الإسلام وأهله.. فالتقاه السلطان ألب أرسلان في جيشه وهم قريب من عشرين ألفًا بمكان يقال له الزهوة، في يوم الأربعاء، وخاف السلطان من كثرة جند ملك الروم.. فتوجه العالم الرباني أبو نصر محمد بن عبد الملك البخاري الحنفي، ينصح السلطان ألب أرسلان قائلًا: إنك تقاتل عن دين وعد الله بنصره وإظهاره على سائر الأديان. وأرجو أن يكون الله قد كتب باسمك هذا الفتح **فالقهم يوم الجمعة في الساعة التي يكون الخطباء على المنابر، فإنهم يدعون للمجاهدين.**

فلما كانت تلك الساعة صلى بهم، وبكى السلطان، فبكى الناس لبكائه، ودعا فأمنوا، فقال لهم: من أراد الانصراف فلينصرف، فما ههُنا سلطان يأمر وينهى. وألقى القوس والنشاب، وأخذ السيف، وعقد ذنَب فرسه بيده، وفعل عسكره مثله، ولبس البياض وتحنط وقال: إن قُتلت فهذا كفني.. **وحمل بجيشه حملة صادقة، فنصر الله المسلمين على عدوهم، ومنحهم أكتافهم؛ فاستحر بهم القتل، وأُسر ملكهم أرمانوس.**[1] **[(بتصرف) البداية والنهاية – الدولة العثمانية – سير أعلام النبلاء]**

[1] تعتبر معركة "ملاذكرد" (٤٦٣ هـ-١٠٧١م) من المعارك الفاصلة في التاريخ، ويسميها بعض المؤرخين باسم الملحمة الكبرى، وتعد أكبر نكسة في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية. ولم يكن هذا الانتصار انتصارا عسكريا فقط، بل كان انتصارا دعويا للإسلام، إذ انتشر السلاجقة في آسيا الصغرى عقب معركة "ملاذكرد" وضموا إلى ديار الإسلام مساحة تزيد على ٤٠٠ ألف كم، عمَّ الإسلام تلك الجهات منذ ذلك الوقت ولم يكن دخلها أبدا من قبل. [دولة السلاجقة: د. علي الصلابي (باختصار)]

☆ قال الحسن بن محمد الإقريطشي: ألح غزاتُنا بأقْريطِش[١] على الروم، ونالوهم بمكروه عظيم؛ فوجد ملك الروم من هذا، ونذر أن يحارب أقريطش ولو أنفق ذخائر مملكته في حربها، وعمد إلى راهب من أبناء الملوك، يتعالم الروم زهادته، فأنزله من متعبده، وضم إليه أكثر جيوشه، فوافى أقريطش في جمع لم يحط بها مثله قط، ففزعنا إلى غلق أبواب الحصن، وشرع القوم في بناء مسكن لهم، وخرجوا من المراكب، وغُلبنا على ميرة البلد، وما يكون في جواره، واشتد بنا الحصار، ونزع السعر، وغلى المأكول، وعم الجهد.

ثم زادت المكاره، حتى أكل الناس ما مات من البهائم جوعًا واضطرارًا، وأجمعوا على أن يفتحوا الباب للروم.. فقال لهم شيخ من المسلمين: إني أراكم قد حُرمتم التوفيق في قوتكم وضعفكم، فالصواب: أن تقبلوا مني ما أشير به عليكم. قالوا: قل.. **قال: توبوا إلى الله عز وجل من قبيح ما حملكم عليه تظاهر النعم وطول السلامة**، والزموا ما يكون رباطًا لها وقائدًا إلى حسن المزيد منها، وأخلصوا له إخلاص من لا يجد فرجة إلا عنده، وافصلوا صبيانكم من رجالكم، ورجالكم من نسائكم.

فلما ميزهم هذا التمييز صاح بهم: **عجوا بنا إلى الله.. فعجوا عجة واحدة، وبكى الشيخ واشتد بكاء المسلمين وصراخهم.**

ثم قال: **عجوا أخرى ولا تشغلوا قلوبكم بغير الله.. فعجوا عجة أعظم من الأولى وكثر بكاؤهم.**

---

[١] أَقْرِيطِش (بفتح الهمزة وكسرها): اسم جزيرة من جزائر الروم. وهي جزيرة كبيرة فيها مدن وقرى، وهي كثيرة الكروم والأشجار. ويطلق عليها الآن (كريت). فتحت في أيام المأمون، وكانت من أعظم بلاد المسلمين نكاية على الروم، إلى أن أناخ عليها نقفور بن الفقاس الدمستق في خلافة المطيع، وتملك أرمانوس بن قسطنطين في آخر جمادى الأولى سنة ٣٤٩هـ، في اثنين وسبعين ألفا، منهم خمسة آلاف فارس، ولم يزل محاصرا لها حتى فتحها عنوة بالحرب والجوع في نصف المحرم سنة ٣٥٠هـ، فقتل ونهب وسبى. وقيل: إنه حمل إلى القسطنطينية من أموالها وسبي أهلها نحوا من ثلاثمائة مركب، وهدموا حجارة المدينة وألقوها في الميناء الذي دخلت مراكبهم فيه لئلا يدخل فيه بعدهم عدو، وهي إلى الآن بيد الإفرنج. [معجم البلدان (باختصار وتصرف)]

ثم عج الثالثة وعج الناس معه.. ثم قال: أشرفوا من الحصن فإني أرجو الله أن يكون قد فرج عنا.

فحلف الحسن بن محمد فقال: والله لقد أشرفتُ مع جماعة، فرأينا الروم قد قوضوا[١]، وركبوا مراكبهم، ولججوا في البحر، وفتحنا الحصن، فوجدنا قوما من بقاياهم، فسألناهم عن خبرهم فقالوا: كان الراهب عميد الجيش بأفضل سلامة اليوم، حتى سمع ضجتكم بالمدينة، فوضع يديه على قلبه وصاح: قلبي.. قلبي.. ثم توفي! فانصرف من كان معه من الجيوش إلى بلاد الروم.

قال الحسن: **ووجدنا في الأبنية من محلتهم من القمح والشعير ما وسع أهل المدينة وعاد إليها معه خصبها، وكفى الله جماعتهم بأس الروم من غير قتال، والحمد لله.** [٢]

الفاتح المعنوي للقسطنطينية الشيخ **آق شمس الدين** وقد ظهرت بركته وظهر فضله.. ففي أثناء الهجوم لفتح القسطنطينية أراد السلطان أنْ يكون شيخه بجانبه؛ فأرسل إليه يستدعيه.. ولكن الشيخ كان قد طلب ألا يدخل عليه أحد الخيمة.. ومنع حراسُ الخيمة رسولَ السلطان مِن الدخول، وغضب محمد الفاتح، وذهب بنفسه إلى خيمة الشيخ ليستدعيه؛ فمنع الحراسُ السلطانَ مِن دخول الخيمة بناءً على أمر الشيخ..! فأخذ الفاتح خنجره وشق جدار الخيمة في جانب مِن جوانبها ونظر إلى الداخل.. **فإذا شيخه ساجد لله في سجدة طويلة، وعمامته متدحرجة مِن على رأسه، وشعر رأسه الأبيض يتدلى على الأرض، ولحيته البيضاء تنعكس مع شعره كالنور.. ثم رأى السلطان شيخه يقوم مِن سجدته والدموع تنحدر على خديه؛ فقد كان يناجي ربه، ويسأله الفتح القريب.**

---

[١] قوَّض البناء: نقضَه من غير هدم. [٢] المستغيثين بالله (بتصرف يسير)

وعاد السلطان عقب ذلك إلى مقر قيادته، ونظر إلى الأسوار المحاصَرة.. فإذا بالجنود العثمانيين وقد أحدثوا ثغرات بالسور تدفق منها الجنود إلى القسطنطينية.. ففرح السلطان بذلك وقال: **ليس فرحي لفتح المدينة؛ إنما فرحي بوجود مثل هذا الرجل في زمني.** [الدولة العثمانية للصلابي (بتصرف)]

☆ بدأت معركة "حطين" في وسط نهار الجمعة، وكان صلاح الدين كثيرًا ما يقصد لقاء العدو في يوم الجمعة عند الصلاة تبركًا بدعاء المسلمين والخطباء على المنابر.

وحرص صلاح الدين على أن يحول بين الصليبيين والوصول إلى الماء في الوقت الذي اشتد فيه ظمؤهم، كما أشعل المسلمون النار في الأعشاب والأشواك التي تغطي الهضبة (سطح جبل طبرية المشرف على سهل حطين)، وكانت الريح على الصليبيين فحملت حر النار والدخان إليهم، فقضى الصليبيون ليلة سيئة يعانون العطش والإنهاك، **وهم يسمعون تكبيرات المسلمين وتهليلهم الذي يقطع سكون الليل، ويهز أرجاء المكان، ويثير الفزع في قلوبهم.**

☆ في معركة عين جالوت عندما اصطدم العسكران اضطرب جناح عسكر السلطان، وانتقض طرف منه؛ فألقى الملك المظفر عند ذلك خوذته عن رأسه إلى الأرض وصرخ بأعلى صوته: "**وا إسلاماه!**" وحمل بنفسه وبمن معه حملة صادقة، فأيَّده الله بنصره..

مر العسكر في أثر التتر إلى قرب بيسان، فرجع التتر والتقوا بالمسلمين لقاءً ثانيًا أعظم من الأول فهزمهم الله وقتل أكابرهم وعدة منهم، وكان قد تزلزل المسلمون زلزالًا شديدًا فصرخ السلطان صرخة عظيمة سمعه معظم المعسكر وهو يقول: "**وا إسلاماه!**" ثلاث مرات.. "**يا الله انصر عبدك قطز على التتار!**" فلما انكسر التتار الكسرة

الثانية **نزل السلطان عن فرسه ومرغ وجهه على الأرض وقبلها، وصلى ركعتين شكرًا لله تعالى ثم ركب، فأقبل العساكر وقد امتلأت أيديهم بالمغانم!**

☆ قال د. عبد الله عزام رحمه الله: حدثني "محمد صديق كري" أن الطائرات هجمت عليهم، فاختبأ إلا رجلا كبيرا في السن اسمه "محمد عمر"، وأخذ يدعو، فما أنهى دعاءه حتى سقطت طائرة ولم نطلق طلقة واحدة عليها.

ولقد حدثني الكثيرون من قادة الجهاد الصادقين منهم **"أرسلان"** أن الذخيرة قد انتهت في أحيان كثيرة واقتربت الدبابات لتمسكنا أحياء ففزعنا إلى الله ودعونا، فدارت معركة شديدة على الدبابات وتحطم بعضها، ولم نطلق طلقة واحدة عليها وهزمت.

وحدثني "خيال محمد" -صهر "جلال الدين حقاني"- أن ثمانين دبابة وآلية هجمت عليهم، وكانوا أربعين مجاهدًا في أفغانستان، واقتربت الدبابات لتمسك بهم أحياء، قال: فصلينا الظهر وبكينا وضرعنا إلى الله أن لا يجعل للكافرين علينا سبيلا، ولا يمكنهم منا، قال: ثم حملتُ حفنة من الحصى ورميت بها نحو الدبابات.. حفنة حصى رماها نحو الدبابات، هل الحصوة تعطل جنزير؟! ماذا تصنع..؟!

قال: وكانت الطريق ترابية ضيقة، فتقدمت الدبابة الأولى؛ ولا أدري كيف انقلبت؟ لا أدري.. الدبابة الثانية رمينا عليها زجاجة ملوتوف، وظن قائد الدبابة أن تحت الدبابة لغم فانحرف عن وسط الطريق، فلم يحتمل طرف الطريق الدبابة واهتز توازنها؛ فانحرفت وأصبحت بالعرض.. وسد الطريق بقية الآليات.. وإذا بجميع الذين في الدبابات إلا دبابة واحدة يُخرجون الأعلام البيضاء ويرفعون أيديهم مستسلمين..!

والمفاجأة الكبيرة، قال: لم يكن عند المجاهدين في أفغانستان (آر. بي. جي) واحد مضاد للدبابات؛ فوجدنا في إحدى الدبابات خمسة وثلاثين مضادًّا للدبابات مع ألف قذيفة لها.. [(بتصرف يسير) إتحاف العباد بفضائل الجهاد: د. عبد الله عزام]

☆ وفي موضع آخر يحكي رحمه الله: قال لي "مولوي أرسلان": أحد المجاهدين اسمه "باطور" رأيته كان يرمي على (آر. بي. جي)، ولم يكن عندنا إلا ست قذائف، وهجمت الدبابات علينا، فضربنا القذيفة الأولى والثانية والثالثة والرابعة والخامسة.. قال: رمينا خمس قذائف طارت في الهواء، وظلت قذيفة واحدة.. قال له: أمسكها.. لا تطلقها حتى نصلي ركعتين صلاة الحاجة. توكل على الله، وصلى ركعتين صلاة الحاجة، ثم دعى الله عز وجل، ثم قال له "باطور": أي سيارة أضربها من سيارات القافلة ؟ قال له: هذه السيارة.. اضربها –سيارة مدنية في قافلة– قال: لماذا ؟ قال: لابد من حرق السيارة المدنية هذه التي يرسلها صاحبها مع الجيش.. ضرب فأصابت، وإذا بهذه السيارة المدنية شاحنة تحمل الذخائر.. بدأت الذخائر تتطاير والصواريخ وما إلى ذلك.. هل تعلم كم دبابة وآلية تحطمت ؟ قال لي – وهو صادق –: تحطمت ثمانون آلية بقذيفة واحدة. **هذا ليس شغل البشر.** [(بتصرف) إتحاف العباد بفضائل الجهاد]

☆ ويذكر في نفس المرجع قائلا: ذات ليلة كان "جل محمد" عائدًا إلى قاعدة المجاهدين فضل الطريق، ثم رأى نورًا فدخل، وإذا به في قاعدة للشيوعيين، أمسكه الضابط الروسي، قال: سنقتلك، قال: اقتلني ! قال: لكن أنا أريد أن أسألك سؤالا: كيف يخترق رصاصكم الصغير دباباتنا ؟! قال "جل محمد": أنا ميت ميت، والله لأميتنه قبلُ خوفًا.. ليس الرصاص وحده فقط، الحجر لو رميناه على دباباتكم لاخترقها !

الضابط الروسي قال له: هذه دبابة أمامك.. إرم حجرا حتى نرى كيف يخترقها..

قال: لكن اسمح لي أن أصلي ركعتين.

صلى ركعتين، وفي السجود قال: يا رب أنت تعلم لا رصاصنا يخترق ولا تربتنا ولا حجارتنا تخترق، وإنما قلتها تخويفًا لأعدائك، اللهم لا تفضحنا، اللهم لا تفضح المجاهدين.. وأطال الدعاء. ثم سلم وأمسك حفنة من الحصى والتراب، وقال: بسم الله ثلاثا، ورماها على الدبابة.. وإذا بالدبابة تشتعل نارًا.. تشتعل نارًا.[١]

ربي أتيتُكَ والمواجعُ جَمّةٌ ... ويقينُ قلبيَ أنكَ الحنّانُ

أحزانُ أمتِنا التي مادتْ بها ... ريحُ الأسى ، وطغى بها الطغيانُ

تاهتْ معالِمُها ، وغُيِّبَ وَعْيُها ... فترنحتْ ، يَلهو بها الصِّبيانُ

قد سامها سوءَ العذابِ أصاغرٌ ... لَعِبوا بها وتَجبروا وأهانوا

يا ربِّ فاقصمْ ظهرَ كلِّ مكابرٍ ... وَأَدَ الحياةَ كأنه شيطانُ

فأباحَ ظلمَ الناسِ ، بدَّلَ سَعْدَهم ... حُزنًا ، وفاضَ بظُلمِهِ الفيَضانُ

فارحمْ عبادَكَ مَسَّهم ضُرُّ الأسَى ... مسًّا ، وإنكَ سيدي الرحمنُ[٢]

[١] (بتصرف يسير) إتحاف العباد بفضائل الجهاد: د. عبد الله عزام رحمه الله.

[٢] من قصيدة "يا رب" للشاعر / رأفت عبيد أبو سلمى (بتصرف يسير).

الفهرس

الموضوع	رقم الصفحة
ثامنا: تأصيل الهوية الإسلامية	٦
اشهدوا بأنا مسلمون	٧
صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة	١١
حسدًا من عند أنفسهم	١٤
الهدف الذي لا يتغير لأعداء الجماعة المسلمة	١٨
مرحلة ما قبل إسقاط الخلافة	١٩
مرحلة التبشير والاستشراق	٢١
مؤامرة إسقاط الخلافة الإسلامية	٢٦
تَبِعات سقوط الخلافة الإسلامية	٣٣
الوسائل التي لجأ إليها أعداء الأمة ليقيموا جدرانًا سميكة بين المسلمين ودينهم	٣٧
(١) إنشاء ديكتاتوريات سياسية وفرض العلمانية	٣٧
كيف تضرب الإسلام، وتطفئ جذوته، وتميت صحوته	٣٩
مؤسس مصر الحديثة "محمد علي" باشا	٤٠
الخائن الذي حول الإمبراطورية الإسلامية إلى قُطر	٤٤
زعماء ثورة يوليو ١٩٥٢م وتنحية الإسلام عن المجتمع	٤٦
حصاد العلمانية	٥٣
(٢) إثارة النزعة القومية	٥٨
رواد الحركة القومية العربية	٦٣
ولتعرفنهم في تهافت الفكر وفي لحن القول	٧٠

بعث القوميات البائدة رِدَّة جاهلية	٧٣
(٣) اغتيال اللغة العربية	٨٢
لسان الوحي	٨٢
تقليص ظل الفصحى	٨٦
الدعوة لنشر العامية وإحياء اللهجات الإقليمية	٩١
الانقلاب اللغوي في تركيا	٩٥
الكردية	١٠٠
الأمازيغية	١٠٥
ولا تزال رحى الحرب دائرة	١١١
عز اللغة من عز أهلها؛ فإن هان الأصل هان الفرع	١١٣
انتكاسات تثير العجب	١٢٠
والفضل ما شهدت به الأعداء	١٢٦
يطالبوننا بالتخلي عن لغتنا وهم أشد الناس تمسكًا بلغاتهم	١٢٨
الإقبال على تفهم اللغة العربية من الديانة	١٣٢
(٤) علمنة التعليم	١٣٧
مشاعر الضغينة لا تزيدها الليالي إلا ضِرامًا	١٣٨
إن المبشر الأول هو المدرسة	١٤٤
المناهج الدراسية واستلاب العقيدة	١٤٨
أرض الكنانة (تخضع) للهيمنة الثقافية (التغريبية)	١٥٣
التدريس بالإنجليزية	١٦٨
خطة تقليص ظل الأزهر	١٧٤
الابتعاث من أجل تحصيل العلوم والمعارف الجديدة في الغرب	١٧٨

مخاطر تجذر الهُوية المغايرة	١٨٤
(٥) إفساد الأخلاق والسلوك بزعم (تحرير المرأة)	١٩٣
صياغة المرأة المسلمة على النمط الغربي	١٩٧
إذا ذهب الحياء حل البلاء (الاختلاط)	٢٠٠
ويلٌ للمغلوب إذا غزاه الغالب	٢٠٥
وسقط الحجاب بزعم "تحرير المرأة"	٢١٠
زعموا أن الإسلام (متهم) بإهانة المرأة واستضعافها	٢١٦
العداء الصريح للحجاب والتضييق على المحجبات	٢١٨
خطط الأعداء (حديثًا) لهدم كيان المجتمع الإسلامي من خلال المرأة	٢٢٢
(٦) نشر (التغريب) بواسطة الثقافة والإعلام	٢٣٢
سيطرة اليهود على وسائل الإعلام	٢٣٢
اتساع نطاق (الهجوم) على الشريعة	٢٣٥
إشاعة الفاحشة وتزيين الانحلال والتهوين من أمره	٢٤٠
الانقلاب الوظيفي للأدب (الحداثة)	٢٤٧
التمسك بالهُوية حرامٌ على المسلمين حلالٌ على الأوغاد من كل جنس!	٢٥٦
تاسعًا: الاستعانة بالله عز وجل	٢٦٥
من استعان بالله فهو صاحب الغلبة ولو بعد حين	٢٦٦
استجلاب النصر بالدعاء	٢٧١
قول: "لا حول ولا قوة إلا بالله" يوجب الإعانة	٢٧٥
"حسبي الله ونعم الوكيل" كلمة استعانة بالله	٢٧٨
فوائد	٢٨٣
من روائع السِّيَر	٢٨٤

تم بحمد الله عز وجل